
... رواية ...
أحمد سعد الدين
قِلادَة مَردُوخ

قلادة مردوخ

رواية

الإهداء

إلى:

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن أبي فراس بن سعد..

ربما تكون اليوم مجهولا بعد سبعة قرون من رحيلك..

لكنك على الأقل لن تصير كذلك عند كل من يقرأ هذه السطور..

لعل من يرى كلماتك، ويعرف ما فعلته لإنقاذ «كتاب»، يعي بعدها معنى «كتاب»..

عليك سلام الله...

وَداعًا كينيدي

«قد يموت شخص، وقد تنهض الأمم أو تنهار، لكن الفكرة تظل حيـة؛ لا تنتهي صلاحيتها بموت صاحبها، فالأفكار مصيرها الخلود».
جون كينيدي

***

ولاية تكساس - الولايات المتحدة الأمريكية
٢٢ نوفمبر ١٩٦٣م

رفع الرئيس الأمريكي «جون كينيدي» ذراعه ملوّحًا لجمهوره الذي اصطف على جانبي الطريق، مرت سيارته الرئاسية المكشوفة وسط التلال المكسوة بالعشب الأخضر في منطقة ديلي بلازا بمدينة دالاس، بينما جلست زوجته «جاكلين كينيدي» بجواره مبتسمة وهي تلوح بدورها من حين لآخر للمصطفين، الذين بدأت أعدادهم تخف تدريجيا ويخفت ضجيجهم، بعدما ابتعد الموكب عن زحام الجماهير بوسط المدينة، في حين جلس «جون كونالي» -حاكم ولاية تكساس- بجوار زوجته «نيللي كونالي» بنفس السيارة في المقعد الواقع أمام الرئيس وزوجته مباشرة.

كانت الأيام التي تسبق زيارة كينيدي لولاية تكساس أيامًا عاصفة، يسودها طقس سيئ، محمل بالرياح والمطر، وسماء متخمة بالسحب الرمادية الكثيفة. توقع خبراء الأرصاد استمرار حالة الطقس. لكن كينيدي كان لديه شعور قوي بأن الطقس سيتحسن. لم يلتفت إلى توقعات الأرصاد، وارتدى بدلة خفيفة، وقرر عدم وضع أغطية السيارات واستقلالها مكشوفة، ليُحيّي الجماهير عن قرب، وكما توقع، فقد تحولّ الطقس الغائم -فجأة- إلى الاعتدال قبل الانطلاق بقليل، وأشرقت الشمس على عكس ما توقعت الأرصاد!

كان الضابط «روي كيلرمان» قائد الفرقة المكلفة بتأمين الرئيس -التابعة لوكالة الخدمة السرية- قد همس بكلمات معترضة في أذن كينيدي قبل تحرك الموكب، يخبره بأن استقلاله -مع مرافقيه- هذه السيارات المكشوفة، يشكل خطرا كبيرا على حياتهم جميعا، وأن تركيب الأغطية المزودة بأسقف ودروع مضادة للرصاص فوق السيارات هو الخيار الآمن. لكن كينيدي أجابه مداعبا:

- لا بأس يا «روي»، لا تخش شيئا. هذه الزيارة جاءت في هذا التوقيت خصيصا لتتحدى كل التهديدات، ألا ترى سماء تكساس قد صفَت اليوم بعد عناد وكأنها ترحب بحضورنا؟ حتى الشمس ترغب في أن تشهد الموكب الرئاسي اليوم يا «روي»!

بالرغم من عبارته المُطَمْئِنة، كان «كينيدي» يسترجع بقلق كل ما جاءه من تهديدات بالقتل، خاصة من معارضيه في تلك الولاية إذا ما قام بزيارته لها، وكيف حذره مستشاروه من القيام بتلك الزيارة، لكنه أصر بعناده أن يذهب إلى هناك في زيارة غير اعتيادية -ضمن سلسلة زيارات في جولة متصلة- مستقلا تلك السيارة المكشوفة من طراز «لينكولن كونتيننتال»، ليبعث برسائل طمأنينة لأنصاره، وليكسب مزيدا من المؤيدين في حملته الانتخابية المبكرة.

- ما الذي يمكن أن يحدث يا «جون»؟ لن يبلغ ذلك نصف متاعب الحرب الباردة مع روسيا ومشاكل كوبا وفيتنام، ولا انشقاقات الحزب الديمقراطي.

ولن تصل إلى عُشر المصاعب التي تواجهها في حروب المافيا ومفاوضاتك مع إسرائيل في الشرق الأوسط.

قالها كينيدي في نفسه مقاوما ذلك التوتر الذي اكتنفه، مجاهدا نفسه لإخفاء خوفه الدفين، كان يحاول التخلص من تلك الأثقال التي ناء بحملها خلال عامين من رئاسته للولايات المتحدة الأمريكية، خاصة مع تراجع شعبيته مؤخرا في بعض الولايات، لذلك عزم على القيام بجولة دعائية في تلك الولايات من ضمنها «تكساس» المثيرة للجدل، لكن لم يخطر بباله أن زيارته لتكساس يمكن أن تكون محطته الأخيرة.

حتى الآن، كانت النتيجة تفوق توقعاته، جماهير حاشدة احتلت الشوارع، لافتات في كل مكان، صيحات الجموع ارتفعت في الميادين والطرقات حاملة عبارات الترحيب، لم تكن تلك مدينة دالاس التي تكره كينيدي، وأدرك هو أن زيارته إلى تكساس قد تحولت إلى احتفالية كبرى.

اقترب الموكب من أحد طرقات حي «ديلي بلازا» المنحنية، التي تناثر على جانبيها بعض المؤيدين، اخترقت السيارات الطريق المنحدر بين التلال الخضراء، خفض سائق سيارة الرئيس من سرعتها كما فعل نظيره في السيارة التي تسير أمامه في الموكب، فجأة.. دوّى صوت رصاصة في الأفق، ارتج جسد كينيدي وتصلب على وضعه الجالس، أمسك بعنقه وصاح ببضع كلمات قائلا:

- يا إلهي.. لقد أُصِبْت!

وضع يده على فمه -عاجزا عن النطق- محاولا إيقاف الدماء المتدفقة منه، حاول الانحناء للأمام لكنه عجز عن ذلك، اندفعت زوجته نحوه متسائلة عما أصابه، أحاطت جسده بذراعها وهي تعالج أزرار قميصه بيدها الأخرى صارخة في لوعة:

- «جون»! ماذا حدث، لماذا تصرخ؟

في اللحظات التالية مال جسد حاكم تكساس نحو زوجته «نيللي» -التي

تجلس جهة اليسار في المقعد الأوسط- مصابا بدوره. امتزج صراخه المذعور بصراخ زوجته. استمر في الصراخ وهو منبطح حتى فقد وعيه. لكن كينيدي كان عاجزا عن الانبطاح مثله في المقعد الخلفي.

دوت طلقات أخرى متقاربة بدوي مماثل. انطلقت من بينها رصاصةٌ. لم تفصلها عن الطلقة الأولى سوى ستة ثوانٍ. لكنها عرفت طريقها إلى مؤخرة رأس كينيدي. قبل أن تعبر إلى الجانب الأيمن محطمة جزءًا من جمجمته.

- يا إلهي.. لقد قتلوه.. جون.. جون!

أطلقت «جاكلين» صرختها اليائسة. كأنها صيحة تنبيه تمنعه من مفارقة الحياة. لكنها أدركت في قرارة نفسها أن الرصاصة الأخيرة كانت قاتلة. كانت يداها قد تلطختا بدماء زوجها الحارة. تناثرت دماؤه في أرجاء السيارة. وطالت كل ما بداخلها. حتى الزهور اصطبغت بلون الدم. تساقطت كتل الدماء على المقعد الخلفي. التفتت «جاكلين» خلفها. لمحت «كلينت هيل» -أحد ضباط فرقة تأمين الرئيس- يركض نحو سيارتهم. بعد أن قفز من السيارة التي تتبعهم في الموكب. كان يركض منذ لحظة انطلاق الرصاصة الأولى. كان أكثر أفراد الطاقم سرعةً ويقظة. وقد أدرك بسرعة بديهته -قبل زملائه- أن رئيسه قد أصيب بعيار ناري. فاندفع محاولا إنقاذه. أمسك بالمقبض البارز في مؤخرة سيارة الرئيس. تشبث به بإحكام ووضع قدمه على درجة السلم بجانب السيارة الأيسر. في نفس اللحظة كان قائده «روي كيلرمان» -الذي لم ير ما فعله «كلينت»- يصرخ في مرؤوسه الذي يقود نفس سيارة الرئيس قائلا:

- انطلق بالسيارة!

اندفعت السيارة إلى الأمام بعنف. فانزلقت قدم «كلينت هيل» من فوق درجة السلم الخلفية في بادئ الأمر. اندفعت «جاكلين» نحو مؤخرة السيارة لمساعدة «كلينت». مالت بجسدها كله فوق مؤخرة السيارة وجذبت الرجل قبل أن يسقط. خيل إليها أنها قد سمعت دوي رصاصة أخرى. لكن لم يكن

هناك فرصة للتحقق من ذلك.

فور صعوده إلى السيارة، أحاط «كلينت» رئيسه المصاب بجسده، محاولا حمايته من أية رصاصات أخرى، لكن الرصاصات كانت قد توقفت بعد أن نالت مأربها من كينيدي، أدرك «كلينت» الأمر، فأخذ يضرب مؤخرة السيارة بقبضتيه في ثورة ويأس، تعبيرا عن فشل رجال الخدمة السرية في حماية الرئيس.

أما «كيلرمان» قائد فرقة التأمين، فقد صاح عبر جهاز اللاسلكي قائلا لمرؤوسيه:

- لقد أصيب الرئيس وحاكم الولاية.. خذونا إلى أحد المستشفيات.

انبطح الكثير من المواطنين حول الموكب فور سماعهم دوي صوت الرصاصات المتتالية، تفجر الموقف في لحظات قليلة، وتحولت فرحتهم باستقبال الرئيس إلى فزع وخوف من توابع تلك الواقعة، أما السائق فقد واصل الاندفاع بسيارته لإبعادها عن منطقة إطلاق النار، على أمل أن تكون محاولة الاغتيال قد أخفقت.

بعد دقائق معدودة تم محاصرة المنطقة بسياج أمني محكم، وجرت عمليات تفتيش واسعة ومستمرة. في نفس التوقيت الذي وصلت فيه سيارة كينيدي إلى مستشفى «باركلاند»، التف الصحفيون حول سيارة الرئيس، لكن رجال الخدمة السرية أبعدوهم بمنتهى الحزم، كان «جون كونالي» حاكم تكساس مستلقيا على ظهره في المقعد الأوسط، بينما استراح رأسه في حجر زوجته «نيللي» التي انخرطت في بكاء متواصل، أما كينيدي فقد احتوته «جاكلين» بذراعيها، وكأنها تخفي إصاباته القاتلة عن أعين من حوله، لكنها عجزت عن مواراة بقع الدم التي انتشرت في كل أرجاء السيارة.

كانت الأجواء مشحونة يسودها الاضطراب والخوف والفزع، وارتفعت داخل المستشفى وخارجها أصوات المتجمهرين يشوبها القلق واللهفة، مشاعر

متناقضة وأحاسيس بالاستياء والأسى. حضر طاقم الطوارئ بالمستشفى، نقلوا كينيدي سريعا إلى الداخل. كان لا يزال ينازع الموت، ركضوا به نحو غرفة العمليات، وبالخارج تحرك الضابط «كلينت هيل» مع زملائه لمتابعة حالة الرئيس وتأمين المستشفى، لكن أحد الصحفيين -الذي كان يعرف «كلينت»- جذبه من يده وتنحى به جانبا وهو يسأله:

- «كلينت».. هل جرح الرئيس خطير؟

أجابه «كلينت» بعين دامعة، قبل أن يجذب يده متجها إلى داخل المستشفى:

- غير مسموح لي بالإدلاء بأية تصريحات تخص الرئيس!

وصل في أعقابه «جورج بيركلي» طبيب كينيدي الخاص، الذي هبط من سيارة تابعة لفرقة التأمين، كان قد عجز عن استقلال السيارة الأولى في الموكب الرئاسي لمصاحبة كينيدي كما اتفق، فاضطر لاستقلال إحدى الحافلات التي تخص كبار الشخصيات في مؤخرة الموكب، لكنه بعد علمه بإصابة كينيدي أصر على ركوب تلك السيارة حتى يلحق بالرئيس، كان يحمل أدوية كينيدي، وكان أكثر الأطباء دراية بتاريخ كينيدي المرضي.

وفي داخل غرفة العمليات، استقبل بعض الأطباء رئيسهم الصريع، أسرع كل منهم ليأتي بما يسعف به كينيدي، بينما أسرع الطبيب الشاب «كينيث سايلر» لنزع ثياب الرئيس، فوجئ بارتداء كينيدي لـ«مشد» تحت ملابسه، كان المشد من نوع ثقيل، محيطا بصدره وظهره حتى الخصر بالأربطة، ليخفف من وطأة الآلام، أدرك حينها أن كينيدي كان يعاني من آلام مزمنة بظهره، لكن ما إن نزع «سايلر» المشد من جسد كينيدي حتى برزت تلك القلادة في عنقه مستقرة فوق صدره!

نظر «سايلر» حوله للتأكد من أن أحدا لن يلحظ ما سيفعله، ملابس كينيدي تم إلقاؤها جانبا بإهمال، لا أحد سيلتفت إليها في تلك اللحظات، لكن سرعان ما سيحضر رجال الطب الشرعي لفحص كل متعلقاته قبل فحص

الجسد نفسه، وحتى يحين ذلك الوقت لن تكون القلادة هناك -هكذا حدَّث «سايلر» نفسه- أعقب ذلك بنزع القلادة من عنق «كينيدي» ثم وضعها في ثنايا ملابسه دون أن يلحظه أحدهم، لقد أتم مهمته بنجاح كما طُلِبَ منه.

انضم إليه زملاؤه، وتوالى وصول أطباء آخرين، من بينهم طبيب كينيدي الخاص، تجمعوا حول جسد الرئيس المسجى على الفراش، كان جسد كينيدي قد مال إلى اللون الأبيض الشاحب وأصبح يتنفس بصعوبة، بعد أن نزف كمًا هائلًا من الدماء، كان جرح رأسه مستمرا في النزيف بلا انقطاع منذ إصابته، وطوال طريقه إلى المستشفى، وحتى داخل غرفة العمليات، حاول الأطباء إسعافه بكل الوسائل، خضع الجسد لمحاولاتهم اليائسة لإنعاشه، لكن بعد نصف ساعة انسحب الأطباء من غرفة العمليات واحدا تلو الآخر، بعدها أعلن مذيعو التلفاز أن رئيس الولايات المتحدة «جون فيتزجيرالد كينيدي» الذي يحمل رقم خمسة وثلاثون: قد انتقل إلى العالم الآخر.

-٢-

في قَصْر حَمورابي

«أنـا الملك المتكامل حمورابي، أنا الراعي الذي رعى بحرصٍ وكانت عصاه دوما مستقيمة، ظلي ممدود في كل أرجاء مملكتي، أنا موكل من قبل الآلهة... هكذا أنا...».

من وصية حمورابي على مسلة الشريعة

***

مملكة بابل

مطلع الألف الثانية قبل الميلاد

اندفع حشد من الجنود في أرجاء القصر وداخل ساحته، أخذت جموعهم تتشكل تدريجيا لترسم صفين طويلين، يمتدان من خارج القصر مرورا بساحته ووصولا لأبوابه، لتصنع طريقًا كالممر يقود الوافد من الخارج إلى قلب القصر.

كان ضيفا فوق العادة آتٍ في الصباح الباكر لملاقاة الملك، تسبقه ترتيبات أمنية ومراسم استقبال تشي بأهمية الوافد إلى القصر، بينما جلس حمورابي -الملك البابلي- داخل القصر على عرشه بين حاشيته في انتظار زائره، الذي سيبدأ فور حضوره اجتماعا عاجلا وسط تلك الأجواء المهيبة، سيطر التأهبُ على جميع الحضور في قاعة العرش، وسرى فيهم القلق كنارٍ استعرت في الهشيم، أما خارج القصر فقد كان قائد البلاط الملكي يسير متفقدا صفوف

جنوده وانضباطهم، حينما أقبل عليه قائد الحرس -فور رؤيته- متفقدا جنوده بدوره قائلا في اهتمام:

- مرحبا يا رجل.. أتساءل عن سبب استدعائنا بهذه العجلة في هذا الوقت المبكر!

أجابه قائد البلاط متوترًا:

- كنت أتساءل مثلك حتى أخبرني مساعدي أن الملك قد تلقى مساء الأمس رسالة من مملكة «لارسا»*. استشاط لها غضبًا واستدعى كل وزرائه ومستشاريه على عجل في هذا الوقت المبكر.

أجابه قائد الحرس:

- سمعت أنا أيضا بأمر الرسالة ولكني لم أعلم فحواها.

ثم استدرك في خبث مبتسما:

- يبدو أن مساعدك هذا أكثر مهارة من الجميع في استخلاص الأخبار..

أجابه قائد البلاط متجهما:

- الأمر لا يحتمل الدعابة يا رجل!

ثم تلفت حوله حرصا على ألا يسمعه أحد المحيطين، وهو يقول بجدية:

-يبدو أن المسألة تتعلق بالحرب.

ارتفع حاجبا قائد الحرس في استنكار مرددا:

- الحرب!

أجابه قائد البلاط في لهجة يملؤها القلق:

- نعم.. الحرب.. التي يبدو أن مليكنا الشاب يصر عليها ويدفع بلادنا نحوها بثبات، وأنت تعلم جيدا كما يعلم الجميع أن الحرب إما أن تنتصر فيها على عدوك انتصارا مبينا.

---

* مملكة «لارسا» مملكة قديمة في جنوب بلاد الرافدين، يسميها السكان المحليون حاليا تل السنكرة أو سنكرة مدينة سومرية أثرية مهمة تقع جنوب العراق في منطقة القطيعة حاليا في جهة الجزيرة، تقع ضمن حدود محافظة ذي قار الإدارية بدولة العراق

صمت للحظات تابعه فيها قائد الحرس، قبل أن يستدرك هو عبارته:

- أو أن يُقضى عليك تماما وتتدمر مملكتك على يد خصومك.

سيطر الصمت للحظات على الرجلين، انتقل فيها القلق إلى قائد الحرس، وجال بخاطره ما يجري من أحداث في كل الممالك المجاورة، وتذكر وقائع الحروب والصراعات التي عاشها وسمع بها منذ أن وعى ما حوله، كان يعلم أن الممالك المنتصرة تقضي على نظيراتها المهزومة بلا شفقة، ويزداد المنتصر تجبرا وسطوة.

شعوب تطحن شعوبًا، وكأنها رَحَى عظيمة تسحق -بثقلها- كل ما يأتي تحتها من أرواح وأجساد، وممالك تبتلع أخرى بين عشية وضحاها، هكذا كانت الحال منذ أن انشق النهران العظيمان، عصورٌ في فوضى متواصلة، لا يفصل فيها بين كل حرب وأخرى إلا برهة من الزمن، لا تكفي لأن تبزغ فيها حضارة أو تنهض فيها أمة.

لكن بابل نهضت!

نهضت وسط أمواج عاتية، صراعات لا تكاد تنطفئ إحداها حتى تندلع أخرى، لكن بابل لم تكن كغيرها، حققت نهضتها بمفارقة قدرية يصعب تكرارها، فصارت فوق جاراتها من الأمم.

فاضت تلك الأفكار، وامتلأ بها رأسه حتى نضحت على لسانه، فقال معقبًا على قول نظيره بضيق:

- كنت أظننا قد نسينا الحروب منذ أن بدأ عصر بابل المجيد، عندما سيطر أسلافنا الأكاديون*وبعد زوال مملكة «سومر» **وبعد أن انصهر شعبانا،

* الأكاديون / الأكديون: أسلاف البابليين، وقد تمركزوا في بادئ الأمر في غرب نهر الفرات في العراق القديم، لكن ملكهم سارجون استطاع توحيد ممالك الرافدين في امبراطورية مركزية لأول مرة.

**سومر: هي مملكة قديمة في بلاد الرافدين، وقد تركز سكانها في الجنوب من أرض الرافدين قبل انتشار سلالة الأكاديين العموريين الذين أنشؤوا الحضارة البابلية فيما بعد.

لذلك ظننا أن الحرب قد وضعت أوزارها أخيرا. ألا يستقيم أن تهدأ الأمور، ونتجنب الحرب لنحافظ على تلك المملكة العظيمة؟

انتقل الضيق إلى قائد البلاط الذي تلفت حوله من جديد قائلا:

- يبدو أن الحرب ستعود وبقوة. مثلما يبدو تماما أن ملكنا «حمورابي» يختلف عن أي ملك رأيته أو سمعت عنه منذ أيام «سارجون» العظيم.

صمت لبرهة قبل أن يستدرك متسائلا:

- لست أدري لماذا قرر أن يغير نهجه السلمي الذي جنح إليه خلال سنوات حكمه الأولى؟ إصلاحاته الضخمة. إنشاءاته العظيمة التي شيدها وأشرف عليها بنفسه. ثم قيامه باستكمال وتحصين سور بابل الذي شرع في تشييده أسلافه الملوك، لردع الأعداء من كل أقطار الأرض. والآن وبعد كل ما فعل، يبدو حريصا على الحرب كحرصه تماما على الإصلاح.. أتساءل عن السبب الذي يدفع رجلا كهذا لأن يخوض الحرب وفي هذا التوقيت الحرج؟

ثم صمت قليلا قبل أن يستدرك راجيًا:

- أتمنى من الرب «مردوخ» -حامي السلام- أن يحفظ هذه المملكة من الخراب.

أجابه قائد الحرس برجاء مماثل:

- وأنا أتمنى أن يكون الملك واعيًا ومدركًا لما يفعله بشعبنا، بعد أن اعتاد العيش في سلام.

قالها في نفس اللحظة التي توقف فيها موكب من المركبات أمام بوابة القصر الخارجية، وانتشر فريق آخر من الحراس -بزي مختلف- حول العربة، التي توقفت عند البوابة مباشرة. هبط منها شيخ كبير، حفرت سنوات عمره على قسماته تجاعيد غائرة، وأشعلت شعره شيبة متأججة، وخلعت على روحه رداءً من القسوة، ونسجت حوله هالة من الهيبة، وبدت لحيته كثيفة ومجدولة وطويلة، تروي قصة العقود المديدة التي عاشها.

سار الرجل عبر ساحة القصر متشحا بعباءته السوداء الطويلة، ممسكا - بعصا من نفس اللون كالصولجان، تنبعث من عينيه نظرات عميقة تحمل مهابةً تكسو هيئته وملابسه، لتنتشر الرهبة بين الحراس مع كل خطوة يخطوها، اعتاد هو ذلك، وأدرك أن جلود الناس تقشعر لرؤيته، كان يرى ذلك دائما في عيون من يطالعونه، أحسه في تلك اللحظة في عيون الحراس، لكنهم لم يُبدو مشاعرهم تجاهه وهم متراصون في ثبات لتأدية عملهم. كان نوعًا من البشر كأنما قُدت ملامحه من صخر، توارت مشاعره خلف حجاب كثيف من الغموض، دُفنت تحت ركام من أسرار يحملها داخل نفسه العميقة.

لم يكن الرجل إلا كبير كهنة «مردوخ» رب الأرباب البابلية، النبي الأول* لملك الآلهة، وحكيم بابل الأعظم، الذي لم يضاهيه أهميةً سوى الملك ذاته، لم يكن هناك من يجهل ما له من مكانة، استحوذ عليها وحده دون سواه، واليوم يدعوه حمورابي للمشورة، فلم يكن الملوك يجرؤون أن يتخذوا قراراتهم دون استشارة ممثل الآلهة، فرأيه هو رأي إلهي واجب النفاذ، كان حمورابي -في سنواته الأولى- كغيره، لم تبدُ عليه أي نزعة تتوق للتمرد، فها هو يطلب مشورة كبير الكهنة لاتخاذ قرار لا يعلم إلى أي مأرب سيأخذه، ألِى حكم جميع الممالك، أم إلى فناء مملكته ودحرها؟

كان كهنة الممالك يحكمونها في الخفاء، غير أن كبيرهم لا يجلس على العرش -ولا يعنيه ذلك كثيرا- يحرك كل شيء من خلف الستار، أما الملك فهو الصورة الماثلة أمام الشعب الذي يحكمه.

اندفع القائدان لاستقبال الكاهن عند البوابة الخارجية، انحنيا له قبل أن يحيطاه من الجانبين ليرافقاه حتى قاعة العرش، أخذت هامات الجنود تنحني في إجلال للكاهن الأكبر، سار الكاهن في وقار حتى بلغ درجات بوابة القصر، واصل سيره حتى تجاوز ممر قاعة العرش دون أن يفارقه قائدا الحرس،

* هكذا كان يلقب كبير الكهنة وفقا لعقائدهم.

بينما توقف حراس المعبد عند باب القصر كما تحتم المراسم.

في داخل قاعة العرش التي ضجت بالحضور، خرّ بعضهم رُكّعًا، وجثا البعض على ركبهم أمام كبير الكهنة حين دخل إلى القاعة، أما الملك فقد أحنى رأسه نصف انحناءة ردًا على تحية الكاهن دون أن يقوم من فوق العرش.

كان حمورابي مستقرا على عرشه، بقسمات وجهٍ يعلوها العنفوان، جسده القوي كان ملتفًا في ردائه الملكي الأبيض، بخيوطه الذهبية ونقوشه الملونة ذات الطراز البابلي الفريد، الذي لا يزال متوارثا عن أسلافهم الأكاديين منذ عصور بعيدة، يعتمر فوق رأسه قلنسوته الملكية، يحيط بها إكليل يدور حول الرأس، بينما تنسدل لحيته المجدولة على صدره وفقا للتقاليد الموروثة.

أما وجهه فقد اكتسى بغلاف من الصرامة بدت واضحة بانعقاد حاجبيه الكثيفين، لكن تلك الصرامة لم تستطع أن تخفي تقاسيم الوجه الأصيل لرجل عموري الأصل من عماليق* الرافدين، هؤلاء العرب القدماء الذين هاجروا إلى بلاد النهرين منذ عصور بائدة، ملامح تحمل نفس السمات العريقة ذات الأنف الأقنى المحدب في وسطه، والعينان الواسعتان، وعظام الوجنة المميزة والجبهة العريضة علامة الأصل العريق.

دعا حمورابي الكاهن أن يستوي إلى يمينه على مقعد فاخر لا يقل في رونقه كثيرا عن عرش الملك نفسه، أعده خدام القصر خصيصا له عند زيارته، فتوجه الكاهن إليه بخطواته الوئيدة، جلس بهدوئه المعتاد دون أن تصدُر عنه أية حركة ذات دلالة، مما زاد الرهبة في قلوب الحاضرين، واستشعروا أنهم بصدد أمر استثنائي على وشك الحدوث، كان الكاهن أول المتحدثين حين قال بصوت عميق مزّق أوصال الصمت الذي غلف القاعة بأكملها:

---

* العماليق / عمو-ليك: قبائل عربية قديمة، انتشرت في كل بلاد الشرق القديم واختلفت مسمياتهم وفقا لأزمنة هجراتهم، وكان منهم العموريون الذين سكنوا الرافدين وسوريا القديمة، وكانت منهم سلالة الأكاديين والبابليين في بلاد ما بين النهرين، اعتبرهم الاخباريون العرب صنفا من العرب، ونسبوهم للعرب البائدة.

- أظنني هنا من أجل رسالة الأمس التي وصلت مساءً إلى يد الملك.

لم يسمح حمورابي للدهشة أن تتسلل إلى صوته. كان قد اعتاد تلك الأمور منذ طفولته، وكانت تبلغه الكثيرمن الغرائب عن الكاهن الأكبروعلمه بخفايا الأمور، لذلك أجابه بلا تمهُل:

- نعم يا أبانا الكاهن، جميعنا هنا من أجل تلك الرسالة.

قالها حمورابي ثم قام من فوق عرشه، عاقدا يديه خلف ظهره وهو يسيرفي خطوات ذات وقع، موجهًا حديثه للملأ الصامت من حوله:

- قبل شهرين من اليوم، رصدت عيوننا في الشرق محاولات مملكة «عيلام» مهاجمة أراضي مملكة بابل العظيمة، قررت أنا الملك بمشورة الكاهن الأكبر «منكباد» -والنبي الأول للرب «مردوخ» ملك الآلهة- أن نصد غارات العيلاميين، ونوقفهم عند حدودهم دفاعا عن مملكتنا الغالية، وقد فعلنا، لكننا قررنا وقتها أن نطلب من جيراننا في مملكة «لارسا» الانضمام إلينا في حملتنا هذه، التي كنت سأقودها بنفسي لاستكمال تأمين حدود المملكة، وقد أرسلنا بطلبنا في رسالة إليهم، نستحثهم فيها على معاونتنا؛ فمصيرنا مشترك، وعدونا واحد، خاصة أن بيننا معاهدة!

صمت للحظات تطلع فيها إلى وجوه الحاضرين، خاصةً وجه الكاهن الأكبر، ثم تنهد قبل أن يستكمل حديثه قائلا:

- ولكن الجواب كان محبطا ومتخاذلا كما هو معتاد.

زفر بعمق قبل أن يعاود حديثه قائلا:

- لقد وصلتني رسالتهم مساء الأمس، يرفضون فيها أي تعاون بيننا في هذا الأمر، ويعلنون فيها تخليهم عن مملكة بابل في أي عمل تُقدم عليه ضد العيلاميين، الذين أسموهم بـ«الجيران المسالمين».

صمت حمورابي ومرت لحظات قبل أن يعلق الكاهن لأول مرة بصوته العميق في عبارة مقتضبة:

- ثم ماذا؟

خطا حمورابي بضع خطوات أخرى محررا ذراعيه من انعقادهما خلف ظهره، ثم شد قامته في اعتداد أمام عرشه مواجها الجميع قبل أن يتابع بصوته القوي:

- أنت تعلم يا أبانا الكاهن أنني على عكس كل أسلافي الملوك، وبخلاف كل أقراني في كل الممالك الأخرى، قد نشأت نشأةً مختلفة، فلقد تربيت في ربوع معبد إلهنا العظيم «مردوخ»، وفي كنف آلهة بابل الأخرى، وبرعاية كهنة الإله، ورعاية نيافتك، كما أنني نشأت على حبي لرفعة مملكتي وإعلاء شأنها، ولقد تهيأت لذلك منذ مُنحت الحياة، فسمَّاني والدي «حمورابي»، لأكون «ابن العُلا» و«المرتقي إلى المجد» مثلما أرادني، كما دربني منذ صغري على فنون الحرب، ولقنني أصول الحكم والسياسة، ثم طُفت بجميع ممالك أرض النهرين العظيمة، لأعرف امتدادها وعظمتها حق المعرفة.

صمت يلتقط أنفاسه وهو مازال يتطلع إلى الجميع مردفا:

- ولقد وضعت هدفًا منذ صغري نصب عينيّ، واعتبرته حلمي الأكبر، وعزمت أن أحققه عندما يحين الوقت المناسب، وأظنه قد آن الأوان لتحقيقه، وبعد مرور سبعة أعوام كاملة من الإصلاحات والاستقرار على مملكتنا العظيمة، وبعد كل هذا الرخاء، أرى أنه قد حان الوقت المناسب لتحقيق ذلك المأرب..

ثم أضاف في حزم وبطء:

- ستكون مملكة بابل هي سيدة ممالك النهرين بلا منازع.

صمت مرة أخرى وأخذ يطالع تعبيرات وجوه الحضور ليرى أثر كلماته عليهم، ثم حوّل بصره إلى كبير الكهان، قبل أن يستطرد وهو يمتشق سيفه ويشرعه في الهواء في حزم وقوة هاتفا بصوته الجهوري:

- قد آن الأوان أن تقوم بابل بتوحيد جميع ممالك أرض النهرين تحت لوائها، وبقيادتي أنا، كأول جندي على رأس صفوف جيش بابل العظيم، ستكون

بابل هي سيدة ممالك العالم، وسأكون أنا ملك ملوك هذا العصر، وسيكون الإله مردوخ هو ملك الآلهة جمعاء، وسيدهم الأوحد، تحقيقا لأحلام أسلافنا العظماء، ونزولا على إرادة الإله «مردوخ» رب بابل.

صمت حمورابي بعد هتافه المدوي، وسيفه لا يزال مشرعا، لكن أصداء كلماته ظلت تتردد في جنبات القاعة وسط صمت الجميع، ظل يطالع وجوههم، ثم التفت إلى كبير الكهنة ملتمسا لمشورته، فأجابه الكاهن بهدوء وبكلمات قليلة:

- لكن طريقك سيكون طويلًا، ولن يكون ممهدًا.

أجابه حمورابي بسرعة وحزم، وهو يرخي ذراعه القابضة على السيف:

- أعلم يا أبانا الكاهن، وأدرك ذلك جيدا.

ثم صمت قليلا قبل أن يردف بقوة:

- وأُصِرُّ على المضي في هذا الطريق حتى آخر يوم في عمري.

ظل الكاهن صامتا بعض الوقت، دون أن تلوح أية إشارة على ملامحه الجامدة، قبل أن يترك مجلسه وينتصب قائمًا في هدوء، توجه نحو حمورابي الذي أعاد سيفه إلى غمده، ثم أمسك الكاهن بكتفي حمورابي قائلا بصوته العميق:

- أخيرًا بُني.. أخيرًا، عشت حتى أرى هذا اليوم.

رمقه حمورابي بنظرة مترقبة قبل أن يردف الكاهن قائلا:

- ما سمعته منك الآن يؤكد أن رسالتي ورسالة الأسلاف قد أثمرت وآتت أُكُلَها بنجاح، أرى أمامي الآن ملكًا شابًا واعدًا واعيًا، يُدرك حقًا ما يقول، ويسعى لرفعة مملكته، وإعلاء شأن الإله الأكبر «مردوخ» في كل الممالك.

ثم ترك كتفي الملك واستدار مواجها الجموع من الوزراء والحاشية، قائلا بصوته المهيب:

- أعلن أنا «منكباد»، النبي الأول للإله مردوخ وحكيم المملكة، بأنني أساند

الملك «حمورابي» ملك امبراطورية بابل الكبرى، فمن منكم معنا ومن منكم سيتخلف عن هذا الركب ويترك المسيرة؟!

اندفع الجميع بحماس شديد وبهتاف هادر:

- كلنا معكم.. كلنا معكم..

ظل الهتاف مستمرا لبعض الوقت إلى أن رفع الكاهن يديه في وقار حتى هدأت الجموع، ثم قال:

- منذ اليوم سيعقد الملك مجلس الحرب، وسَتُسَخَّر كل عطايا الآلهة لهذا الغرض، نستطيع أن نعلن الآن عن إمبراطورية وليدة اسمها «إمبراطورية بابل الكبرى»، ومنذ الآن وأنا أبارك كل ما سيفعله الملك، وما سيتخذه من قرارات دون الرجوع للمعبد، إلا لو احتاج الملك لمشورتنا ورأينا.

ثم استدار ليواجه حمورابي مرة أخرى، وابتسامة مبهمة تلوح على وجهه المخيف، قائلا بلهجة ذات مغزى:

- وستكون هناك مساعدات مميزة جدا للملك من الإله «مردوخ» لتعينه على الانتصار على أعدائه.

تابعه حمورابي بنظره، بينما صمت الكاهن لوهلة قبل أن يضيف في لهجة مخيفة ومتشفية:

- بل وعلى قهرهم أيضا وبمنتهى اليسر.

ثم أضاف بصوت أقل نبرة وأقرب للهمس وهو يقترب من أذن حمورابي:

- لكن تفاصيل ذلك سيعرفها الملك لاحقًا: عندما يأتيني في زيارة خاصة إلى برج بابل العظيم وفي قدس أقداس الإله «مردوخ».

عند هذا الحد، عاد الملك إلى عرشه وعيناه تبرقان، والثقة تملأ وجهه، وأمارات التصميم تستحوذ على كيانه.

-٣-

إيساجيللا

«هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ، وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ».

سفر التكوين ١١: ٤

***

اصطف الكهنة من كل الرتب الكهنوتية بنظام، مرتدين ثيابهم الشعائرية الكاملة، انخرطوا في مراسم خاصة لاستقبال الملك. وقف الجميع يُحيُّون ملكهم الجالس على عرش محمول فوق أعناق رجال أشداء، يصعدون به درجات برج بابل شاهق الارتفاع.

حتى كاهنات المتعة المقدسة في بيت مردوخ -المُسمَّيات «قديشتو»- كُن في استقبال الملك، وقفن ينثرن عليه الزهور والرياحين من آن لآخر كلما مر الموكب ببعضهن. كانت كل واحدة منهن تذكر منذ الأمد القريب كيف كانت بدايتها في خدمة الرب مردوخ، مازلن يذكرن ذلك اليوم الذي تم تقديمهن فيه لخدمة مردوخ العظيم في احتفالية كبرى، سيقت جموع النسوة والفتيات يومئذ حتى انتهوا بهن إلى «إيساجيللا» -بيت الحياة- الحرم الذي صار ملاذا أمنا لكل مُريد جاء حاجًا إلى بابل، يومها جيء بهن إلى حضرة كبير الآلهة، لتصير المختارات منهن كاهنات لبيت الحياة.

تذكرت إحداهن حين اشرأب عنقها في طموح متمرد قبل ذلك بشهور قليلة. لم يكن طموحا متواضعا، بل كانت ترمي إلى إغواء حمورابي نفسه وإدارة رأسه. أرادت الفاتنة أن تحصل على الملك ذاته لتصبح سيدة القصر وسيدة بيت مردوخ في آن واحد.

ولقد صدق ظنها في بادئ الأمر. فالتوى عنق الملك نحو جمال يصعب تكراره في كل جيل مرة أو مرتين. تخيرها من وسط جموع النسوة الوافدات إلى بيت الحياة. انخرط معها في جولات من العشق المباح في دين مردوخ. ظل عاكفا في مقصورته داخل قصره يطارحها الغرام. يرتشف من كؤوس الهوى بين أحضان فاتنته الطموح. التي ترمي إلى نيل الحظوة ورفعة المكانة. والاستيلاء على قلبه وسلب عقله وسلطته في آن واحدا

لكن سرعان ما أفاقت الفاتنة على انطلاق الجواد الجموح من معقله وتحرره من لجامه الضعيف. لم تبلغ فتنتها الطاغية حدا يبقيه أسيرا لها لفترة أطول. هو حمورابي العنيد المتمرد. الذي لم يقيده رباط ولم تعطله الأهواء. لم يمنعه شيء عن أحلامه التي ظلت تتراءى أمام ناظريه ليلا ونهارا لم تغب عنه إلا لماما. عاد أدراجه بعدها سريعا إلى الإبحار في تيار مخططاته وآماله الكبرى. تحطمت مساعي الفاتنة فوق صخرة طموحاته الراسخة. أجهضت أحلامها مبكرا. وقتها عادت إلى رحاب معبد مردوخ منذ أن زهد الملك حظوتها. وعزف عن تنسم رحيقها. فصارت في نظره كغيرها من الكاهنات العاكفات في بيت الحياة. مجرد غانية أخرى انضمت إلى عداد الغواني اللاتي يزخر بهن المعبد.

دار ذلك في رأسي حمورابي وفاتنة مردوخ حين تلاقت نظراتهما سريعا. قبل أن تخفض الكاهنة عينها إلى الأرض في حزن كسير.

تخطاها الموكب سريعا. واستمر العرش المحمول في صعوده يتناوب حمله الرجال الأشداء. كلما قطع أقرانهم شوطًا من السلالم التي تؤدي إلى مقصورة المعبد العلوية. كان ينتظره بالأعلى كبار الكهنة. يتقدمهم «منكباد» كاهنهم

الأكبر ونبيهم الأول.

استغرق الصعود إلى ما بعد منتصف النهار، وجرت أنهار العرق تتدفق من أجساد الرجال: اقترب الموكب الصغير من أعلى قمة البرج الذي يضم مقصورة المعبد وقدس الأقداس. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يصعد فيها «حمورابي» إلى بيت مردوخ، برج بابل العظيم الذي لا يوجد له نظير في كل ممالك العصور.

كان يعلم جيدا أن بيت الحياة هو بناء بابلي خالص، وكان يدرك أنه بُني في عصور أجداده القدماء، لتمجيد الأرباب والاتصال بهم عبر بوابة السماء. هكذا تعلم حمورابي منذ جاء إلى الدنيا، وقد شب في كنف الكهنة وتماثيل الآلهة، وتعلم طقوس عبادة الآلهة «مردوخ» و«شمش» و«حدد» و«عشتار». وتعلم أيضا أن هذه الأصنام تعبر عن تجليات عدة لمردوخ الذي يسمونه «سيد الحياة». لكنه رغم ذلك ظل يتساءل في نفسه إذا ما كانت هذه الأعجوبة نتاجًا لحضارة بشرية أم أنه نتاج صحوة شيطانية سيطرت على العالم. أم كلاهما معًا.

واصل المختار صعوده معتليا العرش المرفوع على الأعناق، ولسان حاله يتعجب من عظمة ما أحاط به مردوخ نفسه من تبجيل وتعظيم:

- «متعالٍ أنت يا مردوخ في عظمتك، وشامخ في عزّك ومجدك، لكن شهرتي ومجدي سيفوقان مجدك يومًا ما».

قالها حمورابي في نفسه، ونظر للملأ من حوله وقد ملأه الزهو مبتسما في ثقة، كان يعلم أنه يحمل اسمًا ينطبق على مسماه، فمرتقي المجد لن يكف عن الارتقاء، حتى بعد مماته بعشرات القرون. ملأت الفكرة كيانه وهو يصعد درجات برج بابل الأعظم، رمز أمجاد مردوخ الذي يناهز في ارتفاعه المائتي ذراع، لم يكن يشعر أنه يرتقي برج بابل، بقدر ما كان يشعر أنه يعتلي رمز شموخ تلك الحضارة العريقة، حضارة فاض نورها منذ القرون التي تلت طوفان الأرض العظيم، وصولا إلى عصره الذي ازدهرت فيه وأينعت. إنه الآن يصعد إلى قمة

المجد الإنساني ويرتقي إلى ذروة العظمة والازدهار البشري.

- ها أنا ذا.. حمورابي العظيم.. أعتلي برج بابل وأنافس أعظم آلهتها في علوها، ها أنا ذا أصعد سلم المجد، وأعلو فوق بيت الحياة.

هكذا واصل حديث النفس..

أما الواقفون فقد أمعنوا في تأمل المشهد، عالٍ هو بيت الحياة، شاهق في قامته، «إيساجيلا» -هكذا سموه- برج بابل العتيق، أعجوبة الأعاجيب ومعجزة العالم، خيرة ما أنتجته قريحة وسواعد البشر، أبديٌّ كان -هكذا اعتقدوا- شامخ ومهيب هو بيت الحياة، لكن ها هنا ملك شاب صاعد العزيمة، نافر الهمة، يرتقي سلم كبير الآلهة في شموخ يضاهي شموخ سيد الحياة، وكبرياءً تنازع كبرياءه، وربما ارتقى الشاب فوق مجده التليد.

خيل لحاملي العرش أن درجات البرج لا نهاية لها، ذلك البناء العجيب الذي شيدته السواعد القوية فوق قاعة بيضاوية، أقاموا فوقها سبع طبقات، كل طبقة منها أضيق من سابقتها، وكانت السابعة والأخيرة أعلى البرج أقل مساحة وحجما من نظيراتها السفلى، أما المصعد إليها فكان ممرا ملتفا، تتخلله مصاطب ومقاعد للراحة، لكن حاملي العرش الملكي لم يكن لديهم وقت لالتقاط الأنفاس، فلديهم مهمة شاقة يجب أن تكتمل.

وفي الأعلى تقبع المقصورة التي تضم مقر الإله «مردوخ»، هناك استقر تمثاله الضخم وقدس الأقداس وخبيئة الدير، وكلها أماكن يحظر ارتيادُها على العامة، وينحصر مريدوها على كبار الكهنة بأمر من مردوخ ذاته! هكذا أخبروهم منذ صغرهم، وبهذا آمنوا.

أخيرا -وكأنه يصعد منذ قرون- وصل العرش المرفوع على الأعناق إلى مشارف معبد كبير الآلهة، ومقر الكهنة القابع في قمة البرج، أشار الكاهن الأكبر للرجال أن يهبطوا بالعرش حتى يتمكن الملك من النزول، ليستقبله الكاهن بنفسه، وسط حشد من كبار الكهنة الذين استقبلوا الملك في ترحاب.

نزل حمورابي بزيه الملكي المذهب من فوق عرشه المحمول، وبدا للناظرين كشمس الأصيل تنحدر إلى مغربها مزدانة بجلالها، ردّ حمورابي تحية الكاهن الذي اقتاده إلى داخل ساحة المعبد مباشرة، إلى حيث يستقر تمثال مردوخ.

كانت القاعة مهيبة، مغمورة بلون ذهبي داكن لم ينطفئ بريقه رغم الظلام بالداخل، ظلامٌ لم يبدده إلا النيران الموقدة في مشاعل مذبح الإله، زكمت أنف حمورابي رائحة البخور القوي، الذي يطلقه الكهنة على الدوام في قدس الأقداس، تجلى الصنم أمامه بجلاء، كحلم عجيب تجسد على أرض الواقع، يراه الناظر رأي العين كفلق الصبح.

مشهدٌ نادرٌ لم يظفر به حمورابي منذ صغره، وطوال الفترة التي قضاها في التعليم الكهنوتي لم يُسمح له أبدا بالدنو من هذا المعبد، لم يتمكن طوال تلك السنين -التي تردد فيها على بيت مردوخ- أن يختلس نظرة واحدة إلى تمثال الإله ذي الوجه الصارم، والنظرة العابسة التي تجعل عباده يخشون غضبه قبل أن يطمحوا في رضاه.

وقف حمورابي وجها لوجه أمام التمثال الضخم المهيب، الذي يتصدر المشهد داخل تلك القاعة الفسيحة، بدا التمثال وأضواء النيران والظلال الكثيفة تتراقص على قسمات وجهه لتزيده غموضا على غموضه.

طالما آمن حمورابي بأن التمثال ذاته لا يضر ولا ينفع، وإنما كان على قناعة بأن هناك قوة أخرى تخفى عن الأعين كامنةً في هذا الصنم، لم يدرِ هل كانت هذه القوى الكامنة خلف الأصنام قوى خيرة أم شريرة، لذلك كان يرهب الآلهة بشدة، وكانت رهبته منها أكثر من احترامه وإجلاله لها، هكذا كان شعوره نحوها منذ أن بدأ يعي الأمور.

ها هو تمثال مردوخ متفردٌ في معبده، الذي حصروه لعبادته وحده، وقصروه على تمجيده دون سواه، تبين لحمورابي طبيعة هذا البهو، أخذ يقارن بينه وبين تلك القاعة الأخرى التي تقع أسفل البرج، والتي يُحتفى فيها

بكل المعبودات معًا، ويحيط بتمثال مردوخ بالأسفل تماثيل لمعبوداتٍ أصغر حجما وأقل أهمية. فبالأسفل يستقر على يمينه مباشرة تمثال «شمش» رب العدالة والحق، وعلى يساره «حدد» ثم «عشتار» التي يسمونها الأم الكبرى، ويليهم في المكانةِ معبودات أخرى يصطفون في صفين حول كبيرهم مردوخ. أما هنا بالأعلى فلا وجود لمعبود آخر سوى مردوخ متفردا.

ذات يوم عندما جلس بجوار أبيه على العرش، لقنه أسماءً عديدة فاقت قدرة الأمير حمورابي على الحصر. لكن الأمير الذي تربى في ربوع بيت الحياة منذ صغره، قد تعلم جيدا أن جميع هذه الآلهة لم تكن إلا تجلياتٍ مختلفة لكبيرهم مردوخ كما لقنه والده، ورغم أنهم يمثلون تجسدات لذات الإله، لكن ظل لكل منهم معبده وكهنته وطقوسه الخاصة، وأعياده كذلك، غير أن مردوخ يظل في النهاية هو سيد الحياة بلا منازع.

- يالغرورك يا مردوخ.. وبالسذاجتك يا حمورابي!

قالها حمورابي في نفسه، مردوخ الذي نصَّب نفسه -ونصَّبه عباده- ملكا للآلهة، يصر على أن يظل رب الجميع، ويُمعن كهنته بإيعاز منه أن تكون عبادته في الأرض في قمة زهوها، لتظل أصنامه في منتهى رونقها وبهائها، أصر مردوخ بكل عزم ولم يألُ جهدا في أن يتربع على قمة عرش التمجيد والتقديس، فتحقق له مأربه: لم تحظَ عبادة إلهٍ في أرض النهرين مثلما حظى هو بتلك المكانة الرفيعة، حتى صار مردوخ سرا مقدسا في العقول والأفهام، الملجأ الحصين لكل مكلوم أو مضطر تقطعت به الأسباب، والحامي الأمين والراعي المعين الذي يرغب إليه عباده في حوائجهم، فلا بد والحال هكذا أن يضمه أتباعه ومريدوه في مكانته التي يستحقها، وأن يحظى منهم بالتكريم الذي ينبغي له.

أما حمورابي فقد كان ساذجا غريرا في تعامله مع مردوخ أول الأمر، ظل حائرا يتساءل في نفسه عن هذا الذي يحكم العالم من خلف بوابته السحرية، التي لا تنفتح إلا بأعز القرابين، وأنفس التقدمات، داخل قدس الأقداس الواقع أعلى

البرج الأعجوبة! بوابة السماء وصرح الآلهة، ومنفذ العبور إلى عالم الفوقيين الذين لا يخالطون البشر، ويحكمون عالمهم من هناك.

هكذا تعثر حمورابي في أفكاره الساذجة حين راودته في طفولته، وظلت عالقة في وجدانه طوال سنوات عمره حتى بلوغه تلك اللحظة، الآن تعود تلك الأفكار لتنساب من جديد إلى نفسه الحائرة، وهو لا يزال ماثلا أمام صنم مردوخ، ورغم شعوره بالرهبة منذ صغره تجاه كل الآلهة لكن أسئلة كثيرة كانت تلح عليه دوما دونما جوابٍ شافٍ.

الآن وفي حضرة مردوخ وفي قدس أقداسه، نزفت تساؤلاته القديمة من ثقوب ذاكرته إلى وعيه، وتداعت من جديد لتحتل أفكاره وتسيطر على وجدانه الكامل، واستحوذت عليه لتفصله عن كل ما حوله، وتخبط ذهنه بين طرح تساؤلاته الحائرة والإجابة عنها.

- هل عبر أحد من البشر إلى عالم الآلهة؟ وفق علمه لم يحدث هذا ولن يحدث في اعتقاده..

- إذن لماذا شُيد هذا البناء العجيب الذي يناطح السحاب؟ هل صُنع حقا ليكون بوابة السماء ونافذة الآلهة التي تطل منها على الأرض؟ أم أن تلك النافذة قد أعدت خصيصا للتواصل بين عالم البشر وعالم الآلهة؟ لا تفسير لها سوى هذا! فمن أين إذن -وكيف- يوحي مردوخ ورفاقه إلى كهنته وأنبيائه تعاليمه، وخططه المحكمة وسياساته السديدة، إلا من خلال تلك البوابة المعظمة شاهقة الارتفاع؟

ثم السؤال الأهم:

- لماذا توجد آلهة عدة؟ ألا يكفي لمردوخ وحده أن يدبر كل الأمور دون مساعدين؟

- أليس مردوخ -كما لقنوه صغيرا- هو رب الكون وملك الآلهة والولي الأعظم؟ بل مولى السماء والأرض وصاحب المقام الأول بين كل المعبودات؟ لماذا إذن

يحتاج لمساعدين؟ وهل ينبغي لهؤلاء المساعدين أن يكونوا آلهة؟ أما كان يكفي أن يكونوا مجرد خدمٍ لمردوخ وعبيدٍ له ينصاعون لأمره كما البشر؟ لماذا لا يشعر دائما براحة وهو في حضرة تلك الآلهة؟ لماذا يطغى الشعور بالخوف والرهبة وعدم الراحة على أي شعور آخر؟ وكيف يعرف الكاهن رغبات الآلهة وأوامرها؟ وكيف يتصل بها إذا كانت تلك الأصنام لا ترى ولا تسمع؟ هل تدب فيها الحياة عندما تغيب عنها الأعين باستثناء عين الكاهن الأكبر؟

أسئلة لم يهتد إلى جوابها سبيلا منذ صغره، وأدرك أنها قد تظل كذلك للأبد، ظلت عالقة بذهنه، طفت الآن على السطح واجتاحت أفكاره كدوامة ضخمة عكرت صفحة وجهه، انفصلت به أفكاره عن محيطه وواقعه للحظات طويلة، واستوقفته غارقا في حيرته حتى لاحظه «منكباد» الكاهن فانتزعه من شروده:

- ألن تحيي الإله مردوخ أيها الملك؟

انتبه حمورابي في تلك اللحظة على صوت الكاهن فقال:

- بلى يا أبانا الكاهن.. سأفعل على الفور..

قالها وتقدم حتى أصبح في مواجهة صنم مردوخ، جثا على ركبتيه رافعا يديه لأعلى تبجيلا لمردوخ، أعقبها بسجوده واضعا وجهه وذراعيه على الأرض بخضوع تام مرددا بخشوع:

- إلهنا رب بابل وشنعار، سيد الحياة، لك المجد في كل الأرضين، ولك تنحني كل الجباه.

ظل على هذا الوضع للحظات، رفع رأسه وردد بصوت حاول أن يكون خاشعا قدر إمكانه، مواجهًا الصنم وهو لا يزال جاثيا على ركبتيه:

- لقد حكمت المملكة والشعب البابليين بكل محبة وصلاح، وعدل ومساواة، ولم أقم بأي عمل يضر بمصالح بابل، أو يُغضبُ إلهها المحبوب «مردوخ»، قمت بصيانة ودعم أسوار بابل التي بناها الأجداد، حسبما يأمرنا إلهُنا مردوخ سيد الحياة.

تدخل الكاهن قائلا بخشوع وفقا للطقوس:

لا تقلق أيها الملك، سيستجيب الإله مردوخ لصلواتك، ويُعلي ويُبارك ... لمالك، ويسحق كل أعدائك.

نهض حمورابي من سجوده، واستدار إلى الكاهن الأكبر قائلا:

والآن يا أبت.. كلي آذان صاغية، أنا في شوق حقيقي لأحصل على مساعدات الإله مردوخ.

تأمله الكاهن للحظات بتحفز واراه خلف وجهه الذي نافس مردوخ في جموده، ثم قال بصوته العميق:

- نعم.. أظن أن الوقت قد حان لتحصل على ما يعينك في مهمتك الصعبة القادمة.

صمت للحظات أخرى ثم قال في هدوء:

- اتبعني يا ولدي إلى صومعتي الخاصة.

توجه بهدوء صوب باب جانبي في يسار القاعة، تبعه حمورابي بهدوء مماثل ودخل خلفه إلى الغرفة المجاورة للقاعة.

-٤-

خَبيئة المَعْبَد

«كنوزُ الشَّرِّ لا تَنفَع، أمَّا البِرُّ فيُنجِّي من المَوت».

سفر الأمثال ١٠ : ٢

•••

جلس حمورابي في صومعة الكاهن الأكبر مترقبا في صمت، بينما وقف الكاهن في مواجهته للحظات يتأمله قبل أن يقول في هدوء:

- الآن لدي الكثير لأطلعك عليه.

نظر إليه حمورابي متسائلا فأضاف الكاهن:

- أنت تعلم أنني كنت كاهنا للإله مردوخ منذ عهد الراحل جدك، الملك «أبيل سين»، كما أنك تعلم أنني ترقيت لمنزلة الكاهن الأكبر في عهد والدك، الملك «سين موباليت»

أومأ حمورابي برأسه موافقا، بينما واصل الكاهن حديثه قائلا في شيء من الزهو:

- وغني عن القول أن تعرف أنني لم أصبح النبي الأول للرب مردوخ من فراغ

ثم صمت لوهلة قبل أن يتابع في لهجة يملؤها الإثارة:

- كل من يعبدون الآلهة يا ولدي لا يتصورون أن هناك اتصالا حقيقيا بين الكهنة والأرباب، ويظنونه مجرد اتصال معنوي عن طريق الصلوات والدعاء وتقديم القرابين.

ثم لمعت عيناه ببريق مخيف وهو ينظر في عيني حمورابي مباشرة:

- لعلك تعلم أيضا أيها الملك، أن الآلهة ليست مجرد تماثيل. إنها أرواح عظيمة، خارقة، فائقة القدرات تماما كما يظن المؤمنون الحقيقيون بها وأكثر. لهذا فهي تستحق العبادة.

كانت الإثارة والرهبة قد بلغت من حمورابي مبلغا كبيرا في تلك اللحظات، ولولا شجاعته لطاوع رغبته في الخروج من كل هذا وولى هاربا. لكنه كان يرغب في معرفة المزيد من تلك الأسرار، التي يكشف عنها الكاهن أمامه لأول مرة، لذلك ظل صامتا يتابع حديث الكاهن باهتمام بالغ بينما عاود الكاهن حديثه قائلا:

- خلال سنوات عمري الماضية، وصلت لمكانة رفيعة لدى الآلهة، خاصة الإله مردوخ العظيم سيد الحياة، تطورت اتصالاتي به، وزادت تجلياته لي حينما أصبحت في مركز الكاهن الأكبر، وكانت لتوجيهاته الفضل في أن تصبح مملكتنا على ما هي عليه الآن، ولا تزال مشيئته تحيطنا وتوجهنا نحو الهدف الأكبر.

زادت حيرة حمورابي وظهر ذلك في ملامحه، بينما التقط الكاهن أنفاسه مردفا بصوت رنان:

- توحيد ممالك الرافدين في امبراطورية واحدة قوية، وإعلاء مكانة الإله مردوخ العظيم فوق كل من سواه من الآلهة، لقد تلاقت إرادة الرب مردوخ مع إرادتك أيها الملك، لذلك أعلن لي الرب مساندتك فيما أنت عازم عليه، ويبدو أن النبوءة ستتحقق قبل أن ألحق بالأجداد.

- نبوءة؟!

نطق بها حمورابي في دهشة واتسعت عيناه، فأومأ الكاهن برأسه وهو يقول في تأكيد:

- نعم أيها الملك، نبوءة الرب مردوخ.

تساءل حمورابي وقد بلغت حيرته منتهاها:

وماذا تقول النبوءة يا أبانا الكاهن؟

اتسعت ابتسامة الكاهن الغامضة:

ستعرف تفاصيلها في حينها يا بني، ولكن دعني الآن أخبرك بالغرض الذي دعونك من أجله.

ثم أضاف وهو يميل نحو حمورابي:

سيساندك الرب مردوخ بكل قوة في تحقيق الهدف.

غرق المكان في الصمت بعد قول الكاهن وخشي حمورابي التصريح بما يجول في ذهنه قبل أن يستجمع شتات نفسه قائلا بحذر:

وهل أعلن الرب مردوخ ذلك بنفسه؟!

أجابه الكاهن بابتسامة غامضة:

هل لدى الملك شك في هذا؟

هز حمورابي رأسه نفيا في بطء دون أن ينطق، ثم قال بعد شيء من التردد:

ولكن كيف سيساندني الإله في ذلك يا أبانا الكاهن؟

ارتسمت ابتسامة مبهمة على وجه «منكباد» وهو يتحرك داخل صومعته قائلا

أنت هنا من أجل ذلك أيها الملك، للرب مردوخ وسائل كثيرة لمساندة أتباعه المخلصين، فهو يقوم دوما بإعانتهم على معاقبة أعدائهم وهذا -كما تعلم- من صفاته، لذلك سيكون هناك الكثير من المساعدات خلال رحلتك الطويلة في توحيد المملكة، وتحقيق إرادة الإله مردوخ.

توقف عن حديثه وهو يستدير ببطء متوجها نحو باب صغير في الجدار، يغطي كوة بداخله، فتحه بمفاتيح خاصة، ثم استخرج منها صندوقا خشبيا عتيقا وواصل حديثه وهو يتوجه بالصندوق نحو حمورابي:

وأولى المساعدات وأعظمها على الإطلاق هي هذه القلادة.

فتح الكاهن الصندوق، واستخرج ما بداخله بحرص شديد أمام عيني حمورابي الذاهلة واضطربت حواسه، فاستطرد «منكباد»:

- قلادة مردوخ!

-٥-

النُّبوءَة

«عندما تنحّى زمرة من بني الإنسان، استعانوا بالساقطين، فأوحوا إليهم بكلمة الشر، وسخروهم لغواية بني جنسهم، فسقطوا معهم جميعا إلى الهاوية».

الهاجادا اليهودية

***

قبل عصر حمورابي بأربعين عامًا، وقف «منكباد» بجوار الكاهن الأكبر، حين كان «سين-موباليت» هو من يحكم البلاد. كان منكباد أكثر شبابا، يحمل ملامح أكثر ليونة وأقل حدة، وكان يلبس رداء الكهنوت، متحليا بالأساور والقلادات كباقي رفاقه الكهنة، يحيط به اثنان منهما بالإضافة للكاهن الأكبر.

في ليلة من ليالي الشتاء الطويلة، التي انتقاها الكاهن الأكبر بعناية، لتقام فيها شعائر الصلوات والقدّاس لمعبودهم، آملا أن يتخللها أحد تجليات مردوخ، غرق «منكباد» الكاهن في أفكاره، وهو يستعيد كل معرفته وخبراته الكهنوتية منذ أن وهبه أهله للمعبد قبل عقود، تملكته الرهبة والترقب تحسبا لما سيحدث في الساعات المقبلة، ظل يسجل بكامل حواسه كل كلمة وحركة وإشارة تصدر من الكاهن الأكبر.

كان عليه أن يعي كل ذلك جيدا ويتقنه تمام الإتقان، فهو النبي الثاني في

المعبد. وقد يجد نفسه بين ليلة وضحاها في صدارة الكهنوت. إذا ما رحل عنهم كبير الكهنة الذي بلغ من الكبر عتيًا. لذلك كان هو باستمرار العامل المشترك في كل الطقوس الكهنوتية بجوار كاهنه الأكبر.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يشهد فيها «منكباد» أحد التجليات. بل عايشها عدة مرات منذ التحق بالكهنوت. حتى أصبح النبي الثاني بعد كبير الكهنة. وحتى هذه اللحظة مازال يشعر بحيرة بالغة من كل ذلك الذي يشاهده عند تجلي مردوخ.

أدرك «منكباد» مبكرًا أن إلهه ورب بابل المعظم لم يكن كغيره من الأرباب. فرغم أنه أحد الآلهة التي ترعى مملكة بابل -وبعض الممالك المحيطة- فإنه كبيرهم. كما أدرك أن كهنة بابل ليسوا كغيرهم من كهنة الآلهة الأخرى. لطالما كانوا هم الأكثر علما ودهاءً من بين كهنة الممالك. بل والأكثر شهرة كذلك. يتمتعون دون غيرهم بنفوذ كبير في مملكتهم. فكلمتهم مسموعة. ولا يجرؤ ملوك بابل على تخطي كاهنهم الأكبر.

سطوةٌ استمدها الكهنة من اتصالهم الدائم بألهتهم. التي يقومون على خدمتها ليل نهار. قوة السحر التي يتمتعون بها. ساعدت حكامهم على الصمود أمام اعتداءات وأطماع الممالك المنافسة. وكان لهم في سحرهم مأرب أخرى.

أدرك ذلك «منكباد» وأسلافه الكهنة. كما أدركها كل الحكام. وعلموا تمام العلم قدر هؤلاء الكهنة وقوتهم وسطوتهم. وأهمية إشراكهم في أمورهم المصيرية. فهؤلاء هم الحكام الفعليون بأمر الآلهة. وإن لاح للعامة غير ذلك. أما من يجلسون على العرش فكانوا مجرد نواب في تنفيذ إرادة إلههم.

ومنذ يومه الأول في الكهنوت. تعلم «منكباد» أنه لا بد للكهان من تضحيات كبرى. كي يتمتعوا بكل هذه القوى السوداء التي يمدهم بها مردوخ ورفاقه. تضحيات تصل أحيانا لتقديم قرابين ثمينة جدا. قرابين أحيانا ما تكون بشرية! تقدم فيها أرواح الأدميين ودماؤهم هدايا للكيانات الخفية. سادة العالم كما

يسمونها. عرف «منكباد» أيضا -منذ أوقات مبكرة من عمره المديد- أسرارا كبيرة لم تخطر على باله من قبل. الآلهة هم سادة العالم الخفيون. هكذا تعلم.

أدرك منكباد أن التماثيل ما هي إلا رموز للآلهة. أما الآلهة نفسها فتوجد في مكان آخر. أبعاد أخرى خارج العالم قد تكون وسط النجوم أو تحت الأرض. لا تأتي الآلهة إلى عالم البشر إلا من خلال القداس. الذي يتخلله أداء صلوات كثيرة. وتقديم قرابين أحيانا ما تكون بشرية.

وهذه الليلة بالتحديد كانت من تلك الليالي المشهودة. يظهر نجم في السماء يسمى بنجم الشِّعْرى. فيحيون الليلة بالصلوات والتوسلات والقرابين أملا في أن ترضى الهتهم وتُنعم على المملكة بنزول المطر والخيرات.

تعلم «منكباد» أيضا أن هذه الطقوس تشمل تلاوات وصلوات وتوسلات. باسم مردوخ -وغيره من الآلهة- بلغة بابل ولهجتها. كما تعلم أن التوسلات تشمل أيضا أسماء وتعاويذ بلغات غريبة. ولهجات قديمة مبهمة.

وقف «منكباد» بجوار الكاهن الأكبر أثناء القداس يردد التلاوات مع باقي أفراد الكهنوت. تجهز الجميع في تلك الليلة لذبح القربان الرئيسي. بقرة مردوخ الحمراء المقدسة. المنتقاة بعناية والخالية من كل عيب. تقبع في الجوار بالقرب من قدس الأقداس. صعد بها العبيد صباحا من حظيرة المعبد وتركوها خارج القاعة. سيذبحونها قربانا لمردوخ في وقت متأخر من الليل. قبل سويعات من بزوغ الفجر. ستلتهمها النيران لتكون قربانا لرب بابل المعظم. الليلة يأملون أن يظهر لهم مردوخ في تجلٍ مثير.

استحوذت فجأة على «منكباد» ذكريات الضحية البشرية. التي قدموها قربانا لمردوخ قبل سنوات. وتنازعت في نفسه مشاعر التعاطف والرفض. أوصاه الكاهن الأكبر من قبل أن يجهض مشاعره البشرية. من أجل أن يرتقي إلى مرتبة روحية أعلى. تؤهله لتقلد منصب الكاهن الأكبر ذات يوم. لكن هذا لم يحدث بعد ترسيمه كاهنا إلا مرة واحدة منذ سنوات قليلة. الضحية يومها

كانت عذراء بابلية، تجاسرت وسرقت من قرابين الأهالي المقدمة للرب مردوخ في عيده السنوي، فصارت هي نفسها قربانا له. حكم عليها كبير الكهنة بتلك النهاية البائسة. كان يشعر بارتياح رغمًا عنه، لأنهم لم يكونوا مضطرين هذه المرة لتقديم عذراء أخرى لمردوخ.

نفض «منكباد» الفكرة عن ذهنه بسرعة، فهذه الليلة عليهم تقديم القربان المعتاد في مثل تلك المناسبات. سيسفحون دم البقرة الموعودة عند عتبة الرب مردوخ، لتأكلها النيران المقدسة الآتية من عالم الأرباب.

مرت تلك الأفكار سريعا برأس «منكباد» وهو يواصل تلاوة التعاويذ والترانيم، حتى حانت لحظة تقديم البقرة كقربان. أتى بها خادم المعبد إلى المذبح بجانب بوابة المعرفة. قربها مقيمو الشعائر من البوابة المقدسة -عتبة مردوخ كما يسميها الكهنة- كانوا قد تركوها في وقت سابق للقداس مقيدة ومكممة ومغماة العينين، تمهيدا لنحرها أثناء الصلوات. أتت اللحظة الحاسمة فأشار لهم الكاهن الأكبر أن الوقت قد حان. ظل الكاهن الأكبر ومعه «منكباد» يرددان التعاويذ والصلوات أثناء الذبح، وانتاب الجميع حالة من الخشوع المفرط.

فجأة.. وأمام التمثال الكبير للرب مردوخ -الذي يقع المذبح بين يديه- وتحديدا بين العامودين، انبعث وهج ساطع غشى أبصار الجميع، دائرة نارية بزغت فجأة من الفراغ الواقع بين العامودين، ظلت تتسع تدريجيا حتى ملأت ما بينهما بالكامل، ومن داخل الوهج خرجت ألسنة صافية من نيران زرقاء فيروزية، كانت البقرة تنتفض وهي تنازع الموت، والدم يتدفق من نحرها، امتدت النيران حتى طالت جسد البقرة المذبوحة، أمسكت بالجسد حتى أتت عليه بأكمله، والتهمت دماء البقرة حتى لم يبق منها أثر، إلا ما تخلف عنها من رماد هش فوق أرض المذبح.

اعتاد «منكباد» هذا المشهد، ورآه بعينيه كثيرا، كان في كل مرة يقدم فيها القربان، يشاهد تلك النيران المستعرة -التي لا تشبه أي نيران أخرى- تزحف من

الهواء الغامضة وتلتهم القربان، وتأتي على الدماء المسفوحة كبيّنة واضحة على قبول مردوخ للقربان الموهوب له.

ظل الكهنة يجمعون الرماد الكثيف بعد احتراق القربان في أوانٍ خاصة. هذا رماد مقدس في عبادة مردوخ وله استخدامات جمة عديدة. سيصبح لدى الكهنة مخزون كافٍ منه، لاستخدامه في التطهر من أجل الصلوات القادمة. بل في تطهير الملك نفسه، عند تقلده العرش وترسيمه ملكا، وعند احتفالهم كل عام بأعياد «أكيتو».

ازداد الوهج المنبعث من الدائرة النارية لتعود إليها ألسنة النيران بقوة، وبدت كأنها جاءت لتمتص طاقة الذبيحة وحيويتها. تراجعت النيران واختفت ألسنتها داخل البوابة، ومع الوقت خف الوهج تدريجيا، إلا من أطراف الدائرة المرسومة في الهواء، لتكشف عن عمق كبير، داخل عالم آخر يمتد إلى المجهول. بدت لهم كبوابةٍ فتحت على عالم أخر، ومن داخل الفجوة المطلة على الفراغ ظهر هو.. مردوخ!

تماما هو.. بهيئته الضخمة، وصورته المعروفة، جالسا على عرشه في مواجهتهم، يطل عليهم من داخل الفراغ. لم يبدُ لهم كيانا ماديا كتمثاله الماثل أمامهم، بل كائنٌ طيفي رقيق ليس له تجسيد في عالم البشر. هكذا أدركوا، لكنه رغم ذلك كان هو، «مردوخ»، بتمام هيئته التي يعرفها الجميع، وبكامل ربه وتاجه، وأساوره التي يرتديها في ذراعيه، وحتى قلادته الكبيرة المتدلية على صدره المسماة بـ«قلادة مردوخ»! القلادة التي تظهر في كل تماثيله وصوره التي يرسمها الأسلاف منذ القدم، تتدلى فوق جسده حتى تكاد أن تلامس موضع قدميه.

وفور ظهوره داخل الفجوة دبت الرهبة في القلوب، ألقي الكهنة سُجدا على أرض المعبد، جميعهم سجدوا، الكاهن الأكبر ومنكباد والكاهن الثالث وحتى خادم المعبد، لم ينتزعهم من سجودهم إلا نداء عميق النبرات، كأنه أتى من

واد سحيق، بصوت لا يشبه أي صوت آخر قائلا:

- ارفعوا رؤوسكم أيتها النخبة المخلصة.

رفع الكهنة رؤوسهم ببطء، لكنهم ظلوا جاثين على ركبهم، اختلسوا النظرات -على استحياء- إلى الكيان الطيفي الضخم، لم يجرؤ أحدهم على أن ينطق حرفا، وكان الكاهن الأكبر أول من تكلم قائلا في ضراعة وخشوع:

- إلهنا رب بابل وشنعار، سيد الحياة، لك المجد في كل الأرضين، ولك تنحني كل الجباه.

ومن جديد انبعث ذلك الصوت الذي يأتي من أغوار سحيقة وهو يقول:

- قلبي عليكم راض يا شعب بابل، وأنتم يا نخبتي المختارة، أحسنتم صنعًا في كل ما أنجزتموه اليوم من أجل إرضائي.

انحنى الجميع من جديد في تبجيل، في حين ردد الكاهن الأكبر في خشوع:

- نتفانى في خدمة سيد الحياة وملك الآلهة، وكل ما نأمله هو أن تغمرنا برضاك، وأن تحيطنا بنعمك الغالية.

أتى صوت الكيان مرة أخرى وهو يقول بصوت قوي النبرات:

- هذه المرة سأطلعكم على أحد أسراري أيتها النخبة المختارة.

صمت الصوت قليلا قبل أن يستطرد بنفس القوة والعمق:

- اليوم سأخبركم أسرارًا نفيسة، واجب عليكم أن تحفظوها طي الكتمان، حتى يحين الوقت المناسب.

اختلس الكهنة النظر إلى الكيان الطيفي، نظروا نحوه في توجس واهتمام، في حين واصل هو حديثه قائلا:

- اليوم سأطلعكم على نبوءتي!

تفجرت الدهشة في نفوس الكهنة، وظهر الترقب على وجوههم، في حين ردد كبيرهم:

- نبوءتك؟!

انهمر الصوت من جديد قائلا:

نعم النبوءة، كما سأنعم أيضا على بابل بهدية غالية ليس لها مثيل في عالم البشر بأسره.

تملكت الإثارة من الكهنة، خاصة كبيرهم الذي ردد في خضوع أكبر:

كل نعمك غالية يا سيد الحياة، وآذاننا واعية لسماع نبوءتك المقدسة!

هبط الصمت للحظات طويلة، قبل أن يأتي الصوت من جديد بعبارات رسمية وطويلة، لم يجرؤ أحد الحاضرين على أن يقاطعه خلالها، وهو يقول بصوت رنان:

بعد سنوات من الآن سيأتي فتى صنديد، وسيتوج ملكا.. هذا الفتى ليس له نظير بين كل أقرانه.. ولن يأتي مثله قبل فترة طويلة.. وسيرفع هذا الفتى ذكري عاليا.. سيمجدني وكل آلهة بابل أيما تمجيد.. نصرا سأنصره وسأؤازره.. وسيملك كل أرض النهرين بقبضة يمينه.. «ابن العُلا» اسمه ووصفه.. وسيعلو قدره ومكانته مثلما عمل على إعلاء سادة العالم..

أحد الموجودين الآن سيشاركه المجد.. وسيحمل الأمانة بعد نبي الأول وسيكمل المسيرة..

ثم يحملها بعده أحدكم أيضا.. هكذا أنتم.. كتب عليكم تمجيدي طوال حياتكم..

وبعد انتقالكم إلى عالم الخلود.. يحمل أمانتكم أبناؤكم وأحفادكم.. فالمجد لمهنتي التي تعمل من أجلي.. من يحافظ على المجد ينل المجد.. هكذا قانوني الذي تحفظونه جميعا.. وهكذا أنا أرفع قدر من يرفع قدري..

ساد صمت ثقيل مرة أخرى حين سكت الصوت، ولم يجرؤ أحد الحاضرين على أن يكسر حاجز الصمت إلا بعد فترة طويلة، وكان أول المتحدثين والمتكلم الوحيد في هذه الحضرة هو الكاهن الأكبر الذي قال بصوت خاشع:

- سأظل أحفظها أنا وكل الحاضرين عن ظهر قلب يا سيد الحياة، وسأنقلها

لعبدك «سين موباليت» ملك بابل.

أجابه الكيان قائلا:

- أبلغه أمري كذلك، أن يعمل جاهدا على أن يكون هذا الفتى ابنه، اجعله يهبه لعبادتي، ويتربى على أيديكم، ويتعلم فنون الحرب وأسرار الحياة وفن الملك والسياسة. أما مهمتكم أنتم، فهي أن تُعلِموا الفتى بأنه الموعود، هو المختار الذي سيوحد جميع ممالك النهرين، وينشر عبادتي، ويعلي قدري في جميع ربوع تلك البلاد، وإلا فالعواقب لن تكون لصالح بابل!

صمت لبرهة لم يتفوه فيها الحاضرون، في حين واصل الكيان حديثه قائلا:

- سيقع اختياري على غيره، وسيكون هناك بشري آخر أختاره لهذه المهمة.

أجابه الكاهن الأكبر بصوت منهك، ناله التعب من كل ما رآه حتى هذا الوقت المتأخر من الليل:

- سأخبره يا سيد الحياة، وسأعمل جاهدا على تلقين «سين موباليت» ملك بابل أوامرك وتوجهاتك الثمينة.

أتى صوت الكيان مرة أخرى قائلا:

- إن «سين موباليت» لا يصلح أن يكون مختارا، ولكن لو قام بدوره المطلوب، فإن من سيخلفه سيصلح لتلك المهمة المقدسة، وسيكون هو رجل مردوخ على الأرض، سيكون اسمه ولقبه مطابقين لوصفه، المرتقي هو وصفه، وابن العلا سيكون اسمه، وسيقضي على كل أعدائي وأعداء بابل، وسأرفع قدره وسيرته في الأعالي كلما رفع من قدري ومن قدر عبادتي في الأرض.

صمت الصوت لبرهة أخرى قبل أن يستطرد بنفس العمق قائلا:

- وبعد أن أطلعتكم على نبوءتي، أن الأوان لأمنحكم هديتي التي لا نظير لها في عالمكم.

زاد انتباه الكهنة إلى أقصى حد، بينما واصل الكيان حديثه قائلا:

- سأمنحكم سرًا من أسراري، وأحد متعلقاتي الثمينة التي تحمل قبسا من

قوتي المطلقة. هذه الهدية ستكون أمانة بين أيديكم. حتى يأتي رجلي الموعود وفتاي المختار. ستكون هذه الهدية هي وسيلته التي ستساعده على تحقيق أهدافه التي رسمتها له.

أطبق الصمت مرة أخرى وطال لفترة. حتى راود الجميع فكرة أن كيان مردوخ قد رحل عنهم. وأن تواصله معهم قد انتهى. لكنهم وجدوه لا يزال مطلًا عليهم من داخل بوابته. حين اختلسوا النظر إلى الفجوة. لكنهم تيقنوا بأن هذا الصوت يأتي من عالم آخر لا ينتمي لعالمهم. في تلك اللحظة عاد الصوت من جديد وكأنه نار شبت فجأة من تحت الرماد وهو يقول:

- منذ اليوم.. ستصير قلادتي بين أيديكم.

تفجرت الدهشة مرة أخرى في وجوه الكهنة. في حين واصل مردوخ حديثه:

- قلادتي التي لا تفارق عنقي. أحد أسلحتي الفتاكة. قررت ألا أمنحها إلا لمن يستحقها. وسوف أرسلها لكم عبر تلك الفجوة. ولكنها ستكون معطلة. لن تعمل قواها الخارقة. إلا عندما يكون كل شيء قد أصبح جاهزًا لأداء المهمة. قوتها وتأثيرها سيعملان فقط حينما يأتي الرجل المختار. ويكون متأهبا لأداء المهمة المقدسة وتحقيق إرادتي النافذة.

صمت الصوت فتجاسر الكاهن الأكبر على الحديث قائلا بخشوع:

- وهل سيرتديها المختار لتمنحه القوة يا سيد الحياة؟

أجابه الكيان محذرا:

- هذه القلادات ليست للبشر. إنما صنعت خصيصا لسادة العالم. من يجرؤ على ارتداء قلادتي الأثيرة -التي هي جزء مني- موتا سيموت. هذه القلادة لم تصنع ليلبسها سوى مردوخ العظيم. ولن يتجاسر على ذلك سواه إلا الهالكون من البشر.

قال الكاهن متحاشيا غضب مردوخ:

- سنعمل جاهدين -أنا ومن سيخلفونني- للتعجيل بمجيء المختار يا سيد

الحياة ليقتنص بها أعداءه وأعداء مردوخ العظيم.

جاءهم صوت الكيان مرة أخرى بلهجته المخيفة قائلا:

- من الخير لكم أن تفعلوا، وإلا فإن العاقبة ستكون وخيمة وفادحة. لو لم يأت الفتى المختار من بابل، فلسوف يأتي فتى آخر من مملكة أخرى، ولسوف يقوم بما يجب عليه فعله، وحينها....

صمت قليلا فترقب الكهنة بقية حديثه في رهبة قبل أن يستطرد:

- وحينها ستنمحي مملكة بابل وبرجها الأعجوبة -الذي لا مثيل له في العالم- من أرض النهرين، وتقع أسيرة تحت رحمة ملوك آخرين، وتنتهي سيادة بابل إلى الأبد.

هبط الصمت مرة أخرى ممتزجا برهبة هائلة هذه المرة، بعدما سمع الجميع عبارات مردوخ المنذرة، متوعدة إياهم بسقوط مملكة بابل، وهلاكها إذا لم تتحقق إرادته. تجرأ الكاهن الأكبر أخيرا على الحديث من جديد، فقال بكلمات حاسمة:

- سنبذل أقصى جهدنا يا سيد الحياة، وسنقدم أغلى ما لدينا لتحقيق إرادتك المقدسة، نعدك بهذا ونقسم عليه بعزتك.

صمت الكيان لفترة قبل أن يقول:

- أريد الوعد والقسم من النبي الثاني أيضا.

أسقط في يد «منكباد» وانتفض، وكأنه انتبه من نوم عميق، وهو يقول بارتباك ووجل:

- أقسم على ذلك بعزتك يا سيد الحياة، وأعدك بحياتي أن أسعى لتحقيق إرادتك المقدسة.

ظهرت على مردوخ أمارات الرضا حين سمع قسم «منكباد»، وبدا وكأن وجهه قد علته ابتسامة توهم الحاضرون رؤيتها، وهو يقول:

- الآن حق لكم الحصول على منحتي الثمينة، سوف تعبر قلادتي بوابة الآلهة

تلك قبل أن تنغلق من الناحيتين، وسوف يحتفظ بها رئيس النخبة، النبي الأول، ثم النبي الثاني من بعده، فإن منعه مانع فالنبي الثالث، حتى يأتي اليوم الموعود الذي أقضي فيه بأن تبدأ قوة القلادة في العمل، ولن أضفي عليها قوتي المطلقة، حتى يقوم أحدكم بما يجب فعله، ستعرفون ذلك في حينه، في اليوم الذي تقدمون القربان، أما الآن فقد انتهى الوقت ووجب عليكم الانصراف من حضرتي، ابقوا على العهد وأدُّوا صلواتكم في أوقاتها المقدسة التي تهديكم إليها النجوم، كي لا تحل عليكم نقمتي، فرضاي يعني الحياة الهانئة، وغضبي يعني هلاك الجميع.

قالها وتوهجت الفجوة بنفس النيران الفيروزية من جديد، وبدأت صورته الطيفية في التلاشي شيئا فشيئا من وراء خيوط النيران.

أما الكهنة فسجدوا من جديد، ظلوا كذلك حتى شعروا بخفوت الأضواء المنبعثة من الفجوة داخل القاعة، لم يجرؤ أحدهم على رفع رأسه إلا بعد أن أدركوا أن الفجوة قد أغلقت تماما، كان أول من رفع رأسه هو الكاهن الأكبر، يتصبب عرقًا رغم البرد القارس من حوله.

وفي وسط الرماد كانت هناك، تتلألأ ذاتيا ولو لم يسقط عليها شعاع من نور..

قلادة مردوخ..

كانت كما تصور دائما على صدر تماثيل مردوخ، وفوق جداريات معبده، نسخة مماثلة من قلادة كبير الآلهة -كما يراها الجميع في تماثيله وصوره- لكنها أقل حجما.

توجه كل من الكاهن الأكبر ومعه «منكباد» نحو رماد البقرة، انحنى كبير الكهنة ومد يده باتجاه الرماد لالتقاط القلادة، أشار «منكباد» لخادم المعبد أن يأتي بآنية خاصة لجمع الرماد المقدس، التف الجميع حول الكاهن الأكبر لمشاهدة القلادة، كان يترنح من التعب والإجهاد، لكنه رفعها بين يديه يتفحصها بدقة

تأملوها بتمعن، أدركوا أنها لا تشبه أية قلادة أخرى، لكنها كانت مماثلة للقلادة التي دَأَبَ أسلافهم على نحتها بإصرار على صدر مردوخ. هكذا استمر نحاتو عصرهم في تجسيدها فوق صدر تماثيله، مثلما صنع من كانوا قبلهم، كانت القلادة تتكون من سلسلة معدنية متينة وعريضة، مصنوعة من معدن منفرد في لونه وملمسه، تتدلى منها ثلاثة إطارات معدنية متصلة، على هيئة أقراص دائرية ذات تكوين بديع، تُطَعِّمُهَا الأحجار الكريمة، بينما أحاط بكل إطار طلاسم مبهمة، حُفرت حول الأقراص بإتقان، لم يفهم الكهنة منها حرفا، ووقر في نفوسهم أنها من كلمات الأرباب!

لم يعد الكهنة لسابق عهدهم كما كانوا قبل تلك الليلة، صاروا أشخاصًا أخرين، حملوا الأمانة، تحملوا مهمة تنفيذ إرادة مردوخ والحفاظ على المملكة، مملكة بابل الفتية، التي كان مقدرا لها إما أن تصير سيدة الممالك وأولى الامبراطوريات، وإما أن تندثر من على وجه الأرض ويزول مجدها، هكذا أصبحت بابل على المحك، وتحتم عليهم أن يتعاملوا مع هذا الخيار الصعب، هذه القلادة ستكون وسيلة تحقيق إرادة مردوخ، لكن لم يعرف أحدهم -ولا حتى كاهنهم الأكبر- من سيرتديها أولا، وأين تكمن سر قوتها، وكان «منكباد» يشعر أنه الكاهن الموعود، صاحب الدور الأهم في تنفيذ إرادة مردوخ، وتحقيق نبوءته، وتسليم القلادة لمن يستحقها.

- هذه القلادة ستعيش طويلا، وستكون سببا في وقوع الأعاجيب.

نطق بها «منكباد» بلا وعي، تطلع إليه الكهنة في صمت، كانت تراودهم نفس الفكرة، لكنه كان الوحيد الذي أعلن عنها، تنحنح في حرج عندما اصطدمت به نظرات الكاهن الأكبر المعاتبة، فأدرك أن عليه أن يتعلم الصمت في أيامه القادمة.

يومها ترسخت فكرة هامة في مخيلة «منكباد»، وازداد إيمانه بما راوده منذ الصغر.. هذه الآلهة ليست مسالمة دائما، وأساليبها ليست خيّرة في كل مرة،

بل يغلب على طباعها الشر في أحيان كثيرة، ويغلب على عبادتها سفك الدماء والعنف. صار على يقين بذلك، لكنه أسرّها في نفسه هذه المرة، لكن سؤالا ثار في نفسه، وظل يتردد في ضميره.. هل يجب على الآلهة أن تكون كذلك؟!

لم يجد لسؤاله جوابا، لكنه اعتقد أنه سيجده يوما ما، ترك تساؤله مهملا في عتمات النفس، حتى أهالت الأعوام فوقه غبار النسيان فصار دفينا. قرر منكاد أن يعمل بجد لتحقيق الوعد الذي قطعه على نفسه، سيكون مختارا لصاحب النبوءة، وسيسلم الرجل الموعود قلادة مردوخ.

لَعْنَة مَرْدُوخ

- أنت خائف يا حمورابي، وأتباع مردوخ لا يخافون

انبعث الصوت من داخل ركام كثيف من الظلام، أحاط بعقل وكيان حمورابي من كل جهة. تلفت حوله في توجس، محاولا اختراق سحب الظلام ل يبصر محدثه، لكنه فشل في معرفة مصدر الصوت الذي أتاه من حيث لا يدري، مرة أخرى انبعث الصوت العميق مدويا، يتجلجل في أرجاء المكان الذي لم يدرك له حدودًا قائلا:

- لن تراني ما دمتَ خائفا، أنت لست سليم القلب بعد يا حمورابي.

نطق حمورابي كلماته بحذر، وهو يحاول جاهدا أن يعرف مصدر الصوت دون جدوى قائلا:

- أنا لست خائفا، لكني حائر في تساؤلات لا أجد لها إجابات شافية.

أجابه الصوت أكثر عمقا:

- أعرفها جميعا، لكنك لن تفهم شيئا حتى وإن تلقيت الإجابة.

تردد حمورابي لكنه حزم أمره وأجاب مستجمعًا شجاعته:

- ولكن من حقي أن أفهم.

جاءه الصوت هادرا:

- عن أي حق تتحدث أيها الواهن؟ أنت أضعف مما تظن، وقوتك تأتي من قوتي، ولولا تأييدي لك ما كنت لتصنع شيئا، ولولا قلادتي ما كنت لتصبح ملك النهرين، خير لك أن تتفهم حقيقتك من أن توقع نفسك في حبائل التردد والشك، ولا سبيل لك إلا الاستسلام لإرادتي العليا.

صمت حمورابي قليلا قبل أن يقول في جرأة:

- ينعتونك بـ «سيد الحياة». لكني أراك لا تمنح عبادك إلا الموت الزؤام!

اكتست نبرات الصوت حدة وغضبا وهو يقول في صوت أشد قوة:

- الحياة تأتي من رحم الموت. ما كان لك ولا لقومك أن تهنؤوا بحياة كريمة إلا أن يجرع أعداؤكم كأس الموت. حذاري أيها الضعيف أن يقودك خيالك للهلاك المحتوم. أنت منحت بضعفك الرحمة والعفو للضعفاء أمثالك -على غير إرادتي- ولم تُعمل فيهم السيف. وعليك أن تعلم أن الرحمة لا تُمنح للجبناء. كما أن العدل محرمٌ على الضعفاء. هذه شريعتي وهذا ديني. ومن رغب عن ديني فلا يستحق المجد.

حاول حمورابي إقناع عقله بهذا المنطق لكنه فشل. فجمع شتات نفسه وهو يهتف شاخصًا في الفراغ:

- إذن دعني أنظر إليك.. ألست أنا المختار؟ ألست أنا الرجل الموعود في نبوءات الكهنة التي أوحيت إليهم بها؟ هلم إذن كي أراك.

أتاه الصوت أهدأ قليلا وبعمق أكبر:

- إن رأيتني فلا سبيل لك إلا طاعتي المطلقة. لدوم ملكك وبدوم ذكرك. وإلا.. فموتا ستموت. حينها سأمحو ذكرك في كل الأرضين. لا أحد يتحدى إرادة سيد الحياة ثم ينجو بفعلته.

تردد حمورابي أكثر وهو يصارع طبيعته المتمردة ورغبته في التحدي. لكنه في النهاية أجاب في استسلام:

- أوافق يا سيد الحياة. لكن دعني أراك حتى أطيعك على يقين.

تلاشى السواد تدريجيا في منتصف الظلام المحيط بحمورابي وحل محله لون أحمر دامٍ كاحمرار الشفق. في بقعة على المدى أمام ناظريه. وظهر في وسطه فجأة كيان ضخم غير واضح المعالم. أخذت ملامحه تتضح شيئا فشيئا وهو يقترب. حتى احتل مجال رؤية حمورابي بالكامل. كاشفا عن أضخم جسد

يمكن تخيله. كان يملأ الأفق أمامه. ما بين سماء حمراء قانية لاحت فجأة. وبين أرض مظلمة لا معالم لها ولا حدود. منتصبا بلا أرجل وقد ارتكز بدلا منها على ذيل أفعواني ضخم. كأنه نصف ثعبان هائل. التف نصفه الأخير حول نفسه. أما طرفاه العلويان فكانا كذراعي كلب ضخم يرتكز بهما على الأرض أمام ذيله الكبير. ويخرجان من جزع لجسد شبه بشري مديد. حاملا فوقه رأسا كرأس البوم. بأعين نارية ملتهبة وفم جارح تبرز منه أنياب كأنياب ذئب.

مشهدٌ صاعق اهتز لمرآه حمورابي من الأعماق. وتجاوز قدرته على الاحتمال. وخالف ما كان يتوقعه. وما كان يعرفه من صفات مردوخ البادية في تماثيله. التي يحفظ تفاصيلها كما يحفظ ملامح وجهه في المرآة. أخذ العملاق في الدنو ببطء زاحفا بلا قدم أو ساق. ومع اقترابه شعر حمورابي بضآلته أمام ذلك الكيان الهائل. راوده شعور خانق ورجفة عاتية. وكلما دنا منه الكيان زاد شعوره بالاختناق. حتى أطبق حضوره الطاغي على أنفاسه. وجثم على صدره كأثقل جلمود صخر. وتردد صوت الكيان في إلحاح:

- لا بد لك من قتل «رام سين».. اقتل «رام سين» يا حمورابي.. اقتل «رام سين»!

ومع تصاعد النداء تلاشت الرؤية أمام عينيه. حتى أنه لم يميز من بينها سوى ذلك الضوء الأحمر القاني. المنبعث وسط ظلمات بعضها فوق بعض. أخذ يصارع من أجل التقاط أنفاسه المختنقة كي لا تنقطع. اكتست الرؤية بالسواد الحالك. تواصل الصوت المنبعث من الكيان وتصاعد حتى أصم أذنيه. وقرَعَ جوارحه كطنين ألف جرس هائل ،كاد أن يحيل كيانه إلى ذرات والصوت يردد بالإلحاح ذاته:

- اقتل «رام سين» يا حمورابي.. اقتل «رام سين».. اقتل «رام سين»!

فجأة استيقظ حمورابي..

استيقظ لاهثًا من أثر الانفعال الذي انتابه من تلك الرؤيا الكابوسية. وأخذ

يكافح لالتقاط أنفاسه.

- ما هذا الذي رأيته؟

تساءل في نفسه وهو لا يزال ينازع لاستنشاق الهواء. إنها المرة الأولى التي تراوده فيها تلك الرؤيا، بعد أن اعتاد أن يرى مردوخ في صورته التقليدية التي ألِفَها، لكن هذه المرة تختلف. جاءه مردوخ في هيئة غير التي اعتادها.

جلس على فراشه بجسد متعرق مكدود يسترجع تفاصيل رؤياه، وأدرك أن مردوخ قد انتقل معه إلى ما هو أبعد من المراودة والإيعاز. مردوخ يحذره من شق عصى الطاعة والولاء، يهدده بالموت المؤكد، ومحو ذكره وتبدد أمجاده التي جناها عبر سنوات طوال.

أيقن حمورابي أن لهجة مردوخ تغيرت لأنه لم يسمح له بالاستحواذ الكامل على جوارحه، لم يتمكن منه مردوخ إلا لنوبات معدودة، تلك التي كان يحرضه فيها على خصومه واحدا تلو الآخر. لكن بقيت في نفسه منطقة تأبى دائما أن تستسلم لرغبات هذا الكيان.

فكر في أن ذلك الذي رآه لا يمكن أن يكون إلها من آلهة البر والخير. لا يمكن أن يكون إلا روحًا سفليةً تسعى لفرض سلطانها على أهل الأرض. روحًا شريرة تُعَبِّدُهم لها، وتحرضهم على الانتقام وسفك الدماء وإشاعة العداوة.

الآن تيقن من ذلك. لكنه لن يستطيع إشاعة أفكاره أمام الجميع. كل ما يستطيع فعله هو المضي فيما بدأه، وإتمام توحيد الممالك في امبراطوريته الواسعة، التي شارفت على أن تصبح مترامية الأطراف من أقصى بلاد النهرين إلى أقصاها.

شيء واحد في أوامر مردوخ لم يستطع حمورابي مقاومته، شيء واحد ألح على نفسه وسيطر على كيانه بالكامل..

الانتقام!

حرضه مردوخ على قتل «رام سين»، وهو ما تلاق مع رغبته القديمة الملازمة

ه، بالانتقام والثأر من غريمه وغريم والده. الآن حان الوقت للقضاء عليه.
سنحت الفرصة لإتمام ذلك. سيطاوع أحلامه المتكررة، التي يرى فيها مردوخ
محرضا على قتل خصمه اللئيم، فهو يستحق الانتقام في كل الأحوال.

تواترت الأحلام والرؤى واعتادها حمورابي ولم يعد يقاومها، بل ترك لها
نفسه، لتمتلئ بإرادة كاسحة للثأر. كم من مرة رأى نفسه يقتل «رام سين»
بأبشع وسيلة، وبلا أدنى رحمة؟ لم يعد يدري!

لقد أهداه حمورابي القلادة منذ ما يقرب من الشهور الثلاثة قبل أن يعلن
عليه الحرب. لا بد أن «رام سين» قد ارتداها، جواسيس حمورابي في قصر
«رام سين» أخبروه، كما أن إحساسه أكد له ذلك قبل أن يؤكد الجواسيس،
ثم.. هذه الأحلام المتعاقبة التي يكاد يراها في منامه كل ليلة، حتى رأى ما رآه في
هذه المرة. هذا البغض غير المعتاد الذي بدأ يتصاعد بداخله يوما بعد يوم، ثم
مشاهد قتله لـ«رام سين» التي سيطرت على كيانه. ألسنة النيران تلتهم جسد
خصمه الدنيء، تتراءى له في كل لفتة ولمحة. رماد جسده بعد احتراقه تذروه
الرياح. كل هذه المشاعر والدلائل تؤكد أن «رام سين» قد ارتدى القلادة،
وأصابته لعنة مردوخ!

وكما اعتاد حمورابي رؤية هذه العلامات منذ أن تسلم القلادة وبدأ في
استخدامها ضد خصومه، اعتاد أيضا أن يتبع نفس الطريقة. يعقد مع
أحدهم حلفا زائفا، ثم يهدي قلادة مردوخ للضحية المختارة، ثم تغري القلادة
من تهدى له بارتدائها، بل التباهي بها أيضا، فهي مهداة من حمورابي العظيم،
ويكون المصير الحتمي دائما هو الموت المحقق لمن يرتديها بعدما تصيبه لعنة
مردوخ. كل من يرتدي القلادة يموت مقتولا أو منتحرا أو حتى لسبب مبهم، لكنه
في كل الأحوال يموت. هذه حقيقة وعاها حمورابي جيدا واعتادها وأحسن
استغلالها تماما.

عايش حمورابي ذلك بنفسه أكثر من مرة، راودته تلك النوبات والرغبات

الجامحة في قتل خصومه، بعد أن أهدى لهم القلادة. وسواء راودته الرغبة أوراودت غيره، فإن النتيجة في النهاية واحدة. فلا فارق بين أن تموت الضحية على يد حمورابي نفسه أو على يد غيره، في كل مرة تتولد رغبة القتل في نفس شخص ما، ثم تتناوب عليه الأحلام وتتعاقب، يحضر مردوخ بقامته الضخمة في منام القاتل، يأمره بقتل الضحية واستعادة القلادة منه بأي ثمن. تتصاعد حدة الرغبة في قتل الضحية في نفس القاتل، يتصاعد كره وبغض عظيمان تجاه مرتدي القلادة، بعدها ينشط القاتل وتطوع له نفسه قتل الضحية واستعادة القلادة، ومن ثم إعادتها ليد حمورابي. وتعود القلادة في كل مرة وكأنها تمتلك إرادتها الذاتية!

أخبره بذلك «منكباد» الكاهن عندما منحها له قبل عقود ثلاث. قال يومها إن الرب مردوخ هو من يختار الشخص الذي سينفذ مشيئته ويكمل المهمة.

قائد الجيش أيضا تعرض لهذا الأمر أكثر من مرة، جاءه مردوخ مرات في حلم متكرر، يأمره بانتزاع القلادة من عنق القتيل وإعادتها إلى الملك، وقد صارح ملكه بما رآه في منامه، وما تولد لديه من رغبة كاسحة في قتل الضحية، لكنه لم يعرف يومها أنه قد وقع عليه اختيار مردوخ لتنفيذ مشيئته.

عجيب هو أمر القلادة، حتى بعد مرور كل تلك الأعوام مازال حمورابي حائرا في أمرها، لكن الأعجب منها أمر مردوخ نفسه، مردوخ الذي يعظمه الجميع كرب الأرباب، لكنه الآن يعلم أن هذا ليس من الحق في شيء، ليس بعد رؤياه في تلك الليلة.

- لن تظل ربًا للأرباب يا مردوخ، ليس بعد الآن!

هكذا أسر حمورابي في نفسه:

- قلادتك السحرية لن تعود كما كانت منحة إلهية، بل هي قلادة ملعونة بلعنة الشياطين.

سيكون له شأن آخر مع مردوخ وقلادته، لكن بعد معركة «لارسا» المصيرية.

لا بأس بتأجيل التحدي مع مردوخ إلى ما بعد التنكيل بخصمه اللدود «رام سين». هكذا قرر إمبراطور بابل!

-٧-

عَبْر أسوار «لازسا»

- مولاي الملك.

هتف بها قائد جيش بابل، اندفع إلى خيمة الملك، فانتزع حمورابي من أفكاره فصاح متسائلا:

- ماذا لديك؟

هتف القائد قائلا بحماس:

- لقد نجحت قواتنا في اقتحام الأسوار من الجهة الشرقية.

انتصب الملك واقفا واتسعت عيناه وهو يجيبه بانفعال:

-هذا خبر عظيم، ما هو موقف قواتنا في هذه اللحظة؟

أجابه القائد وهو يضم قبضته أمامه:

- لقد أصدرت أوامري لقادة الألوية بتكثيف الهجوم من تلك الجهة، وهذه اللحظات تشهد اندفاعا كبيرا لقواتنا داخل أسوار لارسا.

صمت يلتقط أنفاسه المتلاحقة ثم أضاف:

- ولن يمر هذا اليوم إلا والمدينة تحت سيطرة قواتنا يا سيدي، أعدك بهذا.

اقترب الملك من قائد الجيش بحركة حادة، قاطبا جبينه وهو يمسك بكتفيه في قوة قبل أن يهتف بانفعال مبالغ:

- اسمع أيها القائد، تعليماتي واضحة وسأكررها على مسامعك، أريد «رام سين» حيا، هل تفهم؟

انتابت قائد الجيش حالة من الرهبة بسبب انفعال الملك غير المبرر، ونظراته المفزعة لكنه أجابه على الفور:

- أمرك يا سيدي الملك. لقد أصدرت أوامري بهذا، وكل جندي الآن في الجيش يعي ذلك جيدا. القبض على «رام سين» حيا.

ثم تراجع بظهره نحو مدخل الخيمة وهو لا يزال يواجه الملك قائلا:

- اعتبره قد وقع في أيدينا بالفعل، أعدك بذلك يا سيدي، وليأذن لي سيدي الملك بالانصراف لمتابعة المعركة عن كثب.

انحنى يحيي الملك في توقير قبل أن ينصرف تاركا حمورابي في غمرة الانفعال.

لقد دنت اللحظة الفاصلة، لن يمنعه شيء من الظفر بـ«رام سين». كان يشعر بنيران الانتقام تستعر في أعماقه، لكنه كان يشعر معها بنيران أخرى بدأ يعتادها، نيران اللعنة التي أصابت خصومه جميعا، لعنة القلادة، أو بالأحرى لعنة مردوخ.

كان يشهد في هذا اليوم عامه الثلاثين على رأس مملكة بابل، ما زال يستعيد في خياله سنوات المجد، وما زال يتذكر كيف كرس السنوات الأولى من حكمه للأعمال السلمية، كيف أقام المعابد والتماثيل للآلهة، وأقام الإصلاحات والإنشاءات النافعة، لكن اعتداء العيلاميين في الشرق على أرض بابل، وتخاذل حلفائه في مملكة «لارسا» هو ما أشعل نيران المحارب داخله منذ ذلك الحين.

لم تهدأ تلك النيران بعدها يومًا في صدر حمورابي، حتى أتى ذلك اليوم الموعود الذي سينتقم فيه من مملكة «لارسا» التي خذلته، وتخلت عن مساندته وقت الشدة، أتى الموعد بعد أكثر من ثلاثين عامًا كاملةً لينال من غريمه القديم، «رام سين» الذي أذاق والده «سين موباليت» مر الهزيمة، ملك «لارسا» الرابض على عرشه منذ أمد بعيد، ذلك الذئب العجوز الذي أراد أن ينكل بمدينة بابل الفتية، واستولى على مملكة «إيسن»* الواقعة بين بابل ولارسا وطوّعها لحكمه، لتظل كالشوكة في حلق بابل طوال أكثر من نصف

---

* مملكة إيسن: مملكة قديمة تقع أطلالها بالتلول المسماة حاليا أيشان بحريات، شمال شرق مدينة البطحاء أحد أقضية مدينة الناصرية.

القرن، لكم أشعره هذا بالعجز من وجود «لارسا» بينه وبين الخليج كحجر عثرة في طريق السيادة في البحر، ولكم شعر بالعجز من سقوط «إيسن»، «رام سين» الذي تخلى عن مملكة بابل في محنتها حين هاجمها العيلاميون من الشرق، بل أسماهم بالجيران المسالمين!

لم ينس حمورابي يوما كل هذا، لم ينس كل إساءات هذا الهالك المتآمر الذي يضمر له ولمملكته الشر، ويقف عائقا في سبيل توحيد الممالك وتوسيع الامبراطورية.

اليوم سينتقم منه ويثأر لأبيه، اليوم تقف الجيوش البابلية على أعتاب «لارسا» التي يحكمها «رام سين» منذ ستين عاما، مضى على حصاره لها عشرة أسابيع، حصارا ضربه بنفسه على رأس جيوشه لإخضاع المملكة الحصينة، ودك أسوارها المنيعة، حشد من أجل هذا اليوم كل ما أوتي من قوة، كان يعتبرها أهم معارك حياته، معركة الحسم والثأروالانتقام، معركة رد الاعتباروالكرامة، معركة إعلان سيادة إمبراطورية بابل، وسيادة حمورابي «الإمبراطور»، حتى لو أدى ذلك لسيادة مردوخ تحقيقا لرغبة «منكباد» الكاهن.

توحدت الرغبات والطموحات عند أسوار هذه المملكة التي تلوح أمام ناظريه، لم يكن حمورابي يتصور أن الرغبة في الثأروالانتقام قد تدفعه ليكون ملكًا على امبراطورية عظيمة، كتلك التي أنشأها بنفسه على مدار الأعوام الثلاثين المنقضية، وما زال ماضيا نحو هدفه بكل ثبات، هذا عمل لم يقم به إلا «سارجون» الأكادي منذ قرون، وها هو يقوم بذات الإنجاز لتوحيد المملكة وإقامة الامبراطورية ولكن تحت إمرة بابل وحدها.

لقد أشعل حمورابي كل هذه الحروب من أجل تلك اللحظة، فجر فيه «رام سين» -بعناده وأطماعه وتآمره على بابل- طاقات كبرى دفعته لإنجاز كل هذه الفتوحات والتوسعات والإنشاءات، على مدار ثلاثين عاما، وها هو قاب قوسين من تحقيق هدفه الذي عاش من أجله.

صحيح أن «منكباد» -كاهن مردوخ- قد نجح في تأجيج تلك الرغبة، وزرع الفكرة في رأسه، وصحيح أن الكاهن قد استغل حماس حمورابي لإنجاز تلك المهمة، من أجل إعلاء مقام مردوخ -ورفاقه من المعبودات- إلى مكانة رفيعة فوق بقعة شاسعة من العالم. وصحيح أن قلادة مردوخ كانت وسيلة فعالة لتحقيق انتصاراته الكبيرة، وقضائه على الخصوم، لكن رغبة حمورابي في الثأر والانتقام من «رام سين» -الذي أذل والده وتآمر ضده-كانت تفوق كل رغبة أخرى.

يذكر حمورابي الآن وهو يقف على أعتاب «لارسا» تلك الخطة الذكية التي اعتمدها بعد أن أوحى له بها «منكباد» الكاهن، خطة تضمن له عدم إشعال الحرب مع الجميع في آن واحد، استطاع بها حمورابي أن يبقي الحرب مع مملكة «لارسا» إلى النهاية حتى يكون في أوج قوته، وأن يتحالف في ذات الوقت مع بعض الممالك المحيطة، حتى يضمن عدم مباغتته من ظهره، وأثناء هذا التحالف يقاتل أعداء آخرين.

أما من استعصى عليه من الملوك، ومن أراد القضاء عليه بسرعة، فكان يستعمل معه القلادة! هكذا علمه الكاهن شديد الدهاء، وقال وقتها إنها توجيهات من الرب مردوخ!

هل يتقن هؤلاء الأرباب فن الحرب والسياسة إلى هذه الدرجة؟ لن يعرف الإجابة أبدا، ولكن ما يبدو له أن هذه الخطط قد نجحت حتى هذه اللحظة، مثلما يبدو له الآن أنه على مشارف تحقيق لقب الإمبراطور.

-٨-

الثأر

«احتضنتُ شعبَيْ «سومر» و«أكاد»، وبمساعدة آلهة الحماية كنت معيلًا لهم، وقد خبأتهم داخل نفسي..

لا يأخذ القوي حق الضعيف، ولا حق الأرامل والأيتام، لأني قد وضعت القانون، لتقديم الحق للمحق، ورد المظالم لأصحابها، وإنصاف المظلومين...».

من وصية حمورابي على مسلة الشريعة

***

دقت طبول الحرب، واشتعلت معركة من أعظم المعارك في أرض النهرين، كان القتال ضاريا وعنيفا، مروعا حتى لقلوب الشجعان الذين اعتادوا الغزوات والحروب، وكخطب كل المعارك تساقط القتلى من الجانبين، وتدافعت موجات الجند بين كر وفر، لكن الغلبة كانت لصالح جيش بابل القوي المنظم.

قائد الجيش البابلي كان بارعا كسيده، وكان يدرك جيدا ما يفعل، هكذا علمه حمورابي سياسته الحكيمة:

«الإفراط في قتل سكان الممالك المحتلة قد يرعب أعداءك ويقهرهم لتكون مرهوب الجانب، لكنه يربي الأحقاد تجاهك ويجعل مملكتك مكروهة في قلوب الجميع، ومن المؤكد أنهم سيسعون للخلاص من سيطرتك عند أقرب

فرصة تواتيهم. أما السيطرة على الممالك والحفاظ على أرواح أهلها مع إزاحة السلالات الحاكمة جانبا فهو ما يكسبك الاحترام والعرفان في قلوب سكان تلك الممالك. لأنك حافظت على أرواحهم».

هكذا تكلم حمورابي. وهكذا كانت حكمته. تفكير الشعوب يختلف عن تفكير الحكام عبر كل العصور. لكن حمورابي لم يكن حاكما اعتياديا.

وأمام ضربات كتائب البابليين القوية. انهارت حصون وأسوار « لارسا» واحدا تلو الآخر. وتمكن الجنود بعد وقت قصير من فتح الأبواب من الداخل. للسماح لكتائبهم المتحفزة خارج الأسوار باقتحام المدينة. واندفع الجنود عبر بواباتها يحمل كل منهم تعليمات واضحة من حمورابي: إخضاع المدينة دون تدميرها ودون إعمال القتل في سكانها السومريين والأكاديين. وأسر «رام سين» حيا!

بحلول نهاية اليوم واقتراب موعد غروب الشمس. كان حمورابي جالسا على عرشه المحمول على الأعناق. في صدر موكبه المهيب -وسط حراسه وجنده- متجها صوب قصر «رام سين». لم يصمد القصر المحصن طويلا أمام هجمات جنود بابل. رغم مهارة الحرس الملكي وجنود البلاط وصمود مقاومتهم. التي استمرت لبضع ساعات. لكن قوات بابل استطاعت في النهاية اقتحام القصر. والقبض على ملك «لارسا» العجوز الذي جاوز الثمانين. لم يُبدِ «رام سين» مقاومة كبيرة حين أسره الجنود. قيدوه في ساحة القصر هو وحاشيته. وتركوهم في انتظار حضور ملك بابل المنتصر.

تأججت نيران الانتقام في صدر حمورابي. ومع كل خطوة تدنيه من رؤية غريمه القديم كانت نيرانه تزداد اشتعالا. أحس حمورابي أنه يفقد السيطرة على نفسه. كانت تسيطر عليه قوة عاتية. لم يستطع مقاومة تيارها الجارف كلما اقتربت ساعة الانتقام. قوة تملكت من كيانه بأكمله. حتى أنها سيطرت على كل خلجات جسده. غشاوة ثقيلة ضببت رؤيته. تعالت ألسنة النيران

أمامه بقوة حتى كادت أن تصل إلى عنان السماء، وجه مرضوخ يطل عليه بملامحه القاسية من خلال النيران!

اقتل«رام سين».. اقتل«رام سين»..

كانت العبارة تتردد.. تتعالى.. إيقاعها يتزايد ويصم أذنيه..

اقتل «رام سين».. اقتل «رام سين».. اقتل «رام سين»..

- توقفوا

صرخ بها حمورابي بصوت هادر، جعل حاملي العرش والسائرين في الموكب يتوقفون في ارتباك، كان الموكب قد تجاوز بوابات القصر، وأصبح داخل ساحته الواسعة، ضمهم مشهد مهيب تجسد به الانتصاروالهزيمة معا، «رام سين» مقيد هووحاشيته في ساحة قصره، يحيطهم جنود بابل من كل اتجاه، كان الحرس وجنود البلاط الباقون على قيد الحياة مستسلمين، يجثون على ركبهم في انكسار، تجمد المشهد على هذه الحال لفترة، وسط صمت تام، وسكون لا يجرحه إلا بعض الرياح والأوراق الجافة المتطايرة هنا وهناك.

لم يبدد الصمت إلا صرخة هادرة أخرى أطلقها حمورابي بأمر حاملي العرش بإنزاله فورا، أطلقها حمورابي بصوت غريب، جعل قائد الجيش يتأمله مندهشا، شيء ما في وجه حمورابي ونظراته الجامدة أشعره بعدم الارتياح، ليس هذا هو ملكه الذي يعرفه، يكاد يرى وهج النيران في عينيه.

هبط حمورابي من فوق عرشه، وخطا ببطء نحو «رام سين» المقيد بإحكام، تجمدت أطراف الرجل من نظرات حمورابي المخيفة، كان «رام سين» يدرك أنه هالك لا محالة، عرف منذ هزيمته بأن حمورابي لا بد قاتله، لكنه كان يأمل أن تكون ميتته رحيمة خاصة أنه وصل إلى أرذل العمر.

في اللحظات التالية أقدم حمورابي على تصرف خالف توقعات الجميع، انتزع سيفه من غمده ومزق القيد الذي يكبّل غريمه العجوز، أمسك بتلابيبه في عنف غيرمبال بتهالك الأخيروترنحه، سحبه خلفه بحدة متجها إلى بوابة

أسوار القصر الخارجية. تسمر قائد الجيش للحظات، لكنه توجه مهرولا خلف الملك. لحق بهما جنوده وحراس الملك من فورهم. وما إن أصبح الملك وأسيره خارج أسوار القصر متوجها إلى وسط المدينة حتى تبعتهم جموع أخرى من الجنود. تفاجؤوا بالملك سائرا على قدميه على غير العادة، فقرروا أن يتبعوا الموكب في صمت.

سار كل هذا الجمع متوجها إلى وسط المدينة الخالية. كان الأهالي قد لزموا بيوتهم امتثالا لتعليمات ملك بابل. وصل الركب أخيرا إلى وسط المدينة الذي يحتله ميدان ضخم دائري، أعده بناة المدينة منذ عصور لإقامة الاحتفالات الجماهيرية الضخمة، ولتمجيد المعبود «سين» إله القمر.

أخيرا ترك حمورابي أطراف ملابس خصمه المتهالك. ظل «رام سين» يترنح أمامه من أثر السير الطويل. وجه الملك نظرة جانبية لقائد جيشه، أشار إليه بأن يقترب. سارع القائد يلبي نداء الملك، وبعبارة مقتضبة خرجت من بين شفتي الملك قال بصوته الغريب:

- استدع سكان المدينة من بيوتهم إلى هنا الآن!

تجمد قائد الجيش للحظات من دهشة قبل أن يجيبه بلا تردد:

- كما يأمر الملك.

التفت القائد إلى مَن تواجد من قادة الألوية والكتائب، ينقل إليهم أمر الملك باستدعاء سكان المدينة من البيوت. فانصرف بعض القادة والجنود ينفذون أمر سيدهم على الفور، في حين أصدر حمورابي أمره لقائد جيشه قائلا:

- أوقدوا شعلة كبيرة من النيران في وسط الساحة.

توجه قائد الجيوش وسط دهشته إلى جنوده، وأمرهم بسرعة الامتثال لأمر الملك.

لم يمض وقت طويل على هذا المشهد حتى بدأ توافد سكان المدينة إلى ساحتها الكبيرة. دخلت الحشود في حراسة الجند من كل اتجاه إلى حيث يقف

حمورابي ورام سين.

شاهد الجميع ملكهم المهزوم وحاشيته وهم يقفون أذلاء منكسرين، مشهد جعلهم يشعرون بأنهم وقوفٌ أمام أبطال يؤدون أدوارهم بإتقان في مسرحية كبيرة، لكن من يجسدون المشاهد أمامهم كانوا ملوكا وقادة ونبلاء من علية القوم، أما المشاهدون فكانوا من الشعب والجنود الذي يقدرون بالآلاف.

أمام الجمع الصامت تحرك حمورابي وسط الدائرة الممتدة، وبالقرب من النيران الهائلة المشتعلة أتتهم كلماته وهو يهتف بصوته الجهوري الذي تردد صداه في أرجاء الساحة الضخمة:

- يا أهل «لارسا» الشرفاء، أنا الملك المعظم حمورابي ملك ملوك النهرين، حقير هو من لا يعرفني، أعطيتكم الأمان ووفيت بوعدي، لم أسفك دم أحدكم اليوم ولن أفعل في أي يوم آخر، هكذا أنا، أحارب من أجل مجد آلهة بابل وعزة مملكتي، من أجل العدالة، لا من أجل المال وليس من أجل سفك الدماء البريئة، لكن اليوم يقف أمامي مجرم أثم ارتكب في حق بابل وفي حق ملوكها العظماء بل في حق الآلهة المعظمة جرائم فادحة.

صمت يلتقط أنفاسه، همدت الأصوات، وكأن الجميع قد توقفوا عن التنفس، ترقبا لما سيقوله حمورابي، وما سيفعله في الدقائق القادمة، بينما ازداد تحفز قائد الجيش وجنوده في انتظار ما سيأمر به الملك، حتى واصل حمورابي حديثه الجهوري قائلا:

- اليوم سيدفع هذا الآثم ثمن كل جرائمه، سيدفع ثمن إهانته لوالدي الملك «سين موباليت»، وسيدفع ثمن تخاذله وخيانته لمملكة بابل حين تعرضت للخطر وطلبت المساعدة، سيدفع ثمن كل المؤامرات التي حاكها ضد أشرف مدينة في أرض النهرين، مدينة بابل العظمى، ورغم ذلك سأكون رحيما معه حتى النهاية وذلك من أجل شعب «لارسا» المسالم.

صمت مرة أخرى، وهو ينظر إلى الجمع في كل اتجاه قبل أن يقول في قوة:

- لقد أمرت أنا الملك المعظم حمورابي -إمبراطور بابل والنهرين- أن يُنفى «رام سين» خارج جميع أراضي وبلاد النهرين، إلى أرض عيلام التي يحكمها الأعداء، ولن يُسمح له ولا لأي من ذريته بالتواجد على أرض النهرين بعد اليوم.

كان هذا عكس ما كان يسيطر على حمورابي قبل ذلك بدقائق قليلة، كانت الرغبة في قتل «رام سين» والانتقام منه تسيطر عليه سيطرة عمياء قبل قليل، وكان في طريقه لقتله شر قتلة أمام الجميع، لكنه وجد نفسه يصدر قراره بنفيه خارج أرض النهرين، وكأن رغبته في القتل قد تلاشت فجأة.

لقد اعتاد تلك النزعات التي تسيطر عليه من آن لآخر ولم يعد ذلك يدهشه، لكن هذه المرة أصبح مردوخ يطارده في كل حركاته وسكناته، بل وفي نومه وتحت أغطية فراشه.

تنهد قائد الجيش بارتياح حين سمع الحكم الذي أصدره حمورابي، لم يكن يرى من الحكمة الانتقام من الملك المهزوم علنا أمام أعين رعيته، أما شعب «لارسا» فقد شعروا بالارتياح لهذا الحكم الرحيم على ملكهم المهزوم، وبامتنان بالغ نحو حمورابي، الملك العادل الذي طالما تناقلت سيرته الألسنة.

لكن «رام سين» كان يضمر شيئا آخر، سيطرت عليه الرغبة -في تلك اللحظة- في الانتقام من حمورابي، لم يكن يعبأ بمصيره وهو يعلم أن نهايته قد حانت في كل الأحوال، لذلك قرر في نفسه أن يثأر لكرامته من هذا الملك المتغطرس الذي أذله في عقر داره، لذا لم يكد حمورابي ينتهي من حديثه حتى بادره «رام سين» -رغم تهالكه- بانقضاضة خاطفة، هجم عليه كذئب عجوز مبرزا خنجرا فضيا من ثنايا ملابسه، رفع خنجره وصوبه نحو قلب حمورابي بسرعة، كادت الطعنة أن تصل مبتغاها، لكن قائد الجيش المتحفز كان يراقب الملك المهزوم منذ البداية، تحرك في اللحظة التي أبرز فيها «رام سين» خنجره الحاد، أمسك يده بقوة ولوى ذراعه بحدة مباغتة، ليسقط الخنجر قبل أن يصل إلى جسد حمورابي.

نجا حمورابي من القتل المفاجئ، ولكن فجأة أيضا -ودون مقدمات- عاودته النوبة الشيطانية. أثار الغضب في نفس حمورابي تلك النزعة الشريرة. وأمام كل الأنظار شاهد الجميع حمورابي وكأن الشرر يتطاير من عينيه. حمل حمورابي «رام سين» بذراعيه القويتين حتى رفعه أعلى رأسه، وتوجه به نحو النيران المشتعلة التي صنعها جنوده قبل قليل، وبداخل حمورابي تصاعد النداء الشيطاني من جديد..

اقتل «رام سين».. اقتل «رام سين».. اقتل «رام سين»..

حاول قائد الجيش الاقتراب من حمورابي، لكنه دفعه بكتفه في غلظة، وهو لا يزال حاملا خصمه فوق رأسه بذراعيه، وأمام ذهول الجميع، ووسط صراخ النسوة، قذف حمورابي بـ«رام سين» في النيران. ألقاه فسقط كحجر كبير بين ألسنة اللهبِ المستعرة، وسط صرخات وصيحات الأهالي. لبى حمورابي النداء الشرير الذي تصاعد بداخله بلا شفقة.

وأمام الأعين المذعورة، ظل «رام سين» يتلوى داخل النيران، صرخ بجنون محاولا النهوض في هياج كبير، لكن بعد قليل خفتت حركته وتحول تدريجيا إلى كتلة متفحمة خالية من الحياة.

عم الصمت طويلا إلا من نشيج البكاء الخافت لبعض الأطفال، والنساء اللاتي تأثرن ببشاعة المشهد. أما حمورابي فقد ظل متجمدا في مكانه وهو يشاهد خصمه ينازع آلام النهاية وسكرات الموت. كسى الجمود نظراته حتى ناهزت نظرات خصمه الميتة. ظل في مكانه حتى خفتت النيران، ولم يتبق سوى رماد الأخشاب، وجثة «رام سين» المتفحمة التي اختفت معالمها، يتصاعد منها دخانٌ أسود.

وأمام الأنظار المترقبة، اقترب حمورابي ببطء من جثة غريمه، وانحنى يلتقط شيئا من الجسد المتفحم.

قلادة مردوخ التي كان يرتديها «رام سين» قبل احتراقه. لم يشعر حمورابي

ولم يعِ كل ما حدث، لكنه فجأة استعاد وعيه وعاد إلى عالم الواقع، لم يدرك ماذا فعل بـ«رام سين» منذ لحظات مضت، إلا حينما التقط القلادة من بين رماد جثته المتفحمة.

ها هي القلادة كما هي لم يصبها سوء ولم تنل منها النيران، ولكن..

من فعل هذا بـ«رام سين»؟ أيُعقل أن يكون هو من فعل به ذلك؟

لا يتذكر أبدا أنه فعل، ما زال يشعر بالحيرة من هذه النوبات التي تتملكه وتدفعه لقتل خصومه بلا رحمة. لا زال يشعر بالرهبة والانقباض عندما تختفي الموجودات من أمامه، ويحل محلها عالم آخر غريب، عالمٌ يحتله مردوخ ويسيطر عليه، يظهر أمام ناظريه مطلًا عليه من عالمه المظلم المخيف، يأمره بقتل خصومه الذين تصيبهم لعنته بعد أن يرتدوا قلادته. قلادة مردوخ التي أدرك كنهها بعد عقود من استخدامه لها. أيقن الآن وبعد كل هذه الأعوام أن هذه القلادة شيطانية.

إذن، ماذا يكون مردوخ نفسه؟ هل يمكن أن يكون مردوخ ربًا بعد كل هذه الأحداث؟ وَقَرَ في نفسه أن مردوخ لا يمكن أن يكون إلها.. أي إله هذا؟! تبًا له من إله!

لا يمكن أن يتصف الإله بكل هذا الشر، الإله يجب أن يكون منزها عن مثل هذه النزعات الانتقامية والرغبات الشريرة، الإله لا بد أن يكون رحيما، وهذا الذي أتاه في منامه كان على النقيض.

ظل يتساءل في نفسه، لو لم يكن مردوخ إلها، فماذا يكون إذن؟! كان سؤالا لا يحتاج لكثير عناءٍ للإجابة عليه، قرر ألا يبحث عن إجابته الآن، هكذا أرجأ الجواب لأجل غير مسمى! فأمامه يلوح حلم «امبراطورية بابل الكبرى».

-٩-

الإمبراطورية

«وعندما نظر «شمش» ـ سيد الأرض والسماء وملك الآلهة كلها ـ بمحياه اللامع وببهجة إليّ ـ أنا حمورابي أميره المحبب أهداني هذه الأرض، وسلمني مقاليد الحكم، ومملكة دائمة، وأوصاني بشعوب النهرين بأن يعيشوا آمنين مسالمين، وقد أمرني بأن أكتب على مسلة الشريعة: «إن شاء الإله «شمش» فلن يكون لحمورابي أي عدو».

كتبت وثبّت كلماتي على مسلتي وأمامي أنا ملك العدالة، الملك المميز من بين كل الملوك هو أنا».

من وصية حمورابي على مسلة الشريعة

***

مرت أربعون عاما على حكمه. أصبح حمورابي أكثر شيخوخة. جلس على عرشه يستعيد ذكريات سنواته الأربعين في حكم أرض النهرين. حقق حلمه بعد سنوات مديدة من الحكم. صار إمبراطور بلاد النهرين من شرقها إلى غربها، منذ عامه السابع من حكمه وهو يخوض فتوحاته المتتالية ومعاركه المتواصلة، حتى دانت له كل الممالك. هادن البعض وعقد التحالفات مع البعض. حارب البعض، وانتصر على الجميع.

الآن تمتد امبراطوريته الموحدة إلى آفاق عريضة، من جبال أرمينيا والأناضول شمالا إلى الخليج جنوبا، ومن حدود عيلام بأرض فارس شرقا وحتى سواحل فينيقيا غربا، حتى مملكة ماري القوية انتصر عليها، ومملكة يمحاض المنيعة لم تصمد أمامه*، أما مملكة آشور الغنية الحصينة فقد استولى عليها بيسر، بعد موت حليفه ملك آشور، خطة الكاهن الراحل «منكباد» -التي لقنه إياها في أوائل سنين حكمه- قد أتت أكلها..

«لا تحارب الجميع في وقت واحد يا حمورابي، لا تكسب عداوة الكل في نفس الوقت، اتبع توجيهات الرب مردوخ، تارة تهادن، وتارة تحارب، وتستخدم القلادة تارة أخرى....»..

هكذا كانت كلمات «منكباد»، الكاهن الأكبر الذي كان قد رحل منذ سنوات، هو الآن لا يصدق أنه حقق كل هذا، نفذ الخطة بمنتهى الذكاء، وسار على التعاليم بدهاء يحسد عليه، حقق إنجازات عظيمة، وازدهر في عصره استخدام العجلات الحربية التي لم تستخدم قبله إلا قليلا، توسع في نشاط حفر القنوات، أنشأ نظما للري وأنشأ المفيض العظيم الذي حمل اسمه، فضلا عن تشييد المباني الشاهقة المزخرفة بأروع الزخارف.

امتدت أسوار المملكة -في عهده- إلى مسافات كبيرة وبلغ ارتفاعها حدا لا يكاد يصدقه من يراه، وانتشرت «زقورات» جميع الآلهة في كل أنحاء المملكة، وعاش الناس في ازدهار داخل مملكته مترامية الأطراف.

لكن الدور الأكبر كان لهذه القلادة، تصدرت القلادة دور البطولة في توحيد أرض النهرين، لعب مردوخ الدور الأكبر في تحقيق ذلك، هذا الكيان الذي ما زال حمورابي يخشاه، هذا الكيان الذي يكرهه لكنه يهابه بشدة، مردوخ الرهيب ذو القوة العاتية والميول الشريرة، مردوخ الذي استغل طموح حمورابي لنشر

---

* مملكتا ماري ويمحاض من الممالك السورية القديمة ونقعان حاليا قرب مدينتي البوكمال وحلب على الترتيب بسورية

سلطانه على الأرض. بدا لحمورابي الآن أنه هو من صنع كل هذا!!

ومثلما أدرك حمورابي عجزه عن التراجع عما بدأه في مشواره الطويل، أدرك أيضا أنه يجب أن يستمر في سيره حتى يأتي اليوم الذي يرحل فيه عن العالم.

تذكر حمورابي كم كان يتجنب التعرض لمردوخ، وتذكر أيضا رفضه مرارا لعرض الكاهن الأكبر الحالي -الذي خلف «منكباد» في منصبه- أن يحضر معهم القداس الذي يقام لمردوخ في قمة برجه داخل معبده. كانت نفسه تأبى أن يشارك الكهنة تلك الطقوس، وهو الذي علم من يكون مردوخ، بل علم من تكون كل تلك الآلهة التي يصنعون لها الأوثان والتماثيل، وعلم أيضا أن القلادة تحمل لعنة مردوخ.

الآن يدرك أن القلادة قد تم جلبها بطقوس شيطانية حتى تصيب لعنتها من يرتديها، واليوم وبعد أربعين عاما في سدة الحكم، وبعد أن صار إمبراطور النهرين الأوحد، قرر حمورابي -أخيرًا- أن يخالف الشعائر والتقاليد العتيقة.

كان اليوم هو بداية أعياد «أكيتو»، رأس السنة البابلية وعيد الربيع وعيد الإله مردوخ الذي سيستمر أحد عشر يوما كاملا! ارتدى حمورابي زي الكهنة كما تقتضي الشعائر، كان طقسا يشير إلى الأصل الكهنوتي للملكية، تأكيدا على اتحاد الكهنوت بالمُلك، وكانت تلك وسيلة أخرى من وسائل سيطرة الآلهة على البشر.

في الأيام الخمسة التالية قام الكهنة بالكثير من الطقوس، طهروا المعبد بمياه النهرين المحفوظة ببرج بابل، وبخروا معبد سيد الحياة، وأعد الخدم مركبات الأرباب لتطوف بتماثيلهم في أرجاء بابل، قاموا بطقوس ذبح الشاة، وطافوا بها داخل أرجاء المعبد الرحيب، يقرؤون التراتيم الجماعية ويقيمون الصلوات والابتهالات، إلى جانب الكثير من القرابين والتقدمات استرضاءً لمردوخ الذي يعتقدون أنه سيحدد مصير البشر والآلهة للسنة القادمة.

تجرد حمورابي من كل مظاهر عظمته كملك، ترك النياشين والشارات

والتاج والصولجان وحتى السيف، هذا دوره في الطقوس ليَمثُل أمام مردوخ، وينحني أمام التمثال الكبير للإله القابع في أسفل البرج. ويؤدي التلاوات والترانيم. بعدها سيسمح له الكاهن باسترداد متعلقاته كعلامة على استمرار عهده وتجدد سلطته.

في المساء قام حمورابي بنفسه بذبح الثور الأبيض الضخم الذي أعده الكهنة، بسكين التضحيات تقدُمَةً لمردوخ. وفي الأيام التالية توالت مواكب الآلهة في طرقات المدينة وتجمهرت جموع الشعب لتقديم التحية لها. حتى حل اليوم الثامن للأعياد، اليوم عندهم هو موعد قيامة الإله مردوخ من الموات وبعثه!

وفي اليوم العاشر استقل حمورابي مركبته الملكية التي تجرها الجياد. طاف بها عبر طرقات المدينة بصحبة الكهنة في موكب ضخم وسط جموع الشعب في احتفالية كبرى. حتى تماثيل الأرباب حضرت الاحتفال مكسوة بأفخر الملابس تعظيمًا لكبيرها مردوخ. قبل أن تستقر جميعا في ساحة بيت مردوخ «إيساجيلا». بعدها مثُل حمورابي ثانيةً أمام مردوخ ومد يده ليصافح صنمه، ليجدد شرعيته أمام شعبه.

لطالما حاول حمورابي التملص من تلك الطقوس التي بات كافرا بها وبمردوخ ذاته. لكن لم يكن هناك مفر من أدائها لتثبيت ملكه وإلا أثار حفيظة الكهنة والشعب بلا داع. كان قد ضاق ذرعا بكل هذه الشعائر المعقدة التي وُضعت لتعظيم مردوخ وباقي الآلهة. خاصة بعدما تكشفت له حقيقة مردوخ. لكنه اضطر لأدائها بلا حماس امتثالا للتقاليد الصارمة.

قرر أن ينفذ مخططًا محكمًا. لن يقوم بإلغاء الأعياد، ولن يبطل الطقوس، لكنه سيغير جزءا منها فقط. سيحضر قداسا خاصا للإله «شمش» رب العدالة والقانون عقب انتهاء الشعائر مباشرة، وفي آخر يوم من أيام أعياد «أكيتو». وفي عيد مردوخ نفسه!

لقد تحداه مردوخ وقبل هو التحدي، سيعلن للجميع أنه تلقى وحيا من الرب «شمش» إله العدل والقانون وليس من مردوخ، ليس هذا وحسب، بل سيكشف لهم عن قانونه الموحد للامبراطورية بأسرها، قانون قديم مطبقٌ منذ عقود، لكنه أدخل عليه تعديلات جديدة، وسيعلن لهم أن الرب «شمش» هو من أوحى له به.

صحيح أنه جمع هذه الشرائع من حضارات مختلفة، ومن مصادر قديمة وأديان سابقة ومعاصرة، ثم قام بتنظيمها وترتيبها وإعادة صياغتها لتلائم عصره، وصحيح أنه لم يتلقاها من «شمش» ولا من غيره، لكنه سيقوم بهذه الحيلة للحد من هيمنة مردوخ، هكذا واتته الفكرة؛ لذا قرر أن يتحرر من المجد الزائف لهذه القلادة.

اليوم يزاح الستار عن مسلته الفاخرة التي تحمل نصوص شريعة بابل الموحدة، وأعلى النصوص يظهر حمورابي وهو يتلقى الشريعة من «شمش» رب العدالة، اليوم يحتفل حمورابي بتخليد أكبر إنجازاته، سيكشف عن «دستور بابل»، وسيعلن للجميع أنه تلقى وحيه من رب العدالة، شريعة حمورابي التي ستطوف الأرجاء وسيعمل بها الجميع، بل سيدون عليها أيضا وصيته التي يمجد فيها كل الأرباب عدا مردوخ! لا مجال لذكر مردوخ وقلادته بعد اليوم بل سيذكر الجميع الشريعة، فقط الشريعة هي ما ستخلد ذكره في كل الأزمان، وسيقترن اسمه في كل العصور بشريعته المكتوبة، سيفرض حمورابي بخطته البارعة حقيقة أخرى مخالفة لما صار يعلمه الناس ويتحدث عنه العالم، فقد صار يضيق صدره ويخجل مما يقولون.

آن الأوان لتحجيم قوة تلك القلادة، وجاء الوقت لإخماد الأصوات التي تتهمه باللجوء لسحر الآلهة، حان موعد غلق الأفواه التي تهامس بأن القلادة هي ما صنعت انتصاره ومجده وامبراطوريته الواسعة.

«انتهى زمانك يا مردوخ، ليأفل نجمك وينحسر نفوذك ويندثر ذكرك،

حمورابي العظيم سيصنع التاريخ من جديد بعدما صنعه على مدار عقود حكمه الأربعة. لن يذكر أحدهم في التاريخ أن ما صنع مجد حمورابي هو قلادتك الشيطانية. ليس بعد اليوم. سيشيع بين الناس ذكر «شريعة حمورابي» المدونة على «مسلة شمش» لآلاف السنين. بدلا من أن يتحدثوا عن «قلادة مردوخ». ولن يكون لمردوخ ولا لقلادته فضل عليه منذ الآن»

هكذا حدث نفسه..

وبفضل خطته البارعة لن يجرؤ أحدهم على الاعتراض رغم ما يحمله ذلك من مخالفة كبيرة للشعائر. الجميع الآن يخشون حمورابي بمن فيهم الكهنة أنفسهم. بعد أن صار حاكم بلاد النهرين والامبراطور الأوحد بلا منافس. أصبح مهيمنا على الجميع. حتى كبير الكهنة الذي يفترض أن يطيعه الملوك. أصبح يخشى مخالفة حمورابي في إرادته. لذلك لن يعترض أحدهم. حينما يعلن للجميع عن تلك المفاجأة التي ستحط من قدر مردوخ. معتمدا على عدم إهانته علنا. سيستخدم دهاءه للحفاظ على تقديسه واحتفالاته كما هي. لكنه في ذات الوقت سيحتفي بمعبود آخر. وسينسب له الفضل في تلقينه الشريعة والقانون. ولم لا؟! أليس «شمش» باعتراف الكهنة هو إله العدل؟

كان يدرك أنه سيرحل عن العالم عما قريب. ربما بعد شهور. لذلك قرر قرارا مصيريا..

يجب أن تختفي القلادة..

لن يسمح أبدا بأن تقع القلادة في يد أحدهم ليعيد استخدامها كما فعل هو. ربما أفسد بها ما صنعه. وربما تقع في يد أعداء بابل. لن يسمح بأن يزداد بها مردوخ قوة.

كم تمنى أن تعود به الأيام ليحاول بكل جهده أن يحد من سلطة مردوخ وكهنته. حتى ولو برفع قدر آلهة أخرى. ولكن الوقت قد فات لذلك. المهم الآن ألا يسمح لمردوخ أن تزداد قوته وسطوته على العالم أكثر من ذلك. لهذا سيفعل

الشيء الوحيد الصحيح. لقد اتخذ قراره الحاسم ولن يمنعه مانع في العالم أو خارجه من تنفيذ مبتغاه.

وفي هدوء أخرج الصندوق الخشبي للقلادة من مكانه السري، ثم أخرج القلادة من داخل الصندوق ليتأملها للمرة الأخيرة قبل أن يعيدها إلى مكانها من جديد. غدًا يخفي الصندوق في مكان خفي يحفظه منذ صغره في الجدران السفلية من برج بابل، «إيساجيللا»، «بيت مردوخ».

سيذهب هناك في الخفاء ويؤدي المهمة، سوف يودع العالم القلادة لأجل غير مسمى، عسى أن يكون ذلك للأبد، لن يكون هناك في العالم بعد اليوم ما يسمى بقلادة مردوخ.

هكذا كان يأمل حمورابي!

-١٠-

الكَابُوس

«لأَنَّ اخْتِرَاعَ الأَصْنَامِ هُوَ أَصْلُ الفِسْقِ، وَوِجْدَانَهَا فَسَادُ الحَيَاةِ».

سفر الحكمة ١٤: ١٢

***

نينوى - مملكة أشور

٦٨١ ق.م

تململ «سنحاريب» ملك أشور على عرشه داخل قصره المنيف بالعاصمة نينوى، وقد بلغ منه الملل مبلغه، يوم كئيبٌ آخر لا يريد الانقضاء، شأنه شأن كل أيامه الرتيبة خلال عاميه الأخيرين.

لم يعتد «سنحاريب» على ذلك وهو الذي صال وجال في أقطار الأرض الشاسعة غازيا وغانما، فأنّى له الجلوس والمكوث بلا قتال ولا تجوال في الأرض، بعد كل ما قطعه من أطراف قصيّة، لم يبلغها غيره من الملوك إلا بشق الأنفس، قطعها هو عبر سنوات حكمه كنزهات عسكرية، لم يجلس فيها داخل قصره إلا أياما معدودات.

استقبل آخر الوفود التي أتته في ذلك اليوم من نواحي الساحل الفينيقي، محملين بالهدايا والجزية والبضائع القيمة، وبمجرد انصرافهم قام «سنحاريب» يتجول في قاعة العرش، توجه بعدها إلى شرفة القصر التي تطل على مدينته،

يتأمل معالمها التي أبدعها بناؤوها من نوادر المنشآت والمعمار.

جلس بالشرفة وقد تملكه الفخر بما أنجزه خلال سنوات حكمه. تذكر كل الغزوات العظيمة التي قام بها. تذكر أيضا والده الذي أورثه مملكة قوية محكمة التنظيم. والده «سارجون الثاني». الملك الأشوري العظيم. الذي ناهز فتوحات حمورابي اتساعا بعد ألف سنة كاملة من عصره. لكن سنحاريب لم يختلف -في صفات المجد والبطولة- عن والده. بل فاقه في نشاطه وقوة عزيمته. تذكر كيف ورث عنه علو الهمة وشدة البأس ومواصلة الفتوحات. وتذكر أيضا كيف أكمل مسيرته حتى صار شهيرا في عصره. ودانت لدولته الأقطار والممالك. وسارع للتحالف معه كبراء الملوك.

لم يترك قطعة في أرض النهرين وما حولها إلا غزاها. حتى ممالك الشام وأرض عيلام لم تسلم منه. ولا حتى مملكة يهوذا بفلسطين وحاميات مصر في سواحل فينيقيا. حتى ناهز فتوحات «سارجون» وغزوات حمورابي.

نزعه من أفكاره صوت زوجته الأثيرة «نقيا» وهي تلحقه بالشرفة قائلة في مرح:

- فيم يتأمل ملك الأرض يا ترى؟

التفت سنحاريب إليها وهو يقول بهدوء:

- في أحوال المملكة يا زوجتي العزيزة.

قالت مداعبة:

- وما لها أحوال المملكة يا زوجي العزيز؟ أراها في أحسن حال.

استدار سنحاريب يتأمل معالم مدينته من جديد وهو يقول:

- بالطبع هي في أحسن حال. ولكني مللت المكوث في القصر من دون عمل.

أطلقت زوجته ضحكة جزلة وهي تقول:

- من دون عمل؟ حسبتُ ما تفعله من استقبال الوفود وتلقي الجزية من أقطار الممالك عملا دؤوبا.

استدار إليها سنحاريب، وقال مبتسما:

في الحقيقة أنا أحن إلى الغزوات والحملات التي كنت أشنها على كل الأقطار. عامان دون حرب هو أمر غير معتاد لملك الأرض.

أطلقت «نقيا» ضحكة أخرى وهي تقول:

هكذا إذن! أما كفاك كل ما خضته من معارك وحملات يا زوجي العزيز؟ أما يكفيك ما أخضعته من جميع مقاطعات بلاد النهرين ومدائن الشام وحاميات المصريين بها؟ بل إن أرض عيلام نفسها خضعت لآشور رغم ما لحكامها وشعبها من قوة وتمرد. لكنها جميعا لم تسلم من حملاتك التأديبية. بل إنه يكفيك أنك أذقتهم الويلات وعاملت المذنب منهم والبريء بقسوة على حد سواء.

أجابها سنحاريب مبررا:

- لا توجد وسيلة أخرى لفرض سلطاننا عليهم يا عزيزتي. مجد آشور ورفعتها أهم من أرواح هؤلاء المتمردين مهما ارتفع صراخ ساكنيها.

اقتربت منه وهي تضع كفها على صدره في حنو:

أعلم يا زوجي. لكن ألا ترى معي أن ذلك يكفي حتى الآن لتحقيق هذا الهدف؟ أما آن لك أن تتذوق طعم الراحة؟ ما الذي يشغل بالك؟ أخبرني!

أجابها سنحاريب وقد تغيرت لهجته وتسرب إليها الضيق:

- تلك الرؤيا يا عزيزتي. بل هذا الكابوس!

أجابته «نقيا»:

- كابوس؟!

أومأ برأسه قاطبا جبينه:

- أجل. إنه كابوس يطاردني في منامي منذ فترة.

أجابته منزعجة:

- وماذا رأيت يا عزيزي في هذا الكابوس حتى أوصلك لتلك الحال؟

أجابها وهو يسرح ببصره بعيدا عنها تجاه المدينة:

- الموضوع قديم يا عزيزتي. فمنذ أكثر من عشرين عاما وبعد سنوات قليلة من بداية حكمي للمملكة. كانت «يهوذا» وقتها لا تزال غير خاضعة لنا بالكامل. ذلك الشقي الهالك «حَزَقِيَّا» تحصن بأورشليم بعد أن نقض العهد وامتنع عن دفع الجزية للمرة الثانية واستقوى بالمصريين. وكان لا بد أن نقوم بتأديبه ليقدم الولاء والطاعة لأشور من جديد. أو أضطر حينها لقتله حتف أنفه. لا أحد يتمرد على أشور وينجح في تمرده أبدا.

صمت قليلا وتنهد قبل أن يستطرد:

- يومها حاصرنا «يهوذا» بعد أن دمرنا «لخيش» من فوق ظهر الأرض. وغزونا «عقرون». ورغم أننا غزونا عشرات المدن في يهوذا وما حولها. وسقطت أضعافها من القرى التي اقتطعناها من بلاده. وحاصرنا أورشليم حتى صار «حَزَقِيَّا» سجينا بداخلها كعصفور في قفص. لكن لا أحد يعلم ماذا حدث بعدها. كنت وقتها في عقرون أتابع عن كثب. وفوجئ قادتنا في صباح اليوم التالي بآلاف الجنود قد لقوا مصرعهم دون قتال. وتشتت الكثيرون تحت أسوار أورشليم دون سبب مفهوم. والعائدون من هناك رواياتهم مضطربة. بعضهم تحدث في فزع عن وباء غامض. والآخرون تحدثوا عن فئران الحقل التي قرضت أسلحتهم فلم يجدوا ما يغزون به أورشليم. ولا أحد يعلم أين الحقيقة من كل ذلك حتى اليوم! لكن جنود أشور لم ينسحبوا حتى أعطانا «حَزَقِيَّا» الجزية من جديد.

تابعت زوجته حديثه في صمت بينما جلس هو على مقعد وثير داخل الشرفة وهو يقول:

- ولما حاول أبناء إسرائيل في نينوى التمرد لما فعلناه بشعبهم في «يهوذا». قمعنا ثورتهم. فقُتل منهم الكثيرون. وتركهم جنود أشور صرعى على الطرقات. كي يصيروا عبرة لكل معتبر. لكن ذلك الهالك طوبيا -الذي يدعونه قديسا منذ أن جيء به مع السبايا من أبناء إسرائيل إلى أرض أشور في أيام والدي سارجون-

أخذ يكفّن القتلى ويدفنهم، وتوعد نينوى بالخراب وتوعدني بالقتل. لذلك أمرت بمصادرة أمواله، بل بقتله أيضا إذا استمر في ترديد تلك الخرافات.

اتسعت عينا «نقيا» في ذعر فأكمل سنحاريب حديثه:

- قال يومها من تبقى منهم أنها نبوءة، وتناقلتها ألسنة أبناء إسرائيل، والأدهى من ذلك قوله بأن مقتلي سيكون على يد ولدي، وأن خراب نينوى بات قريبا، بالطبع هو مطارد الآن وصامت بعد سلب أمواله. لكن أبناء يهوذا مازالوا يتذاكرونها بينهم حتى اليوم.

تحدثت زوجته بعد صمت قائلة:

- ولكن كان ذلك منذ عقدين من الزمان، فما الذي ذكرك بتلك الواقعة الآن؟

تنهد سنحاريب في ضيق قائلا:

- الكابوس!

أجابته في حذر:

- وماذا رأيت في هذا الكابوس؟

أشاح بوجهه عنها، وطال صمته قبل أن يجيبها قائلا في كآبة:

- رأيت نينوى وقد استحالت أطلالا، ورأيتني أسقط من فوق الركام إلى الهاوية، الرب «نسروخ» يقف فوق الأطلال يرمقني في صمت، وقد اكتست نظراته بالقسوة غير عابئ بما جرى، سقطتُ وقد خارت قواي بعد سقوطي، فزحفت من الهاوية أتسلق أحد الأطلال وأنا أنازع الموت، وسالت دمائي غير قادر على النطق وزاغ بصري، لكني شارفت على الصعود إلى قمة التل، كان أحد أبنائي يقف بالأعلى فمددت إليه يدي، لكنه بدلا من أن يأخذ بيدي ألقاني إلى الهاوية وأنا أنظر إليه، فوجدته كهيئة إله بابل.. مردوخ!

صمت سنحاريب ناظرا إلى زوجته قبل أن يستكمل حديثه قائلا:

- كان هذا قبل أن أقوم من نومي فزعا، وقد انقطع هذا الكابوس منذ

سنوات طويلة، لكنه عاودني هذه الأيام من جديد.

تعلقت عينا «نقيا» بوجه زوجها في جمود وهي تقول مشدوهة:

- ومن هو ابنك الذي ألقاك إلى الهاوية في الحلم؟

أجابها في حيرة:

- لست أدري من هو، في كل مرة تتشوش الرؤية عند هذا الجزء من الحلم، فلا أرى ملامحه بوضوح.

شاركته حيرته وهي تقول:

- لكن ابننا أسرحدّون من أخلص أبنائك، وهو يخدم المملكة منذ...

قاطعها سنحاريب في ضيق وهو يقوم من فوق مقعده:

- لا تتحدثي عن ابنك أسرحدّون ولا عن إخوته من باقي زوجاتي، فكلهم أبنائي ولا فارق بينهم عندي، بل إنني لو أطلقت العنان لشكوكي لاتهمته أكثر من غيره، لأنه صاحب المصلحة الأكبر في موتي، ألم أمنحه الولاية على بابل مؤثرا إياه على باقي إخوته؟ ألم تلحي عليّ كثيرا حتى أجعله وريثا للعرش من بعدي؟ وقد فعلت ذلك لإرضائك رغم أنه ليس أكبر أبنائي الذكور؟ ولو قصدت الحق في ذلك لما اتهمت غيره، فموتي الآن يعني جلوسه على عرش مملكة أشور فورا. ورغم ذلك فإني لا أتهمه ولن يتطرق إليه الشك، لأنني ببساطة لا أصدق حرفا مما قاله هذا المخرف «طوبيا»، ولا أسمح للكوابيس أن تتسلل إلى مشاعري ولا أن تحوّل قلبي.

قالها وهو يهم بالانصراف، كمحاولة للخروج من حالة الضيق التي سيطرت عليه، فسألته زوجته:

- إلى أين؟

توارى ضيقه بسرعة، والتفت إليها قائلا بابتسامة ذات مغزى:

- أود أن آخذ جولة في خزانة الأموال والغنائم، مر وقت طويل منذ آخر مرة عاينتها، ولا بد أن تلك الزيارة ستؤدي إلى حصولك على هدية خاصة.

استعادت «نقيا» مرحها من جديد وهي تقول مبتسمة:

- إن كان الأمر هكذا فلا بأس! سأنتظر ما ستسفر عنه تلك الزيارة.

انصرف سنحاريب إلى قاعة العرش، وهو يفكر في خزانة غنائمه وكنوزه الثمينة، التي غنمها في ربع قرن من الغزوات، خزانته المحصنة التي تحتوي على كل صنوف غنائم الحرب والهدايا القيمة التي أهديت له عبر سنوات متعاقبة. لم يدر لماذا خطرله في هذا اليوم بالتحديد أن يستعرض تلك الغنائم، ويعاين ما يمتلكه من كنوز ومقتنيات نفيسة.

وعلى الفور استدعى قائد البلاط وأمره أن يعد له طاقم الحرس الذي سيصحبه إلى خزانة مقتنياته.

-١١-

غَنيمَة حَرْب!

«أُخِذَتْ بَابِلُ، خَزِيَ بِيلُ، انْسَحَقَ مردوخ، خَزِيَتْ أَوْثَانُهَا، انْسَحَقَتْ أَصْنَامُهَا».

سفر إرميا ٥٠ :٢

***

دارت عينا سنحاريب في أرجاء خزانته المكتظة بذخائر الأموال والكنوز الرائعة. امتلأت الخزانة حتى سقفها بالعديد من أثمن الأموال والتحف والأحجار الكريمة، فضلا عن أفخر أنواع الثياب الحريرية المطرزة، وأخرى مطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة، ألوان من المقتنيات الفنية النادرة التي دأبت على صناعتها أياد ماهرة في شتى الممالك.

تفاجأ سنحاريب بما رأى، فلم يكن مدركًا بأن غنائمه بهذه الوفرة، بعض الأكوام ناهزت السقف من كثرتها وتنوعها، أخذ يعاين كل ما صادفه داخل الخزانة، واستمر في ذلك وقتا طويلا، لم يشعر بمضيه من طرافة وروعة ما كان يشاهده حتى عثر عليه..

صندوق خشبي صغير مصنوع من نوع عتيق من الخشب، بدا له من هيئته أنه قد صنع منذ عصور طويلة، وتذكر «سنحاريب» الصندوق على الفور حين سلمه له أحد قادته أثناء حملته الأخيرة على بابل، ذلك اليوم.. حين أصيب ما

تبقى من جدران بيت مردوخ إصابات بالغة. وتهدم جزء كبير منها. يومها عثر ذلك الرجل على الصندوق مخفيا داخل الجدار.

إذن هذا الصندوق من بابل! بابل التي نالت الحظ الأوفر من التخريب والدمار وعدد القتلى على يديه. لأشد ما كان يكره البابليين وما حولهم. كانوا دائمو التمرد على حكم آشور لأرض النهرين. لذلك قاد حملاته المتكررة لإخماد ثوراتها.

الآن يتذكر كل ما فعله ببابل في ذلك اليوم قبل عامين. يوم الغزو الأخير. كان يومًا حافلًا بالأحداث. يومها رأى ما لم يره من قبل. انكشفت له أماكن خفية كانت مخبأة خلف الجدران. حصل على كنوز وفيرة لم يكن يحلم بالحصول عليها. ولا يزال منذ ذلك الحين محتفظا بها في تلك الخزانة لم تمسها أنامله. لم يملك الوقت الكافي ليفعل.

تذكر كيف أفرط في القتل وأعمل فيهم السيف حتى يخضعهم لسلطانه. وتذكر أيضا كيف سالت الدماء أنهارا في بابل وكيف دمر مبانيها وأسوارها وجعل أبنيتها ركاما. حتى جاءت المرة الأخيرة التي نال فيها ما لم ينله في المرات السابقة. لم يقتصر هجومه على مقرات الحكم وأماكن تمركز الجيش. لكنه هاجم أيضا كل المعابد والأديرة والهياكل البرجية لآلهة بابل الشهيرة. فهي مصدر ثورتهم. حتى بيت مردوخ لم يسلم منه ولم يفلت من قبضته. فهدم ما بقي منه رغم كل ما طاله من تدمير بأيدي من سبقوه.

وفي هذه المرة بالذات غنم من بابل ما لم يغنمه قبل ذلك. بل فعل ما لم يجرؤ أحد من الحكام السابقين على فعله. وهذا الفعل كان بمثابة أكبر الجرائم عند البابليين. فرغم كل ما اعتادوه من الملوك المتعاقبين. ورغم كل ما نالته بابل من قتل وتدمير وغزوات وحروب. ومهما اعتبروه قدر البلاد المحتوم. لكنهم لم يعتادوا أبدا على ما فعله «سنحاريب» الذي فاق كل حد في نظرهم. حين دمر البقية الباقية من بيت مردوخ. بعدما تعاقبت عليه أيادي الهدم والتخريب

قبل عصره.

أدرك سنحاريب حينها أن عليه القضاء على مردوخ. قرر الانتقام من بابل في شخص إلهها الأكبر، ورمزها الأعلى وعلامتها المميزة، ليقهر أهلها ويحط من شأن دينهم. فأمر جيشه يومها بتحطيم تماثيل مردوخ أينما وجدها في كل مدينة دخلها. وعطل أعياد «أكيتو»، وحرّم الاحتفال بمردوخ ملكا للآلهة. وحتى بعد أن أعاد الاحتفال بأعياد رأس السنة، استبعد منها مردوخ كأنه تلاشى من الوجود. وقبل أن يغادر بابل، ترك لهم ابنه «آسرحدّون» واليا عليها، فهو أشبههم به وأنجبهم وأذكاهم، وابن زوجته الأثيرة «نقيا».

شعر برهبة عندما جال بخاطره ما فعله ببابل. لقد أهان رب أربابهم، مردوخ العنيد الذي تسبب في كل الصراعات، وسالت الدماء من أجل تقديسه في سائر أرض النهرين. أيُعقل أن ينتقم منه مردوخ من أجل ما فعله بمقدساته؟

الآن عاود مردوخ ظهوره في مناماته يقذفه من حالق. أمن الممكن أن يتحقق انتقامه كما رآه في الحلم؟ أيمكن أن تتحقق نبوءة «طوبيا» المزعومة التي يتهامس بها السبايا من أبناء إسرائيل ليل نهار؟ أم أن الانتقام سيأتي من رب بابل بدلا من رب يهوذا ؟

أيعقل أن تتلاقى إرادة رب يهوذا مع إرادة مردوخ؟

كلا.. مزاعم البابليين والإسرائيليين لا يمكن لها أن تتحقق، ما هي إلا أوهام صاغتها عقولهم السقيمة تهدد أعداءهم بالويل والثبور، وتبث فيهم الرهبة من أجل حفظ ماء الوجه لآلهتهم الزائفة.

عاود النظر إلى الصندوق وأصابه التردد، هل يمسه وهو الذي أتى من بيت مردوخ نفسه؟ ولم لا؟

ربما يحمل الصندوق سرا من أسرار بابل العتيقة، ربما وجد ما يعزيه ويثبت فؤاده، ويبعد عنه هذه الوساوس التي عصفت بقلبه كما تعصف الريح بسفن البحر.

وفي لحظة واحدة انصرف اهتمام «سنحاريب» عن كنوزه وغنائمه الثمينة، وانتبه للصندوق الغريب. تذكر فجأة كيف انتوى وهو عائد من غزوه أن يفحصه حين عودته إلى «نينوى»، لكنه نسيه تماما. الآن تبدو الفرصة سانحة لفحصه ومعرفة ما يحويه، وفورا حاول «سنحاريب» فتحه. لكنه كان مزودا برتاج قديم من المعدن يوصده بإحكام. عبثًا حاول فتحه دون جدوى، وسرعان ما اتضح له أنه عالق بفعل العقود الطويلة التي قضاها مخفيا عن الأنظار. هز الصندوق بقوة ليسمع صوت اصطدام شيء معدني بداخله فتأكد أنه ليس خاويا. تنامى شعوره بأن شيئا ثمينا وعتيقا بداخله. سريعا اشتعل حماسه. اصطحب معه الصندوق، توجه به من فوره لحجرته الخاصة، واستل خنجرا ليفتح به الرتاج. بعد محاولات متتالية تحطم الرتاج العتيق، وانفصل عن حافتيه، وفتح «سنحاريب» الصندوق..

وكانت هناك..

قلادة مردوخ.. مستقرة بداخله. كانت كما هي منذ وضعها حمورابي قبل ألف عام..

ظل «سنحاريب» متجمدا للحظات، يتأمل القلادة اللامعة المستقرة بداخل الصندوق العتيق، امتدت يده تلتقط القلادة بهدوء، جلس يتأملها بتمعن، لم يشعر بمرور الوقت من حوله وهو يطالع كل تفصيلاتها بلا ملل، لم يدر لماذا انتابه شعور قوي بأن هذه القلادة غير تقليدية، بل ليست من صناعات البشر المألوفة، سرت في جسده رعدة عندما جال بذهنه هذا الخاطر الغريب.

رآها رائعة ولا تشبه أي شيء رآه من قبل، لكن مهلا.. أخذ يحدث نفسه بشعوره أن مشهدها مألوف لديه، واتسعت عيناه مذهولا حين تذكر.. أجل.. هذه القلادة رآها على صدر مردوخ، كانت هناك في كل صوره التي تجسدت على جدران بابل وفي أروقة المعابد! ما أعظمه من فخر، وياله من شعور هائل بالانتصار، أن يغنم قلادة مردوخ، رب أرباب بابل وإلهها الأكبر!

امتلأ بالزهو من جديد. وشعر في نفسه أنه حصل على ما كان يبغيه من انتصار على مردوخ. ليعوضه عن كل ما يعتمل في نفسه من قلق ورهبة تجاهه. وانتابته رغبة قوية في أن يكلل انتصاره بوضع القلادة على صدره و...

- ما هذا؟!

انتزعه السؤال من أفكاره. فانتفض جسده بقوة. والتفت ينظر إلى صاحبة العبارة والدهشة ما زالت تكسو ملامحه. فأجاب في تحفظ:

- إنها قلادة غنمتها منذ عامين يا زوجتي العزيزة.

اقتربت «نقيا» وعيناها معلقتان بالقلادة وهي تقول في شغف بالغ:

- يالها من قلادة! من أين غنمتها يا ترى؟ إنها لا تشبه أي شيء عرفناه من قبل!

أشار «سنحاريب» إلى الصندوق الملقى جانبا وهو يقول:

- لقد كانت في خزانتي منذ عامين بداخل هذا الصندوق العتيق. عثر عليه الجنود بجدار معبد مردوخ في بابل. لا بد أنها كانت تخص أحد كهنة المعبد منذ وقت طويل.

بدا الانبهار على وجه زوجته. مدت يدها نحو القلادة قائلة في لهفة:

- هل لي أن أستعيرها لفترة يا زوجي الحبيب؟

بدت أمارات الضيق على وجه «سنحاريب» وهو يبعد القلادة عن يدها قائلا بحزم:

- ليس قبل أن أجربها أولا. لقد قررت أن أظهر بها أمام بعض الوفود التي سوف تصل غدا لتقديم الجزية لمملكة آشور. يجب أن أبهرهم بعظمتي وسلطاني.

أجابته بلهجة مستنكرة:

- ألم تعدني بهدية ثمينة من الخزانة؟

قال بوجهه العابس وبنفس اللهجة التي يكسوها الضيق:

- اخترت لك بالفعل هدية مميزة وسأتيكي بها غدا من الخزانة.

انتقل الضيق إلى وجه زوجته وهي تختلس النظر إلى القلادة في حسرة واضحة، قبل أن تستدير منصرفة من أمام «سنحاريب» قائلة:

- سوف أنتظر دوري بعدما تنتهي من استقبال الوفود.

تابعها سنحاريب بنظراته حتى خرجت من الحجرة، ثم لمعت عيناه وهو يتمتم بصوت خفيض متأملا القلادة في شغف:

- لا أظن أن دورك سيأتي يا زوجتي العزيزة، فهي لن تُخلع من عنقي إلا بعد أن تنتهي حياتي.

قالها وهو يرتدي القلادة ويضعها على صدره متابعا:

- وحتى يأتي ذلك اليوم فلن أسمح لغيري بالاقتراب منها أو بالمساس بها.

ثم ابتسم في جزل أكبر وهو يقول:

- فهذه القلادة تخصني وحدي، ولن تنتزع من عنقي إلا وأنا رجلٌ ميت.

-١٢-

تآمر الأبناء

- ما تقوله جنون يا «أدرملك». أنت لا تدرك حقا ما تقول.

هتف «شرأصر» ابن «سنحاريب» بتلك العبارة في توتر بالغ، وراح يتحرك يمنة ويسرة في عصبية أمام أخيه «أدرملك». في حين ظل الأخير متكئًا على إحدى الأرائك الفاخرة داخل جناحه بالقصر الملكي، وتابعه ببصره وهو يجيبه ببرود:

- ما يحدث الآن هو الجنون بعينه يا «شرأصر». نحن الاثنين لا أمل لنا في الحكم أبدا ما دام أبونا على قيد الحياة. وحتى بمجرد موته. فكلانا يعرف جيدا من الذي سيخلفه على العرش. إنه أخونا «آسرحدّون» طبقا لوصية أبيك.

أشاح «شرأصر» بوجهه بعيدا عن أخيه فتابع أدرملك بنفس البرود:

- صدقني.. الحل الوحيد هو أن ننهي حياته بأيدينا. ونعلن فورا أحدنا ملكا لإمبراطورية بابل وأشور وأرض النهرين. ويكون الثاني خليفته على العرش من بعده. هذا هو الحل الوحيد. وبالنسبة لي فإني متنازل لك عن العرش وسأكتفي بولاية العهد.

أجابه «شرأصر» بتوتر:

- وماذا لو عاد «آسرحدّون» من بابل وأزاحنا بالقوة؟

ارتسمت ابتسامة شريرة على وجه أدرملك قائلا بدهاء:

- ومن قال أنه سيعود؟

عقد «شرأصر» حاجبيه وهو يتساءل بدهشة:

- ماذا تعني؟

اتسعت ابتسامة «أدرملك» قائلا:

- سيلقى نفس المصير بالطبع.

سأله «شرأصر» في حذر:

- كيف؟

أجابه «أدرملك» في خُبْث:

- سيُجهز أبناء بابل عليه غدا أثناء رحلة الصيد. وسيعلم الجميع أنه كان مجرد حادث مات فيه حاكم بابل وولي عهد المملكة.

اتسعت عينا «شرأصر» وهو يقول في ذعر:

- نقتل أخانا؟!

انفجر «أدرملك» ضاحكا وقال بسخرية:

- سنفعل ما هو أفدح أيها الساذج. سنقتل أباه أولا.

ارتفع حاجبا «شرأصر» في ذهول وهو يحاول استيعاب هذا المنطق ثم قال في استنكار:

- ولكن لماذا نفعل كل هذا، هل يستدعي الأمر أن نقتل أبانا وأخانا؟ ألا ترى أنها أقبح جرائم يمكن أن تُرتكب في هذا العالم؟

اعتدل «أدرملك» في جلسته ثم قام مقتربا من آخيه وهو يقول بدهاء:

- ولو لم نفعل ذلك لارتُكب في حقنا جرائم أقبح من ذلك بكثير.

ثم اقترب أكثر من أذن أخيه وهو يقول بصوت أقرب لفحيح الأفاعي:

- إذا لم نفعل ذلك لن يكون أحدنا ملكا في يوم من الأيام. وفي أول فرصة بعد خلافته على العرش، سيقضي علينا «آسرحدون» بأية حجة إذا ما عارضناه يوما ما، أو سيضحي بنا والدنا «سنحاريب» إذا ما بقي على قيد الحياة.

عقد «شرأصر» حاجبيه وقد بدأ يقتنع بمنطق أخيه على مضض، في حين تابع «أدرملك» بنفس الأسلوب الخبيث:

- إذا لم ننقذ أنفسنا من هذا المصير فلا مكان لنا في أشور ولا في أرض النهرين

كلها.

خطا «شرآصر» في بطء في أرجاء المكان ثم استدار وواجه أخاه وهو يقول في توتر:

- وماذا سنفعل بالتحديد؟

تحجرت عينا «أدرملك» واكتست نظراته بلمحة شيطانية وهو يقول بصوت مخيف:

- سنسير على الخطة بمنتهى الدقة. سيُقتل «أسرحدون» في رحلة الصيد وسيأتيني الخبر خلال أيام.

ثم توحشت نظراته أكثر، وتراقصت في عينيه نيران الحقد والكراهية، ومشاعر أخرى شيطانية، حتى خيل لأخيه أن الشرر سوف يتطاير من عينيه وهو يضيف:

- أما أبونا «سنحاريب» فلسوف نتولى أمره بأنفسنا.

-١٣-

مَصْرَع «سِنْحاريب»

«وَفِيمَا هُوَ سَاجِدٌ فِي بَيْتِ نِسْرُوخَ إِلهِهِ، ضَرَبَهُ أَدْرَمَّلَكُ وَشَرَاصَرُ ابْنَاهُ بِالسَّيْفِ، وَنَجَوَا إِلَى أَرْضِ أَرَارَاطَ. وَمَلَكَ آسَرْحَدُّونُ ابْنُهُ عِوَضًا عَنْهُ».

سفر الملوك الثاني ١٩: ٣٧

***

اصطف عدد من الجنود أمام الهيكل الكبير الذي كرسه ملوك آشور لمعبودهم «نسروخ» في مدينة نينوى، بينما احتشد الكهنة برتبهم المختلفة داخل المعبد نفسه بصحبة الملك. كان «سنحاريب» مستغرقا في أداء الصلوات وممارسة طقوس عبادة «نسروخ» وآلهة أشور منذ الصباح الباكر.

وخارج المعبد اقترب «أدرملك» و«شرآصر» ابنا «سنحاريب» من الحراس المتواجدين أمام المعبد، وتوجها نحو البوابة بخطوات مباشرة بصحبة حراسهم، حتى اعترضهم قائد الحرس قائلا:

- إلى أين يذهب السيدان المبجلان؟

ظهر التوتر جليا على وجه «شرآصر»، بينما حدجه «أدرملك» بنظرة متعالية وهو يقول:

- سندخل إلى الهيكل لتحية والدنا وتمجيد الأرباب، هل لديك مانع؟

قال القائد وهو ينظر نحو سيفيهما المتدليين في غمديهما:

- إطلاقا يا سيدي، ولكن أرجو من سموكما أن تتركا سلاحكما هنا قبل الدخول، فالتعليمات.....

قاطعه أدرملك في صرامة قائلا:

- هذه التعليمات تسري على الجميع فيما سوانا أيها القائد، نحن الأمراء أبناء الملك، وأولياء العهد من بعده، ألا تفهم؟ لن نتخلى عن أسلحتنا حتى ولو داخل المعبد.

تعلق نظر قائد الحرس بوجهه للحظات في ضيق واضح، وتجمد في مكانه قليلا قبل أن يتنحى جانبا في تردد وهو يقول في استسلام:

- كما تأمر أيها السيد، لكني أخلي مسؤوليتي من الآن إذا ما اعترض كبير الكهنة على ذلك.

أجابه أدرملك وهو يسير أمام أخيه نحو بوابة المعبد مباشرة في تعالٍ:

- لا شأن لك بذلك أيها القائد، أنا مسؤول عما أفعل.

أسرع هو وأخوه بالدخول إلى المعبد، تابعهما القائد ببصره وهو يقول قلقا بخفوت:

- لا أدري لماذا أشعر أن هذه الزيارة ليست طبيعية أبدا.

فور إتمامه عبارته، فوجئ الرجل بجموع كبيرة من المسلحين تحيط بفرقته من كل جانب، أجبروهم على إلقاء أسلحتهم، واقتادوهم بعيدا عن المعبد.

وبداخل المعبد، كان «سنحاريب» جاثيا على ركبتيه أمام تمثال «نسروخ» في خشوع، وبعض الكهنة يتلون التراتيم، بينما انصرف أغلب الكهنة إلى أماكن اعتكافهم بعد فراغ الطقوس.

ظل سنحاريب عاكفا يتعبد لـ«نسروخ»، داخل الصرح الكبير الذي بناه لعبادته وإعلائه فوق الآلهة الأخرى، نسروخ الذي قيلت عنه الأقاويل الكثيرة حين ادعت أنه تجلى لـ «سنحاريب»، ووعده بأن يكون ملكا للأرض، إذا ما أعلى

عبادته في آشور وما حولها من بلادا وتهامس الكثير من الناس -خاصة البابليين- أن «نسروخ» ما هو إلا صورة أخرى من مردوخ وأحد تجسداته، ولا فارق بينهما إلا في رأس تمثال «نسروخ»، الذي تصوره أيادي المثّالين برأس النسر فوق جسد بشري، لكن سنحاريب كان دائما ما يهزأ بتلك الأقاويل.

انهمك سنحاريب في أداء صلواته الختامية، حينما فوجئ بولديه ينضمان إليه، وقد تظاهرا بتحية الإله في محراب عبادته، تعجب في نفسه من وجودهما المفاجئ، فهما أكثر الناس عزوفا عن العبادة منذ وقت طويل خاصة «أدرملك».

ولم تطل دهشة «سنحاريب» واهتز كيانه بموجة أعظم من الدهشة، حين وجد أدرملك يستل سيفه بغتة وهو ينظر إلى أخيه «شرآصر»، الذي تابعه في فعله بعد تردد واضح، سريعا انتقل إلى مرحلة الصدمة، حين أجهز عليه ولده «أدرملك» بسيفه وعاجله بضربة غادرة، وهو مازال جاثيا على ركبتيه أمام تمثال «نسروخ»، الذي كان شاخصا يطل على الموقف في صمت أخرس، تماما كما رآه في كوابيسه!

ومثلما تفجرت الدهشة في كيان «سنحاريب»، تفجرت الدماء في جسده وهو لا يزال أسيرا للصدمة، حتى أنهى ولده الثاني على وعيه بالكامل، بعدما عاجله بضربة تالية بسيفه، متابعا أخيه في فعله لما أومأ إليه هذا الأخير أن يفعل مثلما فعل.

وللحظات وجّه «سنحاريب» نظراته الزائغة إلى ولديه الجاحدين، ونصلا سيفيهما مغروسان في جسده من الجانبين، ثم زاغت نظراته سريعا أكثر وأكثر وهو يترنح متخبطا بين تماثيل نسروخ الماثلة على جانبي المحراب، قبل أن يسقط على أرض محراب المعبد كالحجر، ويتهاوى فوقه صنما نسروخ، وسط دهشة ومفاجأة مَن تبقى من الكهنة الأقل رتبة في سلك الكهنوت.

ظل «شرآصر» متجمدا، يشاهد الجسد الملقى على الأرض غارقا في دمائه، وقد انتابته حالة من الذهول والندم، بينما انحنى «أدرملك» في برود متناهٍ،

وكأنه لم يقم بقتل والده منذ لحظات قليلة. سحب سيفه من جسد أبيه الصريع، وهو يستدير إلى الكهنة من خلفه قائلا في وحشية:

- إياكم أن يتفوه أحدكم بكلمة حتى نصل إلى القصر. وإلا فمصيركم الموت العاجل.

انكمش الكهنة القليلون الذين صاروا شهودا على مقتل سنحاريب، بينما استدار «أدرملك» وانحنى مرة أخرى على جثمان «سنحاريب» السابح في دمائه تحت التمثالين الساقطين. لينتزع القلادة من صدره في غل قائلا بنفس القسوة:

- عذرا يا والدي، سنجردك من تلك القلادة الفاخرة. فلا أراك تحتاجها في العالم الآخر بكل تأكيد.

قالها بلهجة ساخرة وشيطانية. بينما كان أخوه «شرأصر» لا يزال غارقا في جموده وذهوله، حتى انتزعته صرخة هادرة من «أدرملك»، يدعوه فيها لسرعة الخروج من المعبد في اتجاه القصر. بسرعة تحرك الأخوان نحو القصر الملكي، لإعلان وفاة الملك، وتنصيب أحدهما على المملكة كخليفة لوالده.

وفي الخارج كانت تنتظرهما نفس المجموعة المسلحة التي حاصرت حراس الملك منذ قليل. فابتدره قائدهم قائلا:

- هل أنجزتما المهمة أيها السيدان؟

برقت عينا «أدرملك» في ظفر وهو يقول بلهجته الشيطانية:

- وهل لديك شك في هذا؟

ابتسم قائد المجموعة في شر واضح وهو يقول:

- إطلاقا يا جلالة الملك! إطلاقا.

انتبه «شرأصر» فجأة إلى هذا الحوار، وانتزعته كلمة قائد الحرس لأخيه. فقاطع الحوار مستنكرا:

- ما هذا يا «أدرملك»؟ ألم تقل لي يوم أن اتفقنا على كل شيء، أنك متنازل لي عن العرش؟ ما معنى هذا الحديث؟!

أجابه «أدرملك» باستخفاف:

- لا تتعجل يا أخي العزيز، ما زال أمامنا الكثير من الوقت لنتفق فيه على المزيد ونسوي كل الأمور العالقة.

أجابه «شرآصر» باستنكار أكبر:

- عالقة؟! نسوي ماذا يا «أدرملك»؟ ظننتنا قد اتفقنا على كل شيء، ألم تعدني بتنصيبي ملكا بمجرد تنفيذ تلك الخطة؟!

أشاح أدرملك وجهه في ضيق وهو يقول بلهجة يملؤها الضجر:

- اطمئن يا «شرآصر»، سيتم تنصيبك ملكا على آشور، سوف تنال ما تريده أخيرا.

صمت «شرآصر» في شك، وبلغا القصر في تلك الأثناء، وما إن دخلا إلى ساحته حتى تجمد «أدرملك» في مكانه، حين تناهى إلى سمعه صوت عجلات حربية وجنود محدثة جلبة كبيرة في الخارج، آتية من الناحية الأخرى لساحة القصر، قبل أن يصل أحد جواسيسه مهرولا وهو يهتف في فزع:

- كارثة كبرى، نحن في خطر عظيم.

تحفزت كل خلية في جسد «أدرملك» وتشنجت أوصاله كقط متحفز، أما «شرآصر» فكاد يتهاوى من الفزع وانتصب جميع رجالهم في ترقب فهتف به «أدرملك» في حدة:

- ماذا وراءك يا هذا؟

اندفع الجاسوس يهتف بأنفاس متلاحقة من أثر الهرولة:

- إنه «أسرحدّون» يا سيدي، لقد عاد إلى آشور لتوه وسط حشد كبير من الجنود.

اتسعت عينا «شرآصر» بينما عقد «أدرملك» حاجبيه، وانقبضت عضلات جسده في تشنج ودار عقله بسرعة لتقييم هذا الموقف الجديد.

لم يدروقتها السبب الحقيقي في عودة أخيه «أسرحدّون» إلى آشور في هذا

التوقيت، ولا كيف نجا من خطة اغتياله المحكمة. ولكن كل ما كان يسيطر عليه في تلك اللحظة هو كيفية الخروج من هذا المأزق، بعد أن تحطمت خطته وارتبكت حساباته بالكامل. فعودة أخيه «أسرحدون» من بابل -الآن تحديدا- تعني نهايته هو وأخيه بلا شفقة. لن يرحمهما أسرحدّون، سينتقم منهما شر انتقام لمقتل والدهم «سنحاريب» ولتآمرهما للاستيلاء على الحكم.

وفي سرعة اتخذ قراره وأمسك بذراع «شرأصر» الذي ترك له نفسه في استسلام. فاستدار به «أدرملك» على عجالة نحو البوابة التي عبرا خلالها منذ دقائق قليلة وعزم على الهروب الفوري.

في اللحظات التالية غاب الأخوان ومعهما جنودهما في الطرقات. لم يعد لهما أثر في المدينة، خرجا من أشور مجردين من كل الألقاب التي كانت تلوح لهما. ولا قطعة ذهب واحدة من ثروات المملكة. تحول مفاجئ لم يخطط له «أدرملك» سلبهما أي حقوق لهما، فضلا عن وراثة العرش التي فقداها إلى الأبد. لم يخرج الأخوان من آشور إلا بملابسهما وسيفيهما وشيء ثالث أكثر أهمية.

قلادة مردوخ.. القلادة التي كان أدرملك لا يزال محتفظا بها بعدما انتزعها من صدر والده القتيل. اتجها نحو الشمال إلى «أرمينيا»، يقصدان منطقة «أرارات» الجبلية إلى حيث يصعب على «أسرحدّون» تعقبهما هناك، حتى وإن حاول فلن يجدهما أبدا.

لم يدر «أدرملك» أن نبوءة «طوبيا» قد تحققت بموت والده «سنحاريب»، كما لم يدر أن لعنة مردوخ قد أصابته حتى لقي مصرعه. بل إنه لم يدرك أيضا أنه هو وأخاه كانا خادمين لمردوخ في تنفيذ انتقامه من والدهما. لم يدرك كذلك أنه صار يحمل معه سرًا كبيرًا من الأسرار القادرة على تغيير وجه الممالك من بعد هذا الزمان، ليستمر أثره لعصور طويلة.

-١٤-

في دَوْلة بَنِي العَبَاس

«أيتها السحابة.. في أي مكان شئتِ أمطري.. فسيحمل إليّ خراجك».

الخليفة العباسي هارون الرشيد

***

بغداد – الدولة العباسية

١٨٦ هـ | ٨٠٢م

ارتفعت الشمس حتى توسطت السماء، فوق أسوار بغداد العتيقة وأبراجها المحصنة، وغمرت أشعتها كل الموجودات، ولفحت بحرارتها وجه الجندي الموكل بالحراسة، فوق أحد الأبراج الشمالية للمدينة، لكنها لم تخفف من حدة نظراته المتحفزة، فظل مسلطا ناظريه نحو ثلاث نقاط بعيدة، أخذت تقترب على مهل، حتى أدرك الجندي بخبرته ونظره الحاد أنهم ثلاثة فرسان يمتطون جيادهم، ويقتربون من الأسوار الشمالية للمدينة، هبط بسرعة من داخل برج المراقبة، اتجه نحو إحدى النقاط المُأمّنة داخل المدينة، أسرع نحو قائد جنود المراقبة وتأمين الأسوار، رآه قائده فسأله باهتمام:

- ماذا لديك أيها الجندي؟

أجابه الجندي في سرعة وثبات:

- ثلاثة فرسان يقتربون من البوابة الشمالية أيها القائد.

سأله القائد مرة أخرى:

- ما صفتهم؟

أجابه الجندي مرة أخرى بنفس السرعة:

- يبدو من أزيائهم أنهم من الروم يا سيدي.

قال القائد أمرا:

- فلتعد إذن إلى برج المراقبة ولتعلمني بما يجري فورًا.

ثم التفت إلى مساعديه قائلا بلهجته الآمرة:

- فلتذهب سرية الحراسة المسلحة من البوابة الشمالية. ولتستعلم عن سبب حضورهم إلينا، وليصحبوهم إلى وجهتهم، حتى ينتهوا من مهمتهم داخل المدينة.

أجابه أحد المساعدين في سرعة:

- كما تأمر أيها القائد.

قالها واندفع بدوره يستدعي خمسة من الفرسان المتأهبين بجيادهم وأسلحتهم. وما لبثوا حتى أصبحوا خارج البوابة الشمالية في استقبال الفرسان الثلاثة. اقترب ثلاثتهم في هدوء رافعين راية بيضاء علامة على مهمتهم السلمية. وسرعان ما بدا تشكيلهم المكون من جنديين وفارس ثالث يختلف عنهما في زيه ومظهره. أحاط بهم فرسان بغداد وابتدرهم قائدهم قائلا:

- عرفوا أنفسكم. ماذا تريدون وما هي وجهتكم؟

أجابه الفارس الأوسط بعربية ذات لهجة غربية لكنها مفهومة:

- هذان جنديًا حراسة، وأنا رسول من ملك الروم. أحمل رسالة إلى الخليفة العباسي.

قال الفارس العربي في حزم:

- سنصحبكم إلى قصر الخليفة بعد أن تتركوا أسلحتكم عند الأبواب.

انصاع الفرسان الثلاثة للأمر على الفور. واصطحبتهم سرية الجنود العرب إلى داخل المدينة. ساروا يحيطون بفرسان الروم حتى وصلوا جميعا إلى بوابة القصر. توقف الجميع. بينما توجه الرسول إلى الداخل بصحبة فرسان القصر. وظل الباقون خارج الأسوار طبقا لخطة التأمين.

وفي داخل القصر واصل رسول الروم طريقه بصحبة حراس القصر. حتى بلغوا باب قاعة مجلس الخليفة. وبمجرد أن أذن له الحاجب بالدخول. حتى دخل إلى القاعة ليمثل أمام الخليفة العباسي هارون الرشيد. الذي كان مستقرا على عرشه بصحبة كبير الوزراء وبعض حاشيته.

أذن الخليفة للحاجب بالاستماع لرسول الروم. اقترب الرجل من الخليفة. حتى امتثل واقفا أمامه. فابتدره الخليفة قائلا:

- أهلا برسول الروم إلينا. ما وراءك؟

أبرز رسول الروم الرسالة وسلمها للحاجب الذي أشار له الخليفة بقراءتها. ففتحها الحاجب وبدأ في قراءتها بصوت مرتفع. وسط انتباه الحاشية:

«من (نكفورس) ملك الروم إلى (هارونا) ملك العرب.. أما بعد.. فإن الملكة (إيرين) التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق.. فحملت إليك من أموالها ما كنت أنت حريا أن تحمل أمثاله إليها.. وما ذلك بأمر مستغرب فما هو إلا ضعف النساء وحمقهن.. فإذا قرأت كتابي. فأردد إليَّ ما جاء إليك من الأموال وافتدِ نفسك به.. وإلا فالسيف بيننا وبينك».

هبط الصمت بعد قراءة الحاجب للرسالة. اختلس الجميع النظر إلى وجه الخليفة الذي عقد حاجبيه. وتجهم وجهه وانقبضت خلجاته في غضب واضح. انتصب من فوره واقفا في حدة تنم عن ثورة غضب وشيكة الحدوث: فانتصب الحضور من حاشيته وقوفا مثله. وتحاشى الجميع النظر إليه مما يعرفونه من شدة غضب الخليفة وقوة بطشه.

طال الصمت لفترة، لم يجرؤ أحد الحضور على أن يتفوه بكلمة، حتى خطا الخليفة من مقامه في اتجاه رسول الروم الذي اتسعت عيناه ذعرا، خوفا من أن يناله قسط من غضب الخليفة بسبب الرسالة التي حملها إليه، زاد ارتباك الرجل حين وجد الخليفة واقفا في مواجهته، عاقدا يديه خلف ظهره، والغضب العارم يكسو قسمات وجهه، تجمدت أطراف الرجل وسط التحفز والجو المشحون الذي سيطر على المكان، قطع الخليفة حاجز الصمت والترقب، قائلا بكلمات واثقة، ودون أن يرفع بصره من على وجه رسول الروم:

- أيها الحاجب!

اندفع الحاجب يلبي نداء الرشيد:

- أمرُ الخليفة.

أجابه بهدوء رغم نبرات صوته الغاضب، وهو لا يزال في مواجهة رسول الروم:

- لا حاجة لرقعة أخرى للرد على كتابهم، فهذا اللعين لا يستحق عناء التكلف برقعة جديدة، اقلب الرقعة واكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور.. كلب الروم.. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة.. والجواب ما سوف تراه دون ما تسمعه، والسلام على من اتبع الهدى».

ثم أخذ الرسالة وسلمها لرسول الروم قائلا في لهجة مخيفة:

- خذها إلى نقفور!

ابتلع رسول الروم لعابه بصعوبة، وزفر بعمق ليطلق نفسا حبيسا، ابتسم بارتياح لخروجه من هذا الموقف سالما، واستدار في سرعة وبادر بالخروج من قاعة الخليفة ليعود إلى دياره فورا.

لم يكد رسول الروم يغادر مجلس الخليفة، حتى التفت هارون الرشيد إلى وزيره وحاشيته وهو يهتف بصوت غاضب:

- جهزوا الجيش، إنها الحرب.

ثم زاد انعقاد حاجبيه قائلا بصوت كالزئير:

- لا بد أن يدفع هذا اللئيم ثمنا فادحا لتجرئه على هيبة أمتنا..

قالها ثم جلس ببطء وهو يضغط على كلماته، قائلا بلهجة تسربت معها الشفقة إلى نفوس الحاضرين على ملك الروم:

- أقسم بعزة الله وقدرته أنه سيدفع الثمن فادحا.

-١٥-

الهَديَّة

عامان مرا على تحدي نقفور للخليفة العباسي. وخلالهما حدث الكثير. خرج هارون الرشيد بنفسه على رأس جيشه. تخطى منابت الزيتون. حتى فتح هرقلة وطوانة بسورية. وتابعهما بمواقع أخرى. حتى نال من جيش الروم البيزنطيين. ألحق بهم الهزائم المتتالية. خسر الروم خلالها أربعين ألف مقاتل.

هبط الرشيد من فوق فرسه. يتأمل ساحة المعركة بعد انقضائها. تصارعت بداخله المشاعر. لم يكن يود أن تضطره الظروف لكل هذا القتل والدماء. آلاف الجنود سالت دماؤهم وتفرقت أشلاؤهم. انتثرت أجسادهم كأعجاز النخل. لكم كان يكره كل هذا. لكنه كان حريصا على عزة دولته أكثر من حرصه على الحياة نفسها.

- هذا اللعين «نقفور» هو من يتحمل وزرهم. ماذا دهاه إذ استسلم بعد انهزامه أن يعاود التمرد من جديد؟

جال بخاطره كيف تظاهر «نقفور» بالاستسلام. قبل أن ينقض العهد ويمتنع عن دفع الجزية من جديد. واليوم يهادنه مرة أخرى. ويحاول استرضاءه بكل الطرق. بعد أن ذاق مرارة الهزيمة على أيدي جيش المسلمين الجرار الصامد

حدث نفسه بألا يرضى بما كان الروم يؤدونه من أموال لدولة المسلمين. سيفرض عليهم أضعاف الجزية حتى يرضى بالهدنة والفداء. لا بأس بفرض ثلاثة أضعاف سابقتها ليذوقوا وبال أمرهم.

وكان له ما أراد. أعطى الروم الجزية عن يد وهم صاغرون كما اشترط. ورضخ له ملك الروم البيزنطيين. بعد أن جُرح وهُزم في المعركة شر هزيمة.

اليوم يرسل نقفور إلى الرشيد بالكثير من الهدايا الثمينة ليسترضيه. هدايا تحوي العديد من المجوهرات والحلي الذهبية. فضلا عن الحرير والتحف القيمة.

لكن وسط كل ذلك. كان هناك صندوق مميز. بدا له حديث الصنع من العاج المرصع بالأحجار الكريمة. رآه الرشيد لكنه لم يلتفت إليه ولا إلى غيره من الهدايا زاهدا فيها. سيدفع بها جميعا لبيت مال المسلمين.

لكن.. من قال إن خليفة المسلمين لا يتملك منه الفضول كسائر البشر؟ لذلك قبل أن تنتقل الهدايا للخزانة. أراد أن يلقي نظرة على ما بداخله.

قلّب الرشيد الصندوق العاجي بين يديه فوقعت عينه على رتاجه الصغير. وامتدت يده إليه تلقائيا ليرى ما بداخله. فتحه بترقب ليرى ما هو محفوظ بالداخل ووقع نظره عليها.

القلادة! عادت قلادة مردوخ من جديد إلى أرض الرافدين. بعد أن قطعت رحلة طويلة في الزمان والمكان، لتستقر في يد هارون الرشيد الخليفة العباسي. توارت عن الأنظار لخمسة عشر قرنا مضت منذ موت «سنحاريب» آخر ضحاياها. بعد أن هرب بها ابناه القاتلان إلى جبال أرمينيا الواقعة في شمال بلاد الرافدين.

فتش عنهما أخوهما «أسرحدّون» طويلا بغية الانتقام لمقتل والده. غزا أرمينيا وتوغل حتى القوقاز شرقا، وصل إلى البحر المتوسط غربا دون أن يعثر عليهما. لكنه في ثنايا رغبته في الانتقام منهما كان يبحث عن شيء آخر. كان يبحث عنها.. قلادة مردوخ التي لم يكن يعلم عن تاريخها شيئا. ولم يكن ليسمع عنها لولا أن تكرر ذكرها في شهادة كهنة «نسروخ». قصوا عليه عشرات المرات واقعة مقتل والده سنحاريب بأيدي ابنيه. أيقن وقتها أن وراء القلادة المسروقة سرا كبيرا. سعى خلفهما ليعرف السر. لكنه لم يعثر لهما ولا للقلادة على أي أثر.

وبمرور العقود نسي «أسرحدون» أمر القلادة. وانقضى عهده وهلك الأخوان. توالت القرون ليأتي الروم البيزنطيون ويجتاحوا أرمينيا. ليجدها بعضهم مخبأة بعناية في أحد المغاور دون صندوقها الخشبي -وكغيرهم- انبهروا بها وبصناعتها الفريدة. وضعوها في صندوق ثمين من العاج يليق بها. وانتقل الصندوق لخزانة ملوكهم وتوارثوه عن بعضهم البعض. حتى وصل لـ «إيرين» ملكة الروم البيزنطيين. ومنها إلى خليفتها نقفور.

لم يجد نقفور هديةً أثمن ولا أفخر منها ليهديها إلى الرشيد. فدفع بالصندوق بداخله القلادة لخليفة المسلمين ليسترضيه ويهادنه.

محتفظةً برونقها وبريقها كانت هناك. تسطع في بهائها كألمع نجوم السماء. بهية مبهرة لم يطمسها الزمن ولم تفقدها القرون الطوال بريقها الأخاذ.

طال تأمل الرشيد للقلادة. وسرى في كيانه الشعور بعراقتها وقدمها. كأن تاريخها الذاتي ينتقل منها إلى من يمسها. واستشعر ماضيها الغابر رغم جهله بما شهدته من تاريخ دموي حافل. وأدرك أنها مختلفة ولافتة لكنها محيرة كذلك.

وكما فعل من سبقوه. ظل يفكر في محاولة لإدراك هوية صناعتها الغريبة. أمعن في تأمله لتلك اللغة المجهولة المنقوشة حول حلقات القلادة. لكنه عجز في النهاية عن تفسير كل ذلك. لوهلة.. خطر له أن يرتديها في عنقه. لكنه أقلع عن الفكرة من فوره. فلا يليق به أن يرتدي مثل تلك التمائم وهو خليفة المسلمين!

وفي لحظة واحدة أعاد القلادة إلى الصندوق العاجي. وسرعان ما تبدلت فكرة ارتداء القلادة بفكرة أخرى أكثر ملاءمة. سيهدي القلادة لزوجته العزيزة زبيدة. سوف تليق بها القلادة أكثر منه بكل تأكيد. وعلى الفور وضع الفكرة موضع التنفيذ. حملها داخل صندوقها العاجي واتجه صوب حجرة زوجته. كانت تجلس وحيدة تطالع بعض الكتب حين ألقى عليها زوجها السلام. رفعت عينيها فبادرها مبتسما. وهو يرفع الصندوق أمام ناظريها قائلا في جذل:

- جئت بهدية متواضعة لسيدة نساء العصر.

ابتسمت زبيدة في سعادة قائلة:

- خليفة المسلمين بنفسه جاء ليهديني هدية، يا لي من امرأة محظوظة.

اتسعت ابتسامة الرشيد وهو يقترب من زوجته الأثيرة إلى قلبه، مقربا إليها الصندوق في رفق قائلا:

- وكيف لخليفة المسلمين أن تتاح له الفرصة، ويمتنع عن تقديم هدية متواضعة كتلك لأفضل امرأة عرفها العالم.

ظهر الخجل على وجهها، على الرغم من سنوات عمرها التي تخطت مرحلة الشباب، وهي تتناول الصندوق باهتمام وفضول قائلة:

- ترى ماذا يحتوي الصندوق؟

قالتها وهي تضع الصندوق أمامها، ثم رفعت غطاءه وامتدت يدها تلتقط القلادة من داخله في دهشة:

- إنها قلادة!

أجابها الرشيد موافقا:

- وفريدة في طرازها كذلك.

قالت وهي تتأملها بين يديها في دهشة أكبر:

- ما أجملها! بالفعل لم أرَ مثلها من قبل، من أين أتيت بها يا ترى؟

أجابها الرشيد وهو يحول بصره متأملا:

- ذلك الهالك نقفور، أرسلها وسط مجموعة من الهدايا الأخرى ليسترضيني حتى لا أقاتلهم ثانيةً، لكني تخيرتها من بين كل الحلي الأخرى لأهديها لك أنت يا ملكة حياتي، انظري إليها.. أليست رائعة؟ دعيني أراها تزين عنقك.

ابتسمت لإطرائه، لكنها عادت لتتأمل القلادة بتمعن ثم قالت مندهشة:

- وما هذه النقوش الغريبة التي تحيط بحلقات القلادة؟

التفت إليها الرشيد وهو يقول:

- طرحت على نفسي السؤال ذاته، لكني لم أصل إلى شيء، يبدو أنها إحدى اللغات القديمة التي لن نفهم فحواها أبدا!

قالها وهو يمد يديه إلى القلادة يتناولها من يد زوجته بقصد أن يضعها في عنقها، لكنه وجدها تمسك بيده في قوة قائلة:

- كلا، انتظر، لن أرتديها.

تجمدت يد الرشيد ونظر إلى زوجته متسائلا بدهشة فاستطردت قائلة:

- لن أرتدي شيئا مكتوبا عليه كلام مجهول لا أعرفه، قد تكون تعويذة سحرية أو استغاثات بالجن والشياطين، فالسحر كفر وأنت تعلم، كما أن شيئا ما في هذه القلادة يقبض القلب، ألم تشعر بهذا؟

تراجع الرشيد بعدما سمع عبارة زوجته، وتأمل القلادة للحظات ثم لم يلبث أن قال بهدوء:

- خُيِّل إلى هذا، وانقبض قلبي بالفعل، لكنه استقر مكانه سريعا، وعزوت ذلك إلى الوهم.

أجابته زبيدة بإصرار:

- أرأيت؟! كنت محقة إذن في شعوري، لذلك فلتعذرني يا أمير المؤمنين، لن أرتديها إذن، ربما تكون مسحورة، من يدري، فلعل ذلك الملك يعلم شأنها فأرسلها إليك لينال منك!

تفكر الرشيد للحظات، ثم قال موافقا:

- معك الحق يا عزيزتي، وعلى أي حال هي لك، افعلي بها ما تشائين.

تأمل القلادة الفاتنة مرة أخرى، تفرَّس في الكتابات الغريبة بين جواهرها وإطاراتها الخارجية، ثم أعادها إلى صندوقها العاجي وسلمه لزوجته، تناولته زبيدة شاردة، وهي تفكر فيمَ يمكن أن تفعله بالقلادة الغامضة..

-١٦-

فِتْنَة الأخَوين

بغداد – الدولة العباسية

١٩٣هـ|٨٠٩م

فجأة عثر عليها الأمين..

قلادة مردوخ المحفوظة داخل صندوقها العاجي المُطَعّم بالأحجار الكريمة، وجدها في مقتنيات والدته زبيدة. أعجبه الصندوق الذي بدا له أنه قد صنع خصيصا لحفظ أحد المقتنيات الثمينة، ربما صنع خصيصا من أجل القلادة. أما القلادة فبدت له في غاية العجب. لم تكن تشبه أي شيء رآه محمد الأمين ابن هارون الرشيد، وهو الشاب المرفه الذي تربى على الترف ورغد العيش، وقد رأى في حياته الكثير من أفخر الأشياء وأندرها وأثمنها. وكيف لا، وهو ابن الرشيد وزبيدة!

لم يعد شيء يدهشه، فقد أصبح كل ما حوله من قبيل الأشياء العادية، صار يتطلع لرؤية وتجربة كل ما هو جديد ومثير في الحياة. حتى الخلافة أتته على طبق من ذهب، ويوم أن مات الرشيد وجد نفسه جالسا على كرسيّ خلافة بني العباس. كان أبوه قد فضله على أخيه المأمون الذي يكبره سنا. ومع الخلافة التي ورثها عن أبيه، ورث الأمين أيضا نصيبا كبيرا مما ترك الرشيد، من مقتنيات وأموال ومجوهرات وتحف، انتقلت إلى خزانته وخزانة أمه زبيدة، لكن من بين كل هذا لم يجذب انتباهه سوى هذا الصندوق العاجي الذي يحوي القلادة.

وها هو الآن يتأملها عن كَثَب. كانت رائعة. خلبت لبه وأثارت شغفه وسحرت عينيه. أدرك أنها لا تشبه أي صنعة معروفة شاهدها من قبل. لكنه أدرك أيضا أنها قديمة وعتيقة، وليست وليدة هذا العصر.

وما أدهشه -أنها رغم قدمها الظاهر عليها- مازالت تحتفظ برونقها وبهائها وكأنها صنعت للتو. لا يدري لماذا شعر برهبة كبيرة وهو يتأملها عن قرب. ولا يعرف أيضا لماذا زادت الرهبة عندما تملكه الخاطر بأن يرتديها حول عنقه ويضعها على صدره.

تصارعت المشاعر في صدره، تنازعت أهواؤه بين شعوره بغرابتها ورغبته الجامحة في امتلاكها، حتى قرر في النهاية أن يرتديها. لا بد أن كل من سيشاهدها على صدره سيعجب بها أشد الإعجاب. سيكلل الآن قمة ما كان يحلم به من ترف وسلطة، وسيؤكد عزته وسلطانه الكبير بتقلده إياها حول عنقه. الآن يشعر أنه خليفة المسلمين الذي يحكم دولة العباسيين الشاسعة.

شوشت عليه في غمرة أفكاره حقيقة أن «خراسان» «والري» ليستا تحت سلطته، إنما تحت سلطة أخيه المأمون، كما أن الجزيرة العربية وأرمينية ليستا تحت سلطانه أيضا، إنما تحت سلطة أخيهم «القاسم»، لكنه كان يقبض على أهم أجزاء الخلافة، بلاد الرافدين وبغداد عاصمة الخلافة الكبرى، لسوف يعيش كما كان يحلم دائما في ترف وسلطة وجاه. عندها.. انتابه شعور جارف بالسعادة بحصوله على هذه القلادة الرائعة -هكذا حدّث نفسه- سيرتديها الآن ليبهر الجميع بسلطانه، حتى أخوه المأمون نفسه ستتملك منه الغيرة حينما يسمع بخبرها، سيدفع أخاه -الذي يسعى لخلعه- ليصاب بالغيرة.

وبابتسامة ظافرة يملؤها الزهو وضعها على صدره.

-١٧-

فَارِس.. وفَارِس

- من أنت؟

نطق بها طاهر بن الحسين -قائد جيش المأمون- في حيرة، وطال انتظاره وهو ينظر تجاه ذلك الفارس الذي امتطى جواده، ووقف على حافة صخرية ضخمة، تقع فوق جرف سحيق هائل، بينما وجد نفسه واقفا فوق حافة مماثلة على الجانب الآخر يواجه الفارس عبرها. لم يدر ما الذي أتى به إلى هذا المكان الغريب، ولا يذكر متى انتقل إليه، ولا متى ظهر هذا الفارس المجهول، فلم يجد بُدًا من إلقاء سؤاله علّه يهتدي إلى جواب شاف.

بعد فترة من الصمت أتاه صوت الفارس عبر الفجوة بصوت مهيب:

- لن يفيدك أن تعرف من أنا، ولكن الأهم هو أن تعرف ماذا أريد.

زادت حيرة طاهر بن الحسين فلم يجد بُدا من طرح السؤال الذي أملاه عليه الفارس قائلا:

- إذن ماذا تريد يا هذا؟

لم يطل انتظاره هذه المرة، فأتاه صوت الفارس وهو يقول بنفس الصوت الجهير:

- رأس الأمين بن الرشيد.

أصيب طاهر بصدمة وعجز عن النطق فتابع الفارس:

- لا أحد غيرك سيفعلها، ستقتل محمد الأمين، وسترسل برأسه لأخيه المأمون، ثم إنك ستحتفظ بها.

أجابه طاهر ذاهلا هذه المرة:

- أحتفظ بماذا؟

جاءه جواب الفارس بسرعة:

- قلادتي.. القلادة التي في عنق الأمين هي قلادتي، وستحصل عليها بمجرد القضاء عليه، اعتبرها مكافأة لك على قتله.

تردد طاهر بن الحسين إزاء هذا الطلب الصادم فأجاب بنفس الحيرة:

- لكن كيف ولماذا أقتل الخليفة العباسي؟ لا حاجة لنا في قتله، حتى أخوه المأمون لا يسعى إلا لخلعه فقط، ثم إني لا أريد مكافآت من هذا النوع، لست قاتلا مأجورا يا هذا!!

صرخ الفارس بصوت هادر:

- خطأ.. هذا هو الخطأ بعينه، لو لم تقتله فسيجد فرصة للعودة بعد خلعه من الخلافة، ولسوف ينتقم من الجميع وأنت أولهم.

تردى طاهر في حيرته أكثر، وشعر بأنفاسه تتقطع وبصدره يضيق، واعتراه خوف شديد لم يراوده منذ وقت طويل، فأُسقط في يده ولم يملك جوابا وهو يترنح من عذاب النفس الذي راوده، فعاوده صوت الفارس قائلا:

- اعلم يا طاهر أنك لن تنجو إن لم تقتل الأمين، ستفشل في مهمتك ولن يرحمك المأمون، بل لن يرحم أبناءك وأهلك وذويك، حياتك كلها ستصير بائسة إن لم تفعل، الأمين لا ينتوي خيرا لك ولا لأخيه، ولسوف تستعر الحرب ويقتل الناس بعضهم بعضا، وسيستمر القتال عقودا بين خراسان وبغداد، أترغب في وقوع ذلك؟

لم يجبه طاهر، كان يعاني حالةً من التخبط بداخله، كانت كلمات الفارس تسقط على رأسه كصخور جبل متصدع، تصاعدت أوجاعه، فأحاط رأسه بذراعيه وجثا على ركبتيه وانحنى على بعضه في ألم ظاهر، فقد اتزانه فأسند راحتيه على الأرض في تهالك، والصوت يواصل:

- ستقتل الأمين يا طاهر، لا مفر لك من ذلك، وستنتزع من صدره القلادة.

حاول طاهر المقاومة ونهض من كبوته لكنه واصل ترنحه والصوت يواصل بإلحاح:

- اقتل الأمين يا طاهر، لا بد من قتل الأمين.. اقتل الأمين.

زلزله صوت الفارس فاهتز كيانه بشدة، كاهتزاز جرس كبير قرعته مطرقة ثقيلة، ازداد ترنحه واندفع جسده نحو الهاوية بلا إرادة، حاول يائسا التشبث بأي شيء من حوله، لكن جسده سقط من فوق الحافة إلى الجرف الهائل، الذي شبت بداخله فجأة ألسنة لافحة من النيران، وتعالت حتى كادت أن تبلغ الحافة، ووجد نفسه يهبط إلى داخل النيران، وصوت ضحكات الفارس المجلجلة تطارده في سقوطه فصرخ بقوة و....

- لا!!!!!!!!!!!!!.

انتفض طاهر بشدة، ونهض من نومه ليجد نفسه جالسا على فراشه وقد تلاحقت أنفاسه بقوة وهو يردد:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. يا إلهي الرحيم ما هذه الرؤيا؟

اقتربت منه زوجته التي استيقظت فزعة على صوت صراخه الأخير وهي تقول في لوعة:

- ماذا حدث يا أبا عبد الله؟

أجابها وهو لا يزال يلهث من الانفعال:

- كابوس آخر..كابوس آخر لكنه مختلف، لا أعلم كيف تراودني تلك الرؤى المقبضة، رغم أنني قد رقدت مصليا وذاكرا لله، أستغفرك ربي وأتوب إليك.

واصل استغفاره فأجابته زوجته بثقة:

- لا بد أنه سحر يا أبا عبد الله، هناك الكثيرون ممن يحقدون عليك ويضمرون لك الضغينة، فكثيرون يتمنون أن يكونوا في مثل مكانتك لدى المأمون.

- «أجل... لابد أنه سحر، لا يمكن أن يكون إلا سحرا».

قالها طاهر في نفسه وهو يسترجع حلمه مرارا، لم يكن الحلم الوحيد، لقد رأى الكثير من الكوابيس في شهره الأخير، لكن كل حلم منهم لم يكن يشبه الاخر!

كل أحلامه في النهاية كانت تؤدي لنتيجة واحدة، هذا المجهول الذي يأتيه في أحلامه يحرضه على قتل الأمين، ويحذره من غضب المأمون.

أخذ يسترجع صراع الأخوين -الأمين والمأمون- وهاله بالفعل ذلك الغضب المشتعل في صدر المأمون، رآه يتصاعد في عينيه يوما بعد يوم تجاه الأمين، الذي أوقف الدعاء على المنابر للمأمون كولي للعهد، وأزال اسمه من على الدراهم والمراسلات، وخلعه من ولاية العهد، فاشتعل الموقف بينهما، ودون أن يشعر وجد طاهر نفسه يقول دون وعي:

- هذا الرجل شيطان!

التفتت إليه زوجته مندهشة وهي تقول باستغراب:

- من؟

تنبه طاهر من شروده وهو يقول:

- أجل.. هناك من يقف خلف كل هذا.

رمقته زوجته مستفسرة، فتابع هو وقد تملكته الفكرة التي اكتشفها لتوه:

- لم يكن الأمين ليفعل كل هذا لولا وجود من يحرضه، هذا الرجل ذاته الذي حرض الرشيد من قبل على البرامكة، حتى أعمل فيهم القتل.

قالت المرأة في تساؤل:

- هل يمكن أن...

قاطعها منفعلا:

- أجل.. لقد جرأ هارون الرشيد على قتل البرامكة وأوغر صدره عليهم، إنه شيطان هذا العصر، ويبدو أنه قد صار للأمين قرينٌ يغويه ويصده عن سواء السبيل، فبئس القرين.

تساءلت المرأة في نفسها عن هذا الذي يقف خلف الأمين، ويحرضه بهذا المكر، حتى وصلت الأمور إلى ما هي عليه، لكنها لم تحر جوابا، حين لازم زوجها صمته، فكفت عن التفكير وعادت إلى نومها تاركة إياه يسبح في لجة من الأفكار.

-١٨-

مُهِمَة مَشؤومَة

الفضل بن الربيع!

قالها طاهر بن الحسين، وهو يقف في مواجهة المأمون بن هارون الرشيد داخل قصره بخراسان، فأجابه هذا بشيء من الحدة قائلا:

وما شأنه يا ابن الحسين؟

استجمع طاهر كل ما لديه من حجة وهو يجيب المأمون قائلا:

هذا الثعلب الماكر، الذي دأب على أن يوغر صدور كل الخلفاء الذين عاصرهم على مساعديهم ووزرائهم وربما أهلهم كذلك.

قال المأمون بحدة أكبر:

ماذا تقصد يا طاهر؟ أفصح بما يجول في نفسك يا رجل.

لم يبال طاهر بحدة المأمون وهو يقول بنفس أسلوبه الخطابي:

- لو بحثنا عن كل فتنة ظاهرة كانت أو باطنة، فسنجد اسما واحدا لا يتغير، اسما واحدا تسبب في كل هذا، منذ عهد أبيك الرشيد رحمه الله وحتى اليوم، رجل برع في التحريض كبراعة الشيطان في الغواية، وها هو يقف خلف الأمين بلا انقطاع، وأجزم أنه المسؤول عن كل ما يصدر عنه من تصرفات وقرارات، خاصة تلك التي تتعلق بك يا مولاي، بل إنني أجزم أنه هو الذي أغراه بك ولا شك، ولا ينفك يحرضه ضدك ليل نهار.

قطب المأمون جبينه وتفكر في كلام طاهر بن الحسين قبل أن يقول في اقتضاب:

- ثم؟

تنهد طاهر من جديد وهو يقول بنفس الأسلوب:

- «الفضل» يخشاك يا سيدي. لذلك فهو يحرض أخاك لمعاداتك. وما كان للأمين أن يفكر في مقاتلة أخيه إلا لتأثره بما يقوله «الفضل».

تفرس المأمون في طاهر وهو يقول متسائلا:

- ولماذا يخشاني الفضل يا رجل؟

ابتسم طاهر بن الحسين وقد أدرك أن بوادر الاقتناع قد مست نفس المأمون فأجابه:

- يخشى من تمكنك من الحكم فتعزله من منصب الوزارة، وتضر بمصالحه التي استقامت له حينًا من الدهر. لذلك لا شك لدي أنه قد ألح على الأمين في عزلك من ولاية العهد وتولية ابنه موسى بدلًا منك. حتى أقدم أخوك على هذه الفعلة المستنكرة.

تفكر المأمون طويلا في كلام طاهر بن الحسين قبل أن يقول في هدوء:

- ألديك دليل على هذا أم أنه محض توقع؟

صمت طاهر برهة قبل أن يقول في ثقة:

- تستطيع أن تقول أن لدي من الشواهد ما يؤكد ذلك.

ثم قطع عبارته قبل أن يستدرك قائلا:

- بل إنها ليست الواقعة الأولى يا سيدي.

ارتسمت الجدية على وجه المأمون وهو يقول:

- وماذا لديك أيضا؟

أجاب طاهر بنفس الثقة:

- صاحب مشورة تعيين الأمين كولي للعهد -بعد أبيكم الرشيد- كان هو الفضل بن الربيع أيضا، بل إنه كان وراء كتابة كتاب بعهد الرشيد وإيداعه الكعبة المشرفة، وهناك شهود على ذلك. والآن.. فإنه صاحب الرأي الذي أملاه على الأمين، بمثولك أمامه في بغداد، حتى يظفر بك كرهينة، ويفصل بينك وبين

ضدك. لم يكن إلا الفضل بن الربيع أيضا.

عقد المأمون حاجبيه متفكرا حينما تطرق الكلام عن أبيه قبل أن يقول ببطء:

كلامك خطيرا يا طاهر، لو ثبتت صحته لأعدت النظر في كثير من الأمور التي كنت أنتويها، لكني أرى أن كل ما قلته الآن هو محض افتراضات لا تملك عليها دليلا، ولن يثنيني ذلك عن الهدف الذي أردت تحقيقه. سأنتزع الخلافة من الأمين مهما كان الثمن، وسيذعن الجميع لهذا الأمر ما دمت على قيد الحياة.

تريث طاهر في الرد قبل أن يقول بروية مماثلة:

- سيدي.. إن النفس البشرية لنزّاعة إلى السقوط في الفتنة أكثر من نزعتها للتعقل والتدبر والتراجع عن نزغات الشيطان، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بالسلطة والجاه والمُلك، حتى لو كان الصراع بين أخٍ وأخيه على مُلك زائف أو عرض من الدنيا قليل، هذه نقيصة عتيدة منذ عهد ابنيْ آدم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

احتد المأمون من جديد وهو يقول في صرامة:

- ماذا تقصد يا طاهر. احترس لكلامك! أتنعتني بالنقص في مجلسي وعلى رؤوس الأشهاد؟!

أجابه طاهر في سرعة وهدوء:

- حاشا لله أيها الأمير، ما قصدتك أنت يا ابن الأكرمين، ولكني قصدت بذلك الشيطان المريد الذي يزكي الفتنة ويشعل النيران، فخلف الستار من يغري العداوة والبغضاء في نفس الأمين ضدك، ويبث الحقد ويزيد الأمر سوءا.

هدأ المأمون قليلا، لكن كلام طاهر بن الحسين زاده إصرارا على رأيه، فوجه كلامه لوزيره الفضل بن سهل قائلا:

- ماذا ترى أيها الوزير؟

أجابه الفضل بن سهل في كلمات قليلة وسديدة:

- أرى أن تعتذر له عن الذهاب إلى بغداد لأن أمور خراسان تستدعي البقاء فيها، وبذلك تكون قد أعفيت نفسك من هذا الحرج.

حزم المأمون أمره ووجه كلامه لطاهر بن الحسين قائلا:

- اسمع يا طاهر، لا يعنيني الفضل بن الربيع ولا غيره. لقد عزمت -وأنت تعرفني جيدا حين أعتزم فعل شيء- على عزل الأمين. ولن يثنيني شيء عن ذلك إلا الموت. وليذق الفضل بن الربيع وبال أمره. فلتأت برأسه أو برأس كل من يقف أمام هذا الهدف كبيرا كان أم صغيرا.

صمت طاهر وأطرق بناظريه إلى الأرض حينما شعر بعجزه عن إثناء المأمون قبل أن يقول:

- حسنٌ، فبم تأمر؟

ظهر العزم على وجه المأمون وهو يقول:

- ستذهب أنت وهرثمة بن أعين على رأس جيش خراسان إلى بغداد، وتأتيني بخاتم الأمين وصولجانه، وتخلعه عن الخلافة بأي ثمن كان.

أجابه طاهر بن الحسين مغلوبا على أمره:

- كما تأمر أيها الأمير.

قالها وانصرف من مجلس المأمون يحمل مهمته المشؤومة لا يلوي على شيء.

-١٩-

الاسْتِحْواذ

- هذه أخطاءٌ قديمة يا هرثمة. أخطاء متتالية. أخطأ الرشيد عندما ولى الأمين ولاية العهد، بل خط ذلك في كتاب أودعه الكعبة. لكني لم أجرؤ على قول ذلك أمام المأمون.

قالها طاهر بن الحسين، وهو يجلس فوق حافة صخرة في طريق «الري» المؤدي إلى بغداد، وقد ارتدى زي الفرسان متأبطا سيفه استعدادا لملاقاة جند بغداد. فأجابه هرثمة بن أعين الجالس أمامه في هيئة مماثلة قائلا:

- ولكن. ألا توجد تسوية أخرى سوى الحرب يا طاهر؟ أخشى أننا مضطرون لقبول سقوط الكثير من الضحايا.

قال طاهر في شرود:

- أنت تعلم يا هرثمة أن الرشيد قد ولى الأمين -وهو الأصغر- مقاليد بغداد والعراق، وقلده ولاية العهد ومن ثم الخلافة، ورغم أن المأمون أحق بالخلافة من أخيه -فهو الأكبر- لكن الرشيد فضل ابن زبيدة، ابنة عمه والزوجة العباسية القرشية المحببة والأثيرة لديه. أمن العدل أن يجحف حق المأمون لأنه ابن امرأة فارسية؟ ألهذا رجحت لديه كفة الأمين على المأمون؟

صمت هرثمة ولم يقدر على الرد لعلمه بأن طاهر على حق، فاستكمل الأخير حديثه قائلا:

- أما الخطأ الثاني الذي أخطأه الرشيد فلم يكن حين جعل من المأمون واليا على خراسان والري، بل لأنه أخرجهما من سلطة الأمين وجعل لهما جيشًا مستقلًا بذاته. هذا أشبه بإصلاح الخطأ بخطأ أفدح.

قطب هرثمة جبينه وعقد حاجبيه الأشيبين وهو يقول:

- ويحك يا طاهر. لولا ما فعله الرشيد لما كنت أنت ولا أنا من قادة الجيوش!

ابتسم طاهر متهكما وهو يقول:

- كنا سنصبح قادة شاء من شاء وأبى من أبى.

ثم نظر إلى عيني هرثمة وهو يقول:

- ظن الرشيد أنه بتدوينه لهذا العهد على رقعتين من الجلد، وإيداعه إياهما الكعبة المشرفة، أن أحدهما لن يتخطى العهد. لكن ها هي أركان الفتنة قد اكتملت، وتداعت وقائعها، ولم يعد من سبيل للتراجع عما أقدم عليه الأخوان.

أجابه هرثمة في أسى:

- ما كان علينا أن نقبل بهذا. ستُسفك الدماء من أجل الخلافة، لم أكن أحب أن أكون طرفا في هذا الصراع.

أجابه طاهر وقد زاغت عيناه فجأة وتبدلت ملامحه:

- لن يكون ذنبنا يا هرثمة. تحامق الأمين وزاد في غيه وتخبطه، والفضل بن الربيع يزكي نار الفتنة، وأوامر المأمون واضحة وحتمية.

رمقه هرثمة متعجبا فواصل طاهر حديثه:

- ودعني أخبرك أن الأمر لم يعد نزاعا بين الأخوين، بقدر ما هو نزاع نشب بين وزيرين، هذا نزال مبطن بين «ابن الربيع» و«ابن سهل»، «فضل عربي» و«فضل فارسي»، وكل منهما خصم للآخر!

حملق هرثمة في وجه طاهر بن الحسين، وقد ألجمته الدهشة من كلامه الملغز، فتجاهله طاهر وهو يكمل حديثه قائلا:

- أما «علي بن عيسى بن ماهان»، فكأني أراه بعيني وهو آتٍ في جند بغداد، وكما هي عادته سيستهين بقوتنا، ولا أراه قد تجهز لنا كما ينبغي. سيتقدم نحو الري بجيش هزيل، قوامه من حثالة أهل بغداد، أكثرهم خرجوا يقاتلون بالأجر بعدما انتشر الجوع والغلاء بالمدينة، وسيلقى «ابن ماهان» منا ها هنا هزيمة

منكرة. وسيلقى مصرعه على حافة سيفي. سيبعث الأمين بالجيش تلو الآخر لكن مصيرها جميعا سيكون الهزيمة المنكرة أمامنا. وسيستنفد كل موارده ولن يستطيع تمويل المزيد من الجيوش. وعندها سنزحف إلى بغداد.

اتسعت عينا هرثمة قائلا في ذهول:

- كيف تعرف كل هذا يا رجل؟

لم يبال طاهر بدهشة هرثمة وهو يقول بنفس اللهجة:

- سأذكرك بما سيحدث حينها.

أجابه هرثمة بالدهشة ذاتها:

- وماذا سنفعل إذا أصر الأمين على عدم التنازل لأخيه؟

أجاب طاهر بجمود:

- في هذه الحالة سنضطر إلى استخدام القوة معه.

اندهش هرثمة من جمود طاهر وتساءل عن هذا التبدل المفاجئ الذي طرأ على رفيقه:

- وماذا سنفعل به إذا تشبث برأيه؟

نهض طاهر من مجلسه وبدا زيغ نظراته وجمود عينيه واضحين. وهو يقول بلهجته الغريبة:

- جنى الأمين على نفسه يا هرثمة. تمادى في عناده الأحمق وغالط في حق الجميع. سلم أذنه للفضل بن الربيع الذي عبث بعقله وطوع له معاداة أخيه

ثم توقف قليلا قبل أن يقول:

- لو قُتل الأمين فسيحمل وزر نفسه. وسيستحق الموت عن جدارة.

حدق هرثمة في وجه طاهر وأخافته نظراته المتحجرة وكلامه الغريب. وأدرك بخبرة السنين وحكمة المشيب أن هناك شيئا غير عادي ألمَّ بطاهر. فأجابه مستنكرا:

- خطأ.. خطأ كبير يا طاهر هذا الذي تقوله. المأمون لم يأمرنا بقتله!

أجابه طاهر بنفس اللهجة:

- المأمون قال: مهما كان الثمن ومهما كانت العواقب. ولو قاوم الأمين فلا توجد وسيلة أخرى سوى قتله.

أجابه هرثمة باستنكار أكبر:

- أي كلام هذا يا رجل؟ سيقتص منا المأمون لقتل أخيه ولا ريب! لماذا تناقض كلامك الذي واجهت به المأمون منذ أيام؟

سرح طاهر بناظريه في الأفق وهو يقول بنفس اللهجة وقد لمعت عيناه ببريق مخيف:

- لن يفعل المأمون شيئا كهذا. هو لا يعنيه كثيرا حياة أخيه. منذ اللحظة التي استخرج فيها الأمين كتاب العهد -الذي دوّن به الرشيد وصيته- من داخل الكعبة ومزقه إربا. بل دعني أقول منذ اللحظة التي أخطأ فيها الرشيد خطأه الفادح. فأشعل في نفس المأمون نيران الأحقاد نحو أخيه الأمين. بل سخط على تلك القسمة وعزم على عدم التسليم بها.

انتابت هرثمة نوبة من الرهبة حين أحس بأن طاهر صار كالمسحور. واعترته الدهشة البالغة من موقفه المتناقض مع موقفه السابق أمام المأمون. حين صرح بأن الفضل بن الربيع هو الذي يحرض الأمين. وما يحمله ذلك من التماس العذر له. أما طاهر نفسه. فلم ينتبه إلى حاله وقد تصاعدت بداخله الرغبة في قتل الأمين بلا سبب مقنع.

شيء ما ألمّ به وجعله مصمما على قتله منذ أن بدأ يرى أشياء غريبة في أحلامه المتكررة. بدأت بمرآه لذلك الكيان الهائل. بهيئته التي تشبه البشر. وجسده الضخم. وشعره ولحيته المجدولين. يلح عليه في قتل الأمين. ثم هذا الفارس الذي صار يراه مؤخرًا. هيئته كانت مختلفة. لكن الصوت كان واحدا! لقد سيطر عليه الكيان وأوقعه في حبائله. وصار أسيرا له ولم يعد متحكما في وعيه. بل صار هدفه الوحيد هو قتل الأمين. تنفيذا لنداء هذا الكيان.

أما هرثمة، فقد اعتزم بداخله على حماية الأمين، بعدما رأى في عين طاهر بن الحسين وفي كلامه الإصرار على قتله، منطق طاهر بن الحسين لم يفلح في إقناعه، فأسرّها في نفسه ولم يعلنها له.

هكذا استكملا رحلتهما دون المزيد من الكلمات.

-٢٠-

الخَلِيفَة المَخْلُوع

- امض يا سيدي.

قالها هرثمة بن أعين الذي وقف على حافة نهر دجلة أمام الخليفة المخلوع محمد الأمين ابن هارون الرشيد، بينما تجلت أمارات الهزيمة وخيبة الأمل على الأخير. وقد أحاط به بعض رجاله، يتجهزون لركوب سفينة صغيرة لعبور النهر إلى البر الآخر.

نطق الأمين في لهجة كسيرة تملؤها الحسرة، وهو ينظر إلى هرثمة الذي خط الشيب رأسه، وحفر الزمن على وجهه علامات الكهولة والوقار:

- أترضى بذلك يا هرثمة؟ أترى ذلك عادلا؟ أما كان يكفينا التراضي ونحن أخوة من أب واحد؟

تقدم هرثمة نحو الأمين، وتأمله بتعاطف أبوي، قبل أن يحتضنه ويقبل يده في مواساه تسبق التبجيل، ثم عاد خطوة للخلف وأجابه في حزم متناقض:

- قد كان ينبغي أن تدعو إلى ذلك قبل تفاقم الأمر أيها الأمير، وأما الآن فقد جاوز السيل الزبى، ومع ذلك فقد اجتهدت في إصلاح الأمر قدر استطاعتي، وقد كتبت بذلك لأمير المؤمنين، وأخذت لك عهدًا وثيقًا، ولست أدخر جهدًا في كل ما يعود بصلاح حالك بما يقربك من أخيك، صدقني فقد فعلت عين الحكمة، وكنت حريصا على حياتك، أكثر من حرصي على تنفيذ ما أمر به المأمون برد الخلافة إليه.

أدرك الأمين أنه لا جدوى من مناقشة الأمر وقد بذل هرثمة بالفعل كل ما يملكه، فقال منكسرا:

- فليكن، سأرحل عن بغداد تاركا خلفي كل ما أملك، وليلهمني ربي القدرة على الصبر فيما هو آت.

تابعه هرثمة في شفقة، وانتظر جنوده حتى يصعد إلى ظهر السفينة مع رجاله، راقبوها حتى ابتعدت عن الشاطئ ببطء، قبل أن تختفي في جنح الليل، تمخر عباب النهر الواسع. لكن جريانها لم يطل، حين أتى صوت أحد رجال الأمين يصيح في فزع:

- مولاي الأمير، هناك سفينة تتبعنا بإصرار.

انتبه الأمين لقول الرجل فقال رجل آخر:

- هل يمكن أن يكون هرثمة قد فعلها؟

أجابه الأمين في قلق:

- لا أصدق ذلك، هرثمة قد أعطانا الأمان وأعد العدة لخروجنا من بغداد سالمين، ولو كان يريد القضاء علينا جميعا لفعل ونحن في قبضته منذ قليل، بل هؤلاء جند طاهر بن الحسين.

لم تطل حيرة رجال الأمين حتى ارتجت السفينة الصغيرة بعنف مع صوت ارتطام قوي، تطايرت الخطاطيف من السفينة الأخرى نحو سفينتهم بقوة، فازداد ارتجاجها وفقد الرجال توازنهم مع تلك الهزات العنيفة، ظهرت نصال سيوف المهاجمين المتربصين، تلمع في الظلام من فوق متن سفينتهم، متحفزين للقفز نحو السفينة الصغيرة.

أفاق الأمين من صدمته، واقترب من الحافة الأخرى للسفينة، محاولا اختراق حجب الظلام من حوله، حتى أبصر أضواءً باهتة على مسافة قريبة تنبئه باقتراب الشاطئ، صاح في رجاله بالقفز إلى النهر، تسارع الرجال إلى المياه المظلمة، تاركين خلفهم سفينتهم التي أوشكت على الغرق، ظلوا يسبحون حول أميرهم الذي كان قد شق ثيابه واندفع إلى الماء، حتى بلغوا الشاطئ، ساروا بحذائه حتى وجدوا بيتا صغيرا من الخشب فأووا إليه جميعا وفيهم الأمين.

-٢١-

الطَّرِيد

اشتعل غضب طاهر بن الحسين، حين سمع الأخبار من رجاله العائدين من نهر دجلة، صاح في ثورة مخيفة وقد صار رجلا غير الرجل الذي يعرفونه:

- كيف أفلت منكم؟ أبعد كل هذا أيها الحمقى يفلت من بين أيديكم؟

شعر القادة والجنود بالتعجب من هذا التحول في طبعه بعد أن كان هادئا، واستنكروا هذا الإصرار على مطاردة الأمين، رغم خلعه بالفعل من منصب الخلافة. لم يكن هناك ما يمنع من مبايعة المأمون بدلا منه. لذلك رأوا أن المطاردة قد صارت غير مبررة، والإصرار عليها ضرب من المبالغة غير المحمودة.

حينئذ انتابهم جميعا شعور واحد. لقد صار طاهر كالمسحور. وأصبح هدفه الأوحد هو القضاء على الأمين، وسلبه كل ما معه.

أما طاهر فقد سيطرت عليه أحلامه التي يرى فيها أن لدى الأمين قلادة. قلادة عجيبة المظهر تحيط بعنقه، وتتدلى على صدره، رآه في منامه يلبسها. حرضه الفارس المجهول في منامه على انتزاعها منه بعد قتله. كان في بادئ الأمر يقاوم هذا التحريض، لكنه الآن أصبح لا يرى سوى القلادة بعد أن يقتل الأمين.

ظل من حوله ينظرون إليه في صمت ورهبة حتى تجرأ أحد قادته وأجابه قائلا:

- لقد فعلنا ما بوسعنا يا سيدي، ورغم كل المساعدات التي أسداها له القائد هرثمة، وتلك السفينة التي جهزها له مع رجاله، فإننا هاجمناها في النهر، وكدنا نغرقها لولا أن قفز الأمين مع رجاله وخرجوا إلى الشاطئ.

استدار طاهر لأحد رجاله قائلا:

- ماذا ترى يا ابن حميد؟

أجابه الرجل:

- أرى أنهم لن يبتعدوا كثيرا عن شاطئ النهر. نستطيع أن نأمر رجالنا فيمشطوا كل البيوت التي على حافة النهر. فيأتونا بهم جميعا. لا يمكن أن يستأثر القائد هرثمة بالفضل وحده. سيقال أنه هو من أنهى الأمر وخلع الأمين. لا بد أن نأتي بالأمين. ونقضي عليه حتى يعلم الجميع أن طاهر بن الحسين هو من حسم الأمور.

أجابه طاهر:

- بل لا نرضى أن يقول الناس أن من قتله رجل منا.

أومأ الرجل برأسه متفهما قبل أن يقول:

- إذن فليقتله رجال من الترك، حتى لا يقال أن رجال خراسان هم من فعلوها.

ثم استدار بدوره لبعض رجاله مصدرا أوامره بتعقب الأمين ومن معه.

-٢٢-

نِهَايَة الأَمِين

«ولا تسرعنَّ إلى سَفْك دَمٍ؛ فإن الدماءَ عِند الله بمقامٍ عظيم».

من وصية طاهر بن الحسين لابنه عبدالله

***

جلس الأمين على أرض البيت الخشبي البسيط الذي اختبأ بداخله مع رجاله. تعرى جزعه وابتل سرواله من مياه النهر. واعتمر قلنسوة ربطها مرتجلا فوق رأسه واضعا طيلسانه الأسود فوق كتفيه. وتدلت قلادته فوق صدره في مفارقة عجيبة وتناقض صارخ. أحاط به رجاله يجلسون بجواره يتبادلون حديثا هامسا. حين قال أحد رجال الأمين:

- كأنك كنت تعلم أن طاهرًا سيغدر. وأن هرثمة سيؤازرك أيها الأمير.

تنهد الأمين في غم وهو يقول:

- لكم أكره هذا الرجل. وما زلت أكرهه حتى رأيت في منامي كأني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء. عريض الأساس لم أر مثله في الطول والعرض. وعليّ سوادي ومنطقي وسيفي. وكان طاهر بن الحسين أسفل الحائط. فما زال يضربه حتى أسقطه. وسقطتُ وطارت قلنسوتي عن رأسي. لذلك فأنا أتطير منه وأكرهه. أما هرثمة فهو خادمنا منذ أيام والدي الرشيد رحمه الله. وهو بمنزلة الوالد مني. وأنا أشد أنسًا به وثقة إليه.

صمت الرجل متفكرا في كلام الأمين قبل أن يسأله:

- لكن، لماذا حدث كل هذا يا سيدي؟ أما كان من التعقل قبل كل ذلك أن نتحاشى ما جرى؟

خفض الأمين ناظريه نحو الأرض، مستعيدا كل ذكرياته منذ بداية توليه الخلافة العباسية، وتحسس بيده تلك القلادة التي تتدلى على صدره وصمت طويلا قبل أن يقول:

- كان الخطأ خطئي من البداية، أنا الذي أضعت الوقت، أعوام أربعة ثقيلة قضيتها بعيدا عن تدبر حالي وحال الخلافة، أعطيت أذنيّ للفضل بن الربيع، وخالفت وصية والدي الرشيد، انتزعت الرقعتين من داخل بيت الله الحرام وأحرقتهما، نقضت العهد الذي خطّه بيده، وعاديت أخي من أجل مُلك زائل، وأنا الآن أدفع ثمن ما جنته يدي.

أطلق تنهيدة حارة مسترسلا في حديثه:

- كان لديّ ثقة كبيرة أنني سأقهر المأمون، بينما كان هو مشغولًا بتدبير أمره، واستمر بكسب الأرض من تحت قدميّ يوما بعد يوم، يجمع إلى مجلسه العلماء والفقهاء ويجالسهم، حتى أجمعوا على محبته، أما أنا.. فقد ضيقت عليه حتى لم يصبح له خيار إلا القتال، بعدما أقدمت على أفعال من شأنها أن تقطع كل الطرق للمصالحة أو الحلول السلمية.

تجمعت العبرات في مقلتيه وهو يقول بصوت مختنق:

- والأدهى من ذلك أنني أمرت بوقف الدعاء له وليًا للعهد، وأعلنت البيعة لابني موسى ولقبته «بالناطق بالحق»، ونقشت اسمه على الأموال وليًا للعهد بدلا من أخي، لقد خلعته قبل أن يخلعني، فعلت ذلك بطريقة لا رجعة فيها، والآن.. زال عني ما كنت أستقوي به عليه.

سالت الدموع على وجنتيه، فاقترب منه الرجال يشدون من أزره وقد رقوا لحاله.

ها هنا يجلس الخليفة المخلوع، الذي كان ملء الأبصار قبل أسابيع في قمة زهوته وسلطانه، واليوم يجلس نصف عارٍ على أرض كوخٍ حقير، مطاردًا شريدًا وقد خرج من ماله وولده وملكه.

قال أحد الرجال مواسيا وهو يخرج جرابا من ملابسه ويقدمه للأمين:

- على الأقل ما زال خاتم الخلافة في يدك، وصولجانك وبردتك النبوية محفوظتين في هذا الجراب الذي أحطت به وسطي وأنا سابح في النهر، وهذه الـ.. الـ..

تناول الأمين الجراب القماشي وهم بقول شيء قبل أن يرتفع صوت عند باب الكوخ قائلا:

- القلادة يا رجل، القلادة العجيبة التي تراود أحلام الرجال.

تحفز الرجال العُزل ونهضوا جميعا، في نفس التوقيت الذي أحاطهم فيه رجال طاهر بن الحسين الأعاجم، فاقتادوهم جميعا إلى الخارج ولم يبقوا منهم أحدا سوى الأمين والرجل الذي يليه، فقال لهم محمد بن حميد بشماتة ظافرة:

- أحسبتم أننا سنترككم تفلتون، وأن الأمر قد انتهى عند هذا الحد؟

أجابه الأمين في لهجة المقدم على الموت:

- إن كنت قاتلنا فلا تتمهل يا هذا، لكن اعلم أن الله منتقمٌ جبار، تركت خلفي دياري وأهلي ومالي وملكي، وها أنا ذا متجرد أعزل، وقد نزع الله مني الملك وأعطاه غيري، فإن كنت قادرا عليَّ أنت ومن بعثك فاعلم أنكم ظالمون والله بيني وبينكم يوم أن نلقاه.

نظر الرجل إلى الأمين في تحدٍ، فاندفع مرافق الأمين يقول في محاولة يائسة لإنقاذ نفسه وسيده:

- اسمع يا رجل، سنفتدي أنفسنا بالمال، خذوا ما تشاؤون من مال وخلوا سبيلنا، فلا أرى في قتلنا نفعا يجدي.

أجابه ابن حميد في لهجة من حسم أمره مسبقا:

- أما أنت فلا بأس. وأما الأمين فلا نفعل حتى يقطع طاهر بن الحسين في أمره.

ثم ولى وجهه نحو رجاله قائلا:

- خذوا هذا الرجل إلى حيث يدفع لكم المال وخلّوا سبيله.

اقتاد الرجال رفيق الأمين إلى خارج المنزل. فنظر إليه الأمين وهو يردد في استسلام:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

استدار ابن حُميد وخرج من المنزل. فأغلق رجال العجم المنزل على الأمين، وانتصبوا خارج الباب. ينتظرون أوامر سيدهم طاهر بن الحسين.

أحاط الظلام بالأمين من كل صوب. وخاطب نفسه أنها سويعات قليلة ويلحق بخالقه. نعم.. قد أخطأ كثيرا. لكنه الآن تاب وأناب إلى ربه بصدق. لن يلبث هذا الظلام وأن يتبدد. ليرى النور في الآخرة. لقد سامح أخاه من كل قلبه. حتى وإن ظلمه المأمون لكنه يسامحه الآن. بل هو على يقين أن المأمون لا يرضى بقتله ولم يأمر بذلك.

هذا الرجل. طاهر بن الحسين. هو الذي يقف وراء كل هذا. لمس إصراره الغريب على ملاحقته والقضاء عليه دون مبرر. صحيح أنه رآه في أحلامه يهدم الجدار من تحت قدميه. صحيح أنه يكرهه ويكره أفعاله المقيتة. لكن هذا الكره المتبادل لم يكن يأت من واقعة بعينها. هو كره من القلب للقلب. لا بد أن الرجل قد أصابه مسٌ من الشيطان ليحمل كل هذا البغض والرغبة في القتل. الآن ينتظر الموت. ويعلم أنه آتٍ لا محالة.

لم تمض ساعة قصيرة حتى اقتحم أحد الرجال الأعاجم الحجرة. وهو يشهر سيفه في وجه الأمين الأعزل. فقال له الأمين في ثبات:

- ويحكم! أنا ابن عم رسول الله. أنا ابن هارون. أنا أخو المأمون. الله الله في دمي.

لكن قوله لم يثن الرجل عن عزمه فيما جاء من أجله. فردد الأمين:

- إنا لله وإنا إليه راجعون!

لكن الرجل كان قد سدد سيفه نحو رأس الأمين فأصابه في مقدمتها. ترنح الأمين مرددا بأنفاسه القليلة الباقية في صدره:

- إنا لله وإنا إليه راجعون!

اندفع باقي الأعاجم إلى الداخل على صوت الأمين وأجهزوا عليه. فطعنه أحدهم في خاصرته، وانهال الباقون عليه بنصال سيوفهم، حتى فصلوا رأسه عن جسده. تناول أحدهم الرأس، وأخذ العصا والبُردة النبوية من الجراب الملقى، وانتزع الخاتم من إصبع الأمين، بينما اقتلع رجل آخر القلادة من جسده المسجى وهو يبتسم ظافرا.

-٢٣-

جَاسُوس القَصْر

قصر الحاكم في مرو- إقليم خراسان

٢٠٧ هـ | ٨٢٢م

كان طاهر بن الحسين يقضي عامه الثاني في حكم خراسان، بعد أن ولّاه الخليفة المأمون عليها، تسع سنوات مضت على مقتل الأمين، قضاها طاهر في خدمة الخليفة المأمون بن هارون الرشيد.

لعنة دم الأمين ظلت تلاحق بني العباس. وبدا لطاهر بن الحسين أنها ستلاحقهم طويلا. لعنة الدم التي ستفتح سلسلةً طويلةً من الخلع والخلاف بين الخلفاء وولاة العهود. استن الأخوان بصراعهما -دون قصد- سنة سيئة. وضعا لبنتها الأولى، تدفع أمتهم ثمنها مع مرور السنين.

جلس طاهر في قصره بـ«مرو» يسترجع كل ما حدث. وقد انتابته حالة جارفة من الندم والحسرة. ماذا دهاه يومها حين صمم على قتل الأمين؟ ولماذا لم يكتف بخلعه أو سلبه خاتمه وصولجانه وعباءته؟

تساؤلات نادمة ظلت تُلقي عليه باللوم وتطارده. حتى أقضَّت مضجعه وملأت نفسه بالحسرات. سحب كثيفة من الندم، خيمت على حياته. لتمطر وابلا من تأنيب النفس وعذاب الضمير . الآن زالت عنه السكرة التي استبدت به في تلك الأيام الغابرة.

تلك الحالة التي هيمنت عليه وقتها كانت عصيةً على فهمه. لم يكن منتبها لحاله. ولا مسيطرا على أفعاله. كان مسلوب الإرادة. ما يتذكره من هذا اليوم

هو تلك الرغبة العاتية التي اجتاحته لقتل الأمين. وطوال فترة غياب رجاله لتنفيذ أوامره لم تهدأ نيرانه. حتى عادوا إليه برأس الأمين وكل متعلقاته. رأى يومها الرأس وأشياءه مستقرة عنده. لكنه لم يعبأ بشيء بقدر لهفته عليها..

قلادة مردوخ. مردوخ الذي لم يعلم شيئا عن اسمه وحقيقته. لكنه كان يعرف قلادته جيدا. تماما كما رآها في الحلم. قبل أن يحقق المراد وقتها. ويحصل عليها كما أراد الكيان المخيف. يومها شعر بالظفر لسبب لا يعرفه. وتملكته حالة من الزهو والنشوة المؤقتة. شعر معهما بأنه قد حصل على كل شيء. وأتم المهمة للمأمون الذي لم يمنعه شيء بعدها من أن يصير الخليفة.

ارتحل بعدها من بغداد إلى خراسان ليلقى المأمون. حاملا معه كل ما حصل عليه في هذه الحملة الناجحة بعد أن ترك رأس الأمين معلقًا على أكبر أبواب بغداد. أما العصا والبردة النبوية وخاتم الخلافة. فكل هذه الغنائم سلمها للمأمون. أهدى له الخلافة غنيمة باردة وهو جالس في إيوان قصره بخراسان آمنا مطمئنًا دون أن يبذل أي عناء يذكر. كان قد بعث إليه قبلها قائلا في رسالته:

- كتابي إلى أمير المؤمنين. ورأس محمد الأمين بين يدي. وأما الخاتم والعصا والبردة فهم في حوزتي. وقلادته على صدري. وجنده تحت إمرتي.. والسلام!

لكنه قرر أن يحتفظ بالقلادة لنفسه. قلادة مردوخ التي أتته في منامه. كان يشعر بأن لها دورا ما في حياته.

الكل أصبح يعلم الآن من هو طاهر بعد مرور كل تلك الأعوام. هو ذلك المقاتل الصنديد الداهية. قائد الجيوش المهيب الذي نصر المأمون في كل المعارك الضارية. المحدِّث الصدوق الذي روى الأحاديث النبوية عن التابعين في عصره. الخطيب المفوه والشاعر البليغ. المتمكن من زمام اللغة والبيان. وهو السياسي المحنك. الذي لم تتوقف حنكته السياسية عند شخصه المعروف لدى الخليفة. بل ورثها عنه أبناؤه أيضا. حتى إن ابنه عبدالله قد ولاه المأمون

ولاية الشام ثم تولى مصر.

وانتشرت وصيته -لابنه عبدالله- في كل أرجاء الخلافة العباسية من شرقها لغربها. وصية طويلة. جمع فيها طاهر كل ما يحتاجه الأمراء والرؤساء والقادة من الآداب والسياسة والديانة. حتى إن الخليفة المأمون أمر بنسخها وتعميمها على جميع ولاة الأقاليم في كل أرجاء الخلافة. فصارت مثالا يحتذى به.

كان هذا هو طاهر بن الحسين. رجل بلغت شهرته الآفاق. خاض المعارك الطاحنة وانتصر فيها ببراعة فائقة. خرج من مواقف في غاية الصعوبة والدقة بفضل شجاعته ومهارته كفارس. لذلك انتابته حالة من الرضا عما قضاه في خدمة الخليفة. لقد قضى على كل ثورة خرجت على المأمون. فوافق المأمون بعدها أن يوليه خراسان بعد إلحاح كبير.

لكنه استشعر حينها تغيرا من المأمون تجاهه. فخشي أن يكون الحنين قد ضرب أطنابه في قلب المأمون تجاه أخيه المقتول. أخاه الذي قتله طاهر دون رأفة. وعلق رأسه بجرأة فوق أكبر بوابات بغداد. يومها ظهر الأسف على وجه المأمون. لكن فرحة الظفر بالخلافة لديه كانت أكبر من أي شيء آخر.

اليوم. وبعد كل هذه السنوات -بعد أن زالت نشوة النصر- عاد المأمون يتذكر أخاه أسفا على قتله على هذا النحو. أدرك طاهر حينها أن المأمون سيلقي عليه باللوم كله. سيغرق في دوامات الندم. سيتنصل من دم أخيه. هربا من مشاعر الخطيئة ومرارة الندم. وسيُلبِسه وحده ثوب الخطيئة ويبرئ نفسه ليرضي ضميره.

أدرك طاهر ذلك وأحس به. لهذا ألح على المأمون في توليته إمارة خراسان. ليبتعد عن مقر الخلافة قدر المستطاع. أصبح لا يطيق نظرات المأمون التي امتلأت باللوم الممزوج بالحزن. لابد أن هذه المشاعر ستتحول بين لحظة وأخرى إلى سُخْط سيؤدي إلى غضب وعقاب قاس.

لذلك آثر طاهر أن يغيب عن أنظار المأمون. بعيدا هناك في خراسان. وقد تم

له ما أراد وأصبح واليا عليها، وها هو يقضي عامه الثاني في ولايتها.

قرر في هذا اليوم قرارا مصيريا. سينفصل بولاية خراسان عن حكم الدولة العباسية. لن يصبح تابعا لبغداد بعد هذا اليوم. سيفعل ذلك مهما كانت العواقب. اليوم سيلقي خطبته فوق منبر الجامع الكبير في مدينة «مرو» بخراسان. سيخالف التقاليد المعتادة، ولن يجدد ولاءه للخليفة. لن يختم خطبته بالدعاء له والثناء عليه كما يفعل سائر الولاة.

كان يعلم أن العواقب ستكون وخيمة. وقد يحرك المأمون الجيوش ليستعيد إمارة خراسان من قبضة يده. لكنه كان مستعدا بجنوده وعتاده لملاقاة جيش بغداد إذا لزم الأمر. لقد أيقن أنه لا مفر له ولا نجاة إلا بالانفصال عن دولة بني العباس. وسينفذ خطته الآن.

ووقت أن نودي لصلاة الجمعة، صعد طاهر بن الحسين إلى المنبر وألقى خطبته التي أعد لها العدة منذ وقت طويل. قطع خطبته قبل أن تكتمل مثلما خطط. دعا لإقامة الصلاة دون أن يدعو للخليفة ويثني عليه. أثارت فعلته دهشة الناس. وكثرت معها الأقاويل. زادت الهمهمات في الطرقات. انتشر الخبر في أحاديثهم الجانبية. توجسوا خيفةً أن ينشب النزاع بين طاهر والمأمون، فيصير الناس وقودا للحرب.

وما إن نزل طاهر بن الحسين من فوق المنبر، حتى انزوى أحد المصلين إلى إحدى الطرقات الجانبية المتفرعة من ساحة المسجد الكبير. ناظرا حوله في توجس. ليطرق باب أحد البيوت. تلفت حوله قلقا. انفتح الباب برفق وبدا خلفه رجل في حُلّة رسمية من لون واحد. ما إن رآه حتى تنحى للقادم جانبا. دخل الأخير إلى المنزل على عجل. أغلق الرجل الباب خلفه بنفس السرعة. فاندفع القادم قائلا في انفعال:

- أعلمت ما حدث؟

أجابه صاحب البيت في برود:

- نعم علمت. كنت أستمع إلى الخطبة في الجامع الكبير ثم وصلت للتو إلى البيت قبلك بلحظات، لكن...

قاطعه الرجل الأول بسرعة:

- لكن ماذا؟ أوامر الخليفة المأمون واضحة. في حال ظهور أي بوادر للخروج عليه. أو أي محاولة من طاهر بن الحسين للانفصال بخراسان عن الخلافة العباسية، فلا بد من قتله على الفور. هذا أمر لا فصال فيه. والآن.. وبعد أن جهر طاهر بن الحسين بخروجه على المأمون على رؤوس الأشهاد، فإنه يتوجب عليك أن تنفذ المهمة، وبأسرع وقت.

عم السكون للحظات، تطلَّع فيها صاحب الزي الرسمي إلى محدثه في جمود ظاهر، ثم ما لبث أن عقد يديه خلف ظهره وهو يتحرك في بهو منزله ببطء قبل أن يقول بنفس الهدوء:

- قتل طاهر بن الحسين أمر مفروغ منه. كنت أتحين تلك اللحظة منذ زمن طويل.

ثم التفت إلى الرجل وهو ينظر إليه بوحشية وعيناه تبرقان:

- بل إني أنتظر قتله بفارغ الصبر. وأحلم به في كل ليلة إن شئت الدقة.

ارتجف جسد الوافد من نظرات مضيفه، واعترته الدهشة لتلك الوحشية التي تطل من نظرات الرجل وهو يقول في حيرة:

- ماذا بك يا سلمان؟ تحلم به في كل ليلة! ألهذه الدرجة تسعى لقتله يا رجل؟!

ارتسمت على وجه سلمان ابتسامة شريرة زادت من رهبة الأول في حين ردد هو متشفيا:

- نعم يا رجل، أحلم بقتل طاهر بن الحسين في كل ليلة بلا استثناء، ورغم أني أعمل على خدمته داخل قصره، بل داخل مخدعه نفسه، ورغم أني أرغب في ذلك، وأكاد أن أقتله في كل مرة تراودني الرغبة، فإني أتراجع في اللحظة الأخيرة حتى تحين اللحظة المناسبة، اللحظة التي يحددها ذلك الشيء الغريب.

ثم استدار وهو يشرد بذهنه ناظرا للفراغ وتابع مسحورا:

- في كل ليلة أراه. شيء ضخم مهول. صوته أعمق مما يمكن أن يخرج من خلق إنسان. شيء لا أعرف ماهيته. لكنه رائع وكلامه -رغم رهبته- محببٌ للنفس. لا أدرى ما هو -أو من هو- لكني أسعى لهدف واحد أصبحت أحيا من أجله.

ثم عاد يواجه الرجل وعيناه تلمعان:

- أن أقتل طاهر بن الحسين.

ازدادت رجفة الرجل الأول، وتراجع بظهره نحو الباب وهو ينظر إلى سلمان في رعب قائلا:

- ألهذه الدرجة يا رجل؟ قد أتفهم استعدادك لقتله امتثالا لأمر الخليفة، لكني لا أتصور تلك الرغبة العجيبة. وتلك النبرة المخيفة التي تكسو صوتك، وهذا الـ.. الشيء الذي تتحدث عنه. لقد أخفتني يا هذا!

انطلقت ضحكة مجلجلة من حنجرة سلمان وهو يتابع قائلا بلهجته المخيفة:

- لا تخف يا رجل، فلست أنت الشخص الموعود بالقتل. إنه طاهر بن الحسين. الشيء العظيم الذي يزورني في أحلامي أمرني بقتله واستعادة القلادة.

أجابه الرجل الأول في حيرة بالغة:

- قلادة؟!

أومأ سلمان برأسه وهو يجيب:

- أجل. القلادة.. هناك قلادة بحوزة طاهر بن الحسين، يلبسها من وقت لآخر. قلادة لا نظير لها على وجه الأرض. هكذا أراها في أحلامي. يجب أن أستعيدها منه بعد أن أنهي حياته.

ابتلع الرجل الأول لعابه بصوت مسموع وقد تملك منه الخوف، فقال بكلمات مرتعشة:

- اسمع يا هذا.. لا يعنيني ما تقول، ولا يهمني أمر قلادتك الملعونة. كل ما

يعنيني هو ما جئت من أجله الآن. جئت أؤكد عليك أن تنهي مهمتك هذه الليلة دون إبطاء. لأن مهمتي هي أن أبلغك في حالة خروج طاهر بن الحسين على الخليفة المأمون. وأن أتأكد من إتمامك للمهمة عند القضاء عليه. وبعد ذلك فليذهب ما عداه إلى الجحيم.

استعاد سلمان ابتسامته العجيبة وهو يقول في جزل:

- لا تخش يا رجل. سيموت طاهر بن الحسين مسموما الليلة. وغدا صباحا سيعلم الجميع بأمر وفاته الغامضة. وسأستعيد القلادة ولابد. تستطيع أن ترسل إلى بغداد خبر وفاته من الآن إن أردت.

تطلع إليه الرجل للحظات ثم استدار مسرعا. فتح الباب وخرج على عجل. كأنما تطارده الأشباح وهو يردد في خفوت:

- لا بد أن سلمان قد فقد عقله.

ثم خرج إلى الطريق بخطوات متسارعة وهو يردد في خفوت أكبر.

- أو أنه قد استحوذ عليه الشيطان.

هَزيمَة مُقاتِل

ساعات عصيبة قضاها كلثوم بن ثابت –مسؤول بريد خراسان- بعدما استمع إلى خطبة طاهر بن الحسين، سمع بأذنيه كيف امتنع طاهر عن الدعاء للخليفة المأمون. كشاهد على خروجه عن ولايات الدولة العباسية. كان يعلم أنه سيُستهدف في الساعات القادمة -إما بالقتل أو بالسجن- حتى لا يرسل الأخبار إلى بغداد. ومن ساعتها ظل ينتظر مصيره.

كان متأكدا من أن طاهر بن الحسين ورجاله، سيقطعون الطريق على أي محاولة لتسريب الخبر إلى بغداد. هم يعلمون أنه سيؤدي واجبه مهما حدث. لذلك أيقن كلثوم أنه قد يهلك في أية لحظة.

تحضر كلثوم بمنتهى الشجاعة. كان يُقدّر أنه في موضع مسؤولية، وأنه يحمل أمانةً واجبة التنفيذ. كتب رسالته للخليفة المأمون يخبره فيه ما حدث في خطبة طاهر، وعن عزمه الظاهر بخروجه على الخليفة. جهز خطابه حتى يرسله في الصباح. تهيأ لكل الاحتمالات بما فيها الموت. اغتسل غُسل الموتى وارتدى إزارًا ورداءً كلباس الإحرام. واستعد لما قد تسفر عنه الساعات القادمة.

كانت ليلته عسيرة، لم يغمض له جفن طوال الليل حتى الصباح. لا يوجد ما هو أكثر قسوة من أن يجلس رجلٌ في انتظار مصرعه المحتوم. هكذا جرب كلثوم حال المحكوم عليه بالقتل خلال الساعات المتبقية من الليل.

في صباح اليوم التالي كان ما توقع، جاء طلحة بن طاهر بن الحسين وسط رجاله، يقفون بباب منزله. كان من الواضح أنهم جاءوا في خطب جلل،

سيقودونه إما إلى محبسه في أفضل الظروف أو إلى قبره. لكن عندما واجه طلحة وجده يسأله مباشرةً:

- قد كتبت بما كان يا كلثوم؟

أجابه كلثوم بثبات وشجاعة:

- نعم كتبت.

لدهشته وجد طلحة يهز رأسه بتفهم قائلا:

- فاكتب بوفاته أيضا في خطابك للخليفة!

قطب كلثوم جبينه مندهشا وهو يسأل بحذر:

- وفاة من؟!

أجابه طلحة بهدوء يشوبه الحزن:

- وفاة والي خراسان.. أبي رحمه الله.. طاهر بن الحسين.

أصيب كلثوم بصدمة عند سماع الخبر فسأله مندهشا:

- أقد مات أبوك؟!

أجابه طلحة في لوعة أكبر:

- نعم.. لقد أصبح محموما يتصبب عرقا من شدة الألم. حتى قضى نحبه بعد ساعات قليلة. لم تفلح معه أية وصفات طبية. فليرحمه الله وليلهمنا الصبر على هذه المصيبة.

أجابه كلثوم بمشاعر مختلطة. امتزج فيها الفرح بنجاته من الموت. مع دهشته في ذات الوقت:

- رحمه الله. أجل. سأكتب للخليفة بهذا الخبر على الفور. إن الرسول متأهبٌ للانطلاق. وقد تزود للرحلة. وكان في انتظار كتابي. لكني سأبدله فورا ليعلم الخليفة بوفاة والي خراسان رحمه الله.

أومأ طلحة برأسه موافقا وهو يقول في حزن ظاهر على فقدان أبيه:

- هاك خمسة آلاف درهم يا كلثوم. وسأبعث إليك بمائتي ثوب. عطية لك

ولأهلك وذويك ولمن تجود عليهم، رحمةً على روح الفقيد. فلنترحم على شيخنا طاهر بن الحسين، ولتخبر الخليفة أيضا أنني قد توليت أمر الجيش من الآن، فلينظر ماذا يرى.

قالها وانصرف هو ومن معه. فدارت الأفكار في رأس كلثوم. لكن فكرة واحدة سيطرت عليه، وواصل عقله طرح أسئلة بلا إجابات..

هل لهذا الموت المفاجئ من سبب؟ هل هي ميتة قدرية؟ أم يا ترى قد وقعت بفعل فاعل؟ ولماذا هذا التوقيت بعينه؟ بالأمس فقط انتوى طاهر خروجه عن الخلافة، واليوم يموت موت الفجأة! هل سيظهر السبب؟ أم أن وفاته ستبقى من جملة الأسرار؟

-٢٥-

سقوطٌ عَارِض

تحرك سلمان متخفيا بالظلام داخل أحد طرقات «مرو» المحيطة بالقصر في اتجاه منزله. كان يسير بحذر كالمسحور، واضعا يده تحت ردائه عند وسطه، حرصا على ما أخفاه تحت ملابسه.

كان قد نفذ مهمته بنجاح، دس السم لطاهر بن الحسين كما كان مخططا من قبل، أمضى بعدها يومه في القصر حتى لا يرقى إليه الشك، لكنه كان قد أخفى القلادة بعناية.

كان المأمون قد زرع عيونه في خراسان لتراقب طاهر بن الحسين، وتَرْصُد أي محاولة مرتقبة منه للخروج على الدولة العباسية، جنّد سلمان -تحسبا لتلك الظروف- داخل قصر طاهر بن الحسين كواحد من حاشيته المقربين، وقد صدق حدس المأمون، تمرد طاهر بن الحسين، عندها تيقن سلمان بحتمية مهمته، لكن ما أصابه كان أكثر من مهمة قتل، أصبحت حياته بعدها تدور في فلك القضاء على طاهر بن الحسين، تردد مردوخ على أحلامه، لم يستطع سلمان مقاومته أو الفرار منه، في البداية كان يشعر بالفزع كلما راوده الحلم، لكنه ألفه مع الوقت، بل كان ينتظره، وصار شغوفا برؤيته كل ليلة، كان يأخذه إلى عالم مختلف عن الواقع الذي يعرفه.

أدرك سلمان جانبا من سر القلادة التي يدعوه مردوخ لاستردادها، كل من ارتداها قد طاله الموت، هكذا عرف سلمان مصير من يلبسها، لذلك قرر ألا يرتديها أبدا، سيجد من يشتريها في مقابل ثروة طائلة، ولكن عليه الآن أن يصل إلى بيته بعد أن أتم المهمة، وقضى على طاهر بن الحسين.

- إلى أين أنت ذاهب يا سلمان؟

انطلقت العبارة في جنح الظلام. انتزعته من أفكاره. فانتفض جسده منزعجا. تلفت حوله محاولا إدراك صاحبها. أتاه الصوت من جديد قائلا:

- ما وراءك تحديدا؟

انتفض من جديد في رعب حين رأى فرقة من الجنود المسلحين يحيطون به من كل الجهات، حتى بدا كفأر وقع في مصيدة. فقال في ارتباك:

- ماذا هناك؟ أنا ذاهب إلى بيتي، ما الخطب؟

تقدم إليه قائدهم وهو يبادر بتفتيش ملابسه قائلا:

- لدي أوامر بتعقبك وتفتيشك. ماذا تحمل؟

استخرج الرجل جرابا جلديا من طيات ملابس سلمان، فانتزعه في عنف قائلا بصرامة:

- نعم.. ما هذا تحديدا؟

سيطر الذعر على سلمان. وفقد القدرة على النطق. بينما فتح قائد الجند الجراب، واستخرج منه قنينة صغيرة وهو يكرر سؤاله بلهجة مخيفة:

- ما هذا يا سلمان؟

حاول سلمان استجماع شجاعته ورباطة جأشه. لكن صوته جاء مبحوحا مرتعشا وهو يقول:

- هذا مجرد دواء أتعاطاه وقت الضرورة و..

قاطعه قائد الجنود في صرامة أكبر قائلا:

-دواء؟ إن مظهره لا يوحي بذلك أبدا. يبدو لي شيئا آخر.

نظر إلى القنينة في الظلام للحظات قبل أن يقول بنفس اللهجة:

- على أية حال ستأتي معنا يا سلمان، وسوف تتناول هذا الدواء أمامنا لنرى إن كان دواء أم أنه شيء آخر!

ارتعد سلمان وجف حلقه في خوف. وقد أدرك أن نهايته قد أصبحت

وشيكة. زاغت عيناه في ذعر بحثا عن أن أي مخرج لتلك الورطة. في حين ارتفع صوت قائد الجند يأمرهم باقتياده إلى درك الشرطة قائلا:

- هيا يا رجال. خذوه إلى المخفر فورا. فإما أن يتضح لنا أن تلك القنينة تحتوي الدواء. أو سيكون على الرجل تحمُّل عاقبة أمره.

ساق الجنود سلمان إلى الدرك. وأدرك هو مع كل خطوة يخطوها أنه يقترب من نهايته. أخذ يتمنى في سريرته أن ينجده الشيء الهائل الذي يراوده في أحلامه. ظل يستجديه برجاء دون جدوى. بدأ يلعنه بكل جوارحه. لعن مردوخ ولعن القلادة التي أخفاها. كان قد خبأها بأحد جدران القصر لالتقاطها لاحقا. لكنه أدرك أنه لن يعود إليها بعد تلك الليلة. لن ينفعه الندم الآن ولا سكب اللعنات. تخلى عنه الشيء الذي سيطر على جوارحه. ظل ينتظر المعجزة التي ستحرره وتخرجه من كل هذا. ولكن المعجزة لم تأت. فمثلما انتهى أمر طاهر بن الحسين انتهى أمره هو أيضا.. نالت لعنة مردوخ من كليهما. وبقيت القلادة مخبأة بالقصر.

عُصورُ الدِّمَاء

مدينة مرو – إقليم خراسان

٦١٨ هـ | ١٢٢١ م

تجمع حشد من جنود التتار بكثافة حول جنديين من زملائهما يتباريان بعنف. ظلا يتعاركان للحصول على غنيمة برزت من بين الأنقاض. اختصما وكلٌ منهما يرى أنه الأحق بها وأنه عثر عليها أولا. بدا التجمهر من بعيد كقطيع حيواناتٍ مفترسةٍ جائعة. التفت حول فريسة ليحصل كلٌ منها على نصيبه من لحمها الطازج. تحلّقوا لمشاهدة المباراة العنيفة بين الجنديين فوق أنقاض «مرو». كانت دماء أهل المدينة لا تزال تجري كالأنهار من بين أطلالها، بعد أن أفنى التتار سكانها الذين تجاوزوا السبعمائة ألف نسمة.

ثلاثة أيام مضت من القتل والذبح والحرق. فرغ جنود التتار من القضاء على أهل «مرو» عن آخرهم. ثم لاحت لهم فرصة رؤية هذا المشهد كنوع من الترفيه واللهو. مشهد معتاد لديهم مع غزو كل مدينة من المدن التي اجتاحوها.

تصاعدت أصواتهم في جزل وحماس مترقبين نتيجة المنافسة المحمومة. منافسة قواعدها أن الفائز هو من يُسقط قلنسوة خصمه من فوق رأسه في مصارعة نظيفة تخلو من الدماء. هكذا نصت شريعة الـ «ياسا» التي وضعها «جنكيز خان» قبل عقود.

مال أحد المشاهدين على أذن زميله يسأله في شغف:

- على ماذا يتصارعان؟

أجابه زميله:

- يبدو أنها قلادة ثمينة.

أجابه الأول:

- قلادة؟

لم يجبه زميله هذه المرة منهمكًا في متابعة صراع الرجلين، اللذين انخرطا في مباراتهما للفوز بالقلادة، قلادة مردوخ التي ظهرت بعد ألف عام أخرى بتحطم الجدار الذي كان يخبئها.

وبحركة خاطفة من يده تغلب أحد الجنديين على الآخر فأسقط قلنسوة زميله المصنوعة من الفراء، تعالت صيحات الاستحسان والتهليل بين زملائهما لبعض الوقت، ثم انصرف الجميع تدريجيا وخف الزحام، بينما وقف الفائز يتأمل القلادة بين يديه في انتصار، وهو يفكر كيف سيتصرف في هذا الكنز الثمين، وكم من القطع الذهبية ستدرها عليه تلك التحفة.

لم تكن تعنيه صنعتها، ولا يعنيه تاريخها الطويل، كان يعنيه فقط مقدار ما ستجلبه من ذهب، كان يعلم جيدا لمن سيبيعها.. هناك دوما من يتلهف للحصول على تلك الأشياء، وفي صمت وضعها الفارس المغولي في جراب جلدي عند خصره وأحكم الرباط ثم ولى مدبرا.

-٢٧-

الصَّفْقَة

- كم ستدفع أيها اليهودي؟

نطقها الفارس المغولي -الذي فاز بالقلادة- بلغة فارسية ركيكة وتعالٍ ظاهر، مخاطبا الرجل اليهودي الواقف أمامه في زيه التقليدي، يتأمل القلادة ويقلبها بين يديه متفحصًا كل تفاصيلها، حتى بدا كأنه يحصي كل أحجارها الكريمة التي تطعِّمها، قبل أن يجيب المغولي بكلمات بطيئة:

- قلادة جيدة.. وتبدو أصيلة كذلك.

زمجر الفارس التتري في غلظة وهو يضع يده على مقبض سيفه مهددا:

- سألتك سؤالًا ولم تجبني، وأنا لا أكرر أسئلتي مرتين، ولا أتميز بالصبر كذلك.

ارتجف «شمعون» اليهودي لصرخة الفارس، حتى كادت القلادة أن تسقط من يده وهو ينظر إليه في انتباه تام، قائلا في كلمات سريعة:

- سندفع ثلاثين قطعة ذهبية أيها السيد، ثلاثون قطعة كاملة.

قلب المغولي شفته السفلى في عدم رضا وهو يعقد حاجبيه ويمد يده لانتزاع القلادة من يد اليهودي قائلا بغلظته:

- هذا لا يكفي أيها الجشع، إنها تساوي أكثر من ذلك بكثير.

تراجع شمعون خطوة للخلف متشبثا بالقلادة قبل أن تصل إليها يد المغولي وهو يقول بسرعة:

- لا يا سيدي أرجوك، سنشتريها وسندفع فيها أربعين قطعة.

سحب المغولي يده قليلا ثم مدها من جديد مفتوحةً نحو اليهودي قائلا في تبرم واضح:

- إذن هيا.. ادفعها الآن وفورا قبل أن أغير رأيي.

اندفع شمعون قائلا في لهفة وهو يخرج من بين ملابسه صُرّة صغيرة ويدفعها ليد المغولي:

- هاك عشرون قطعة. وسأذهب لإحضار باقي القطع بعد قليل.

اختطف الفارس الصرة بعنف، وأفرغ محتوياتها في يده الأخرى ليعاين القطع الذهبية، وهو يقول لليهودي دون أن يرفع عينيه عن الذهب:

- وأين باقي القطع أيها اليهودي؟ لماذا لم تحضرها بالكامل؟

أجابه شمعون وهو يكذب في حذر متلعثم:

- أنت تعلم أيها السيد أنني لن أدفع وحدي. فلي شركاء سآتي منهم بباقي القطع.

أعاد المغولي القطع الذهبية إلى صرتها وهو يربطها حول خصره بإحكام قائلا لليهودي:

- قبل غروب الشمس. تحضر إليّ باقي القطع عند البوابة الغربية للمدينة.

قالها وهو يعتلي صهوة جواده في سرعة منطلقًا به تاركا خلفه شمعون الذي ابتسم في خبث وهو سعيد بإتمام الصفقة. ثم قال وهو يتأمل القلادة في شغف:

- سأحضرها لك أيها المغفل الجشع. فما سأحصل عليه من وراء هذه القلادة يفوق بكثير ما سأدفعه لك.

تصاعدت بداخله نشوته بالمكسب السريع الذي مَنّى به نفسه. وهو يخفي القلادة في جرابها قابضًا عليه بكلتا يديه. واتخذ سبيله إلى بيته مسرعا الخطا.

-٢٨-

اليَهُودِي

جلس شمعون أمام زوجته وولديه في منزله الواقع على أطراف خراسان. وتعلقت أنظارهم به وهو يقول مسترسلا في حديثه:

- كما أخبرتكم من قبل، عصور الدماء قد حلّت كما قالت كلمة الرب في الصحف المقدسة، وكما ورد على لسان أنبياء إسرائيل. سُفكت الدماء كما لم تسفك من قبل، بحار جارية منها وسط جبال متراكمة من جثث وأشلاء.

اتسعت عينا زوجة شمعون بينما قطب الشابان جبينهما، وهما يستمعان إلى أبيهما، فقال أحدهما في خوف:

- وكيف حدث ذلك فجأة يا أبي؟

نظر له شمعون قائلا:

- لم يحدث فجأة يا بني، الربانيون أخبرونا سلفا بما سيحدث.. هذه مشيئة الرب.

ثم أدار عينيه في وجوههم قبل أن يقول:

- هذه الجيوش مستمرة في الغزو منذ أن خرجت قبائلها المتحالفة من أقاصي الأرض، وتوحدوا في طريقهم بقبائل وأجناس أخرى، هؤلاء يا ولدي صنف من البشر لم ير العالم شبيها له من قبل.

امتقع وجه الشاب فسأله الآخر بنفس الخوف:

- وما الذي دفعهم إلى المجيء إلى هنا وغزو تلك البلاد بالذات يا أبت؟

تأمله شمعون للحظات ثم قال بصوت خفيض:

- لأنهم يطمحون في غزو الأقاليم السبعة، وهذا الإقليم يتوسط الطريق في

زحفهم إلى باقي أطراف الأرض. لكن بلاد العرب هي كنزهم الأكبر الذي يحلمون بالحصول عليه.

تساءل ابنه يشوع في حيرة:

- ولكن، لماذا كل هذا القتل يا أبي؟ أما يكفيهم أن يخضعوا كل تلك الممالك لحكمهم.

تنهد شمعون متفكرا ثم قال:

- هذه يا ولدي عقول لا تعي معنى الحياة، وقلوب لا تعرف معنى الرحمة. لا تحركهم إلا غريزة حيوانية تتعطش لإراقة الدماء والحصول على المال وبسط السيطرة على غيرهم. يدينون بدين عجيب ولا يمتلكون ضميرا. لم ينتهجوا لهم نهجًا وعُرفًا وشريعةً إلا الاجتياح والسطو والاحتلال والقتل بلا توقف وسفك الدماء أنهارًا، حتى شريعتهم المكتوبة قائمةٌ على ذلك. ومنذ أن برزت قوتهم وكثرت أعدادهم كنجوم السماء، انتشروا كالجراد، يأكلون الأخضر واليابس في كل بقعة تطأها أقدامهم.

ارتفع صوت زوجته وهي تقول بعد صمت:

- سمعت من زوجة شاؤول التاجر -الذي عاد لتوه من خوارزم- أنهم أيضا لا يحافظون على عهد ولا يحملون ميثاقا، وأن هذا دأبهم منذ نزوحهم من بلادهم الأصلية، وحتى وصلوا إلى هنا.

أجابها أحد الأبناء باندفاع:

- وما الفارق يا أماه بيننا وبينهم، نحن أيضا نفعل ذلك مع الجوييم*.

رمقه شمعون بنظرة معاتبة ولوح له بذراعه قائلا:

- صه.. نحن نفعل ذلك حفاظا على أرواحنا يا يشوع. هؤلاء لا يخشون

---

* جوييم/غوييم: مصطلح ديني يهودي يطلقه اليهود على غير اليهود، وهو المقابل العربي للكلمة العبرية «جوييم/ غوييم «بالعبرية: גויים، وهذه هي صيغة الجمع للكلمة العبرية «جوي»، بالعبرية: גוי التي تعني «شعب» أو «قوم».

شيئا، وهم كثُركرمال الأرض؟

ثم نظر في وجوه ابنيه وزوجته وقال متنهدا:

- سأقص عليكم قصتهم من البداية.

صمت قليلا يستجمع أنفاسه الوجلة وهو يقول بصوته الخفيض، وكأنه يخشى أن يسمعه التتار:

- هذه الوحوش أتت إلى تلك البلاد من أقاصي الأرض، جماعات متفرقة وقبائل متشرذمة توحدوا وشعروا بقوتهم وقرروا أن يهاجموا بلاد غيرهم ليغنموا من ثرواتها وينهلوا من خيراتها، اتخذوا لهم عهدا ألا يتركوا مدينة أو قرية دخلوها إلا أبادوا سكانها جميعًا، لا يفرّقون في ذلك بين رجل وامرأة، ولا بين رضيع وشاب، ولا بين صغير وشيخ، ولا بين ظالم ومظلوم، ولا بين مدني ومحارب!

ثم استجمع أنفاسه ولمعت عيناه قبل أن يقول:

- كم من مناطق شاسعة من العالم وطأتها أقدامهم بدءًا من أقاصي الشرق وحتى أدناه، أقدام لم تصدها أسوارٌ، ولم تعرقلها حواجز، ولم يؤخرها أغوار وادٍ سحيق، تقدموا بثبات بعيدا عن أراضيهم في رحلة متواصلة، دانت لحكمهم الأراضي جميعها، حتى بلغوا ذروة هيمنتهم بقدوم شيطان مريد يُدعى «جنكيز خان»، خاقانهم الشهير الذي اجتمعت فيه صفاتٌ يندر أن تجتمع في رجل واحد، صادف ظهوره توقيتًا فريدًا وظروفًا مهيئة لنيل الأوطار وتحقيق المآرب.

سأله يشوع:

- وماذا فعل «جنكيز خان» هذا يا أبي؟

أجابه شمعون:

- كان جنكيز داهية حاذقا وثعليا ماكرا وقائدا طموحا، تمكن من توثيق عُرَى القبائل التترية المشرذمة، وتوحيد رايات قواتها المتناحرة، ونظَّم صفوفها المتنافرة، فقاد جحافلها لاجتياح كل ما صادفه من دول وممالك انتثرت كحبات

اللؤلؤ على وجه البسيطة. فأفنى بكتائبه شعوبًا وقبائل واستولى على بلادهم وأموالهم. وأراضٍ لم تكن أقدامهم لتطأها لولا أن واتت كل تلك الظروف في ذات الوقت. وتلاقت مع أقدار الرب يا ولدي. هذا الذئب يملك طموحا عظيما. ولا أظنه سيهدأ إلا بعد أن يتوج سلطانه الواسع بغزو بلاد العرب والوصول إلى العراق والشام ومصر لينضموا إلى حظيرة إمبراطوريته المترامية. ومن ثم غزو أرض الروم حتى يبلغ بعدها شأنا لم يبلغه بشري من قبل. ولو تحقق له ما أراد فلسوف يتفوق على مُلك الإسكندر الكبير ذاته.

سأله ولده الآخر:

- وكيف تمكن هذا السفاح من تحقيق كل هذه الانتصارات يا أبتِ؟

أجابه شمعون:

- لم يكن له أن يحققها يا ولدي إلا باتباع طريق هو غاية في الشر. لقد اعتمد على قذف الرعب في نفوس سكان المدن والممالك التي انتوى غزوها. الإفراط في إراقة الدماء يا ولدي. إنه سلاحه الماضي الذي برع في تصويبه ليحقق أهدافه وغاياته الشنيعة.

سأله يشوع من جديد:

- وكيف قطعوا طريقهم إلى هنا يا أبي؟

أجابه شمعون:

- لقد واصلوا زحفهم بلا انقطاع منذ مغادرتهم موطنهم. ومع زحفهم توالى سقوط المدن العظيمة التي كانت ملء السمع والبصر لآماد طويلة. حتى اجتاحوا بخارى وأبادوا أهلها. وكرروا ما فعلوه في بخارى في عدة مدن كبرى كسمرقند التي حازت إعجاب جنكيز خان فاستقر بها. ثم بسطوا سيطرتهم على المناطق المحيطة بها. غزوا الأراضي الواسعة التي تقع جنوبها وشمالها. ثم هاجموا المزيد من البلدان. فسقطت مازندران ثم الري وتبعتهم أذربيجان وأرمينيا وجورجيا.

ظهر الإحباط على وجهي ابني شمعون فواصل الأخير حديثه:

- كان اجتياحهم لخراسان من أعظم تلك الأحداث. وارتكبوا فيها مذابح لا توصف. فغزوا بلخ، ومرو عاصمة خراسان العريقة، ونيسابور، وسمرقند، وهراة، وغيرها من مدن خراسان. وقد قرر السفاح تأجيل الزحف إلى أرض الخوارزميين التي كانت معقلا لملوكها الثائرين.

سأله يشوع مذعورا:

- وهل ارتكبوا تلك المذابح في أقاليم أخرى قبل خراسان يا أبي؟

أجابه شمعون:

- كلها، كلها يا ولدي. في كل مدن الأقاليم التي مروا عليها قتلوا أهلها ولم يبقوا منهم أحدا. يقضون أياما بأكملها في ذبح السكان كأنهم يحصدون محاصيل الحقول. وعندما ينجو بعض الضحايا يقومون بتدارك الأمر في المرات التالية، ففي نيسابور فصلوا الرؤوس عن الأجساد بالكلية حتى لا يتركوا أحياء خلفهم مثلما حدث في مرو. وفي بلخ استجاب أهلها المذعورون. فعاونوهم فيما أرادوا لغزو مدينة مرو. أما في مرو فقتلوا سبعمائة ألف نفس، هم كل سكان المدينة من الرجال والنساء والأطفال. سلبوا كل الأموال حتى أنهم نبشوا قبر السلطان «سنجر» بحثا عن أموال أو حُليّ مدفونة معه. وبذلك فنيت مرو وفني أهلها وانمحت من على وجه الأرض.

سأله يشوع:

- لكن ألم تستطع مملكة واحدة يا أبي أن تقف في وجههم؟

أجابه شمعون:

- بلى يا بني. منذ بدأ هؤلاء الجراد في الانتشار لم يوقفهم شيء مطلقا، حتى وقف في طريقهم حجر العثرة الوحيد.

صمت قليلا فانتبه من حوله أكثر فقال:

- العقبة الكؤود التي لم تكن في حسبانهم، الخوارزميون الذين حاولوا

التصدي لهم بجسارة يحسدون عليها، على خلاف كل الممالك الأخرى.

سأله شاؤول:

- وهل انتصر عليهم الخوارزميون يا أبت؟

أشار شمعون بإصبعه وهو يقول:

- إلى حين.

ثم واصل بنفس اللهجة المشوبة بالذعر وبصوته الخفيض:

- فجأة وبلا مقدمات، برز من أورجاندا عاصمة الخوارزميين فارسٌ مغوار وكأنه قد برز من العدم. أذاق التتار هزائم عدة في كل الأقاليم، في بلاد فارس وبلاد الأفغان والأوزبك والتركمان وغيرها. واستبسل هو وجنوده في شجاعةٍ يحسدون عليها. تصدى «محمد بن خوارزم شاه» بجيوشه لجحافل التتار وكبدهم خسائر هائلة.

حازت عبارته الأخيرة على اهتمام ابنيه، فواصل قائلا:

- كان الخوارزميون فرسانًا لا يهابون التتر، ولا يهابون ما جلبوه معهم من موت، يملكون من المهارة والبأس ما يمكّنهم من الوقوف في وجه طوفانهم الجرار، ورغم مقتل ما يقرب من عشرين ألفا من الخوارزميين في تلك المعارك، لكن خسائر التتر كانت أضعاف ذلك، غير أن هذا الصمود لم يدم طويلا أمام تلك الحشود المهولة التي تدفقت عليهم، فسقطت بخارى، خان التتار عهد الأمان الذي أعطوه لأهلها، وقد هلك أهل المدينة جميعا، وخصصوا فرقة من عشرين ألف جندي للقضاء على محمد بن خوارزم تطارده أينما حل ليظل هاربا أمام وجوههم، حتى لجأ إلى جزيرة نائية ليحتمي بحصنها.

- لكن لماذا يتركوننا نحن أحياء؟ وماذا يبقينا هنا بعد أن تحطمت كل المدن وانتهى الناس في كل البلاد التي كنا نعتمد عليها في التجارة؟

لأول مرة ابتسم شمعون في خبث وهو يقول:

- هم يهادوننا يا ولدي من أجل المصالح لا غير، فبيننا وبينهم منافع جمة،

وتحالفا غير معلن فلا يمسونا بسوء. وسنرحل من هنا بعد أن نحصل على ما نريد.

سألته زوجته في لهفة:

- وهل سيكون ذلك قريبا يا شمعون؟

أجابها بنفس الابتسامة الخبيثة:

- قريبا.. قريبا جدا يا زوجتي العزيزة.

-٢٩-

هَادِمِ اللذَّات

تأهب شمعون للخروج من بيته الواقع في أحد أحياء مصر. ظل يصول ويجول في أسواقها منذ وطأتها قدماه. اختلط بتجارها وتردد على حوانيتها حتى تمكن -بمهارته في التجارة- من بيع الكثير من الغنائم التي أتى بها إلى هذا البلد. كان يعلم أن كل ما حمله معه مسلوب من أصحاب البلاد التي اجتاحها التتار، لكنه استحلها لنفسه بحجة أنه اشتراها بماله.

استطاع اليهودي أن يستقر بمصر بعد أن ابتاع بيتا ليؤويه هو وأسرته. كانت مصر بلدا آمنا محببا لكل الوافدين. علم شمعون حين قصدها أنه سيقطع مسافة طويلة ليصل إليها، لكنه قدر بدهائه أن التتار لن يتركوا بلدا في طريقهم إلا اجتاحوه.

ورغم تمتعه بالأمان الذي يتمتع به سائر بني قومه في كل البلاد، والحلف غير المعلن، الذي يلتزم به المغول تجاههم لمصالحهم المشتركة. لكنه آثر -كغيره من اليهود- مغادرة تلك البلاد المنكوبة لبلاد أخرى أكثر أمانا، بعيدًا عن صخب المعارك وصليل السيوف والدماء التي صبغت كل شيء، مكتفيا بما يملك من غنائم استطاع أن يقتنصها.

استطاع شمعون بمصر أن يجني من حصيلة بيع المقتنيات الثمينة أضعاف ما أنفقه في شرائها. استمر في تعامله مع التجار والوسطاء لبيع باقي التحف والمشغولات النادرة.

أما القلادة التي ادخرها للنهاية فكان يعتبرها أثمن الغنائم التي حصل عليها، الآن جاء دورها، واشتعل حماسه وشغفه وهو يستخرجها من جرابها. أخذ

يتأملها في ضوء النهار الخافت المتسلل عبر نافذة منزله. وقتها أدرك كم هي ثمينة ومدهشة.

كانت الأحجار الكريمة النادرة -التي لم يرَ مثلها قط تُرَصِّع أقراص القلادة الثلاثة في اتساق بديع. خطوط غائرة وبارزة تلاحمت مع حناياها وتفاصيلها ونقوشها في تناغم يأسر الألباب.

قرر أن يبيعها بأعلى ثمن لكبير تجار المحروسة. حان موعده معه في مساء ذلك اليوم. انتوى أن يطلب في مقابلها أضعاف الثمن الذي أنفقه في شرائها.

وفي المساء سلك الطريق المؤدي إلى كبير التجار. لكنه لم يرَ ذلك الرجل الذي تستر بالظلام خلفه وهو يتبعه كظله في الطرقات الضيقة. لم يرَ تلك العصا الغليظة التي أخرجها الرجل من بين ملابسه رافعا إياها. ولم يشعر بوعيه بعدها حين عاجله اللص بضربة قاسية فوق رأسه ليسقط أرضا. بعدها جرده اللص من كل ما هو ثمين. دون أن يكترث بمصير شمعون الذي انقطعت أنفاسه. وانتهت أحلامه بالثراء السريع. كانت القلادة هي الغنيمة الأكبر وعرف اللص أنه حصل على صيد ثمين في هذا اليوم.

تاهت القلادة في طرقات المحروسة. ظلت تتقلب بين أيادي التجار والوسطاء والوجهاء. تؤدي دورها الأسود. وتبث لعنتها التي رافقت لمعة ماساتها وبريق أحجارها. لتقطع رحلة أخرى من رحلاتها المشؤومة فوق دماء ضحاياها. أسقطت العديد منهم. أصيب بلعنتها الكثير من الغافلين. وانتقلت من يد إلى أخرى بحثا عن الضحية التالية.

-٣٠-

صِرَاع المَمَالِيك

الديار المصرية
٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م

ربع قرن مر على ضياع قلادة مردوخ في زحام مصر المحروسة. وخلاله حدث الكثير. ثلاثة ملوك ذهبوا وجاء الرابع. ثم سقط بدوره بعد فترة قصيرة. الملك العادل الأول ثم العادل الثاني. ثم الملك الصالح نجم الدين أيوب. ثم جاء ابنه «توران شاه». لكنه لم يمكث إلا أربعين يوما!

توالت الأحداث تَتْرَى في زمن يزخر بالدسائس والمؤامرات. خططٌ تحاك خلف المستار. مكائد يدبرلها بليل. صراعات لم تنفك. تخللتها حروب وغزوات اشتعلت نيرانها فجأة حين عزم ملك فرنسا -لويس التاسع- على غزو مصر. فنزل بجيش صليبي ضخم على سواحلها الشمالية عند دمياط. لكن «شجر الدر»* قررت أن تدير الحرب بعد وفاة الصالح أيوب. فارقها زوجها بعد أن رفعها من عداد الجواري إلى مصاف الملوك. تركها راحلًا عن العالم في أوج المعركة. لكن الأرملة العنيدة لم تستسلم. اكتست هيئتها بغلاف من البأس. كتمت النبأ عن الجميع. أقنعت الكل بأن زوجها هو من يدير المعركة. ثم نقلت جثمانه سرًا في تابوت من المنصورة إلى قلعة جزيرة الروضة.

وبفخ محكم أثار الإعجاب. أوقع أمراء المماليك بالفرنسيين. بعدما أخلوا المنصورة من السكان. دخل الفرنسيس إلى مدينة الأشباح. آمنين مطمئنين

---

* اسمها في الأصل «شجر الدر» وليس شجرة الدر كما هو شائع.

لهروب أهلها. وفي غمرة الأمان والطمأنينة ونشوة النصر الزائف، نزلت عليهم صواعق السيوف وأسنة الرماح وهم يحتفلون سكارى في مَجن. مفاجأة صادمة نزلت فوق رؤوسهم. انقض عليهم أمراء المماليك على رأس جحافل المصريين. هاجمهم الأهالي من كل حدب وصوب. نال الصليبيون هزيمة ساحقة. سقط القتلى والأسرى بأعداد غفيرة. وقع الملك لويس التاسع في الأسر في ملحمة لا مثيل لها. لاحقا. افتدى نفسه بمبالغ طائلة ليُطلَق سراحه في نهاية المطاف.

لكن نشوة النصر لم تقنع المماليك ولا «شجر الدر» بالإذعان لابن مليكهم الراحل. «توران شاه». الذي خلف الملك الصالح على العرش وشاركهم النصر على الصليبيين. لم يكن هو بغيتهم وملء أعينهم ليقروا به سيدا عليهم. رأى في أعينهم التوق إلى خلعه وإثارة المتاعب. فتآمر للخلاص من أرملة أبيه وأمراء المماليك. استهل حكمه بصراع غير متكافئ معهم. تخلى عن الحكمة حين وضع نفسه في مواجهة شرذمة خارجة عن السيطرة. طامحة للاستيلاء على عرش البلاد. خصوم لا ينقصهم الدهاء ولا طول المراس. ذئاب شرسة لا ينقصها نزعة التمرد ولا شهوة الطموح. حماقةٌ جعلته يتجاسر ملقبا نفسه بـ«المعظم». ممنيا نفسه بملك راسخ وسلطان مديد. لكنه في ذات الوقت تحدى طغمة المماليك المتحفزة ضده. وكان الصراع قصيرا كعمره. لم يصعب عليهم أن يحيكوا له مؤامرة. ليوقعوه بحيلة أقل براعةً من حيلة المنصورة. لكنها كانت مثمرة في القضاء عليه. فتكوا به قبل أن يفتك بهم. أطاحوا به لينهوا عهدا لا يناهز عهود الملوك. خلا العرش بعدها من وريث بعد أيام من انشغاله.

«الآن يا «شجر الدر». آن الأوان لتجلسي على العرش».

صرخت بها نوازع نفسها. تصاعدت داخلها حتى لبت «شجر الدر» نداء السلطة والجاه. لن تعيد الكَرّة من جديد لتأتي بمنافس لها على العرش. لن تسمح بأن يزاحمها من يفعل مثلما فعل ابن زوجها الراحل. لن تترك المجال لمن يهضمها حقها ويحقر شأنها. الآن تنفرد بالمُلك.

لكن لم يمض ثمانون يوما إلا وسرعان ما تفجر الموقف وثارت جموع أهل المحروسة. لا تملك امرأة أن تكتم صوت الجماهير العريضة التي تطالبها بالتنحي، وسط تذمر من الأمراء واعتراض من العلماء. كرروا على مسامعها مرارا حكم تولي النساء مقاليد الملك. أما الضربة القاصمة فكانت رسالة الخليفة العباسي المستعصم بالله. بعث بها من بغداد للأمراء في مصر يقول فيها هازئًا:

«إن كانت الرجال قد عُدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسيِّر إليكم رجالا».

وكان هذا أكبر منها، بل أكبر من أي امرأة أخرى مهما بلغت قوتها. قررت التنازل وآثرت الخروج من الموقف بأسره. لتهرب من كل تلك البلاءات التي هبطت على رأسها تباعا، خرجت من المأزق. تحررت من كل الضغوط دفعة واحدة بحيلة أخرى، حيلة ذكية لا تخلو من مكر وحسن تدبير. كانت «شجر الدر» امرأة حاذقة ماهرة لتقود سفينة البلاد بإرادة صلبة وحنكة بالغة في ظل أمواج عاتية، والآن تستخدم حنكتها أيضا لتهدئة الثورات المطالبة بتنازلها عن العرش. قررت أن تختار واحدا من أمراء المماليك الكبار ليصبح زوجها ويتولى الملك بدلا عنها، اختارت عز الدين أيبك وتنازلت له. بعد أن حكمت منفردة في ظروف غاية في التعقيد. هكذا انتوت أن تتوارى لتحكم من الظل، تاركةً عرشها لأيبك، لتولد دولة المماليك بيسر من رحم دولة بني أيوب دونما صراع جديد. هكذا كانت تأمل «الرئيسة العظيمة» كما أسماها أهل المحروسة.

لكن الأمر لم يتغير للأفضل. سرعان ما شب الصراع بينها وبين أيبك، زوجها، السلطان الجديد الذي لقب نفسه بالملك المعز. أراد أن يمارس سلطانه. فاصطدمت إرادته برغبات «شجر الدر» التي لم تتقلص طموحاتها. احتدم الصراع من جديد، ضاق أيبك بمحاولاتها تحجيم سلطانه. حاولت بكل سبيل منعه من إطلاق يده وفرض هيمنته. أثاره إصرارها على منعه من زيارة زوجته الأولى أم «نور الدين علي» الملقب بالمنصور. هددته بتطليق نفسها منه. كانت

تخشى أن ينصب ابنه وابن طليقته في ولاية العهد. التقى عزم الرجال بكيد النساء. فانتوى أيبك الزواج من ابنة والي الموصل بدر الدين لؤلؤ مكيدةً لها، وترسيخا لملكه وتدعيما لسلطانه. لكن كيد «شجر الدر» وانتقامها منه كانا حاسمين. حين اختارت طريقة شمشون لهدم المعبد على رؤوس الجميع.

«لتمت نفسي مع أعدائي».

هكذا اختارت «شجر الدر».

-٣١-

أُنُوثَة غَائِبَة

- قلادة؟

نطقتها «شجر الدر» في شغف لا يتماشى مع صلابتها المعروفة. وهي تسلط ناظريها إلى كبير التجار الذي جاءها يحمل صندوقا فاخرا مغلفا بالقطيفة بين يديه. فأجابها بابتسامة ماكرة وقد أيقن أنه أصاب هدفه على أحسن ما يكون:

- أجل. أغرب قلادة وأكثرها ندرة على الإطلاق يا مولاتي السلطانة.

ازداد الفضول في نفس «شجر الدر». نشطت بداخلها روح الأنثى. وهي تكاد تخترق الصندوق المخملي بعينيها لترى ما بداخله. فتابع كبير التجار بلهجة مثيرة:

- وهذه القلادة لا يصح أبدا أن يحصل عليها غير مولاتي السلطانة بأي حال. مثل هذه التحف القيّمة لم تصنع إلا لأصحاب الجلالة والسمو. ولا أظن أن لها نظيرا في كل البلاد.

تخلت «شجر الدر» عن هيبتها، تحولت في لحظة إلى أنثى مدللة. يسيل لعابها لرؤية التحف والحلي الثمينة. فقالت في لهفة وقد نجحت كلمات التاجر في إثارة حواسها:

- دعني أراها إذن!

مد التاجر يديه بالصندوق لـ «شجر الدر» التي التقطته بشغف. فتحته لتشاهد القلادة بداخله. سرت في جسدها قشعريرة تحمل فضولها عندما شاهدتها، امتدت يدها لتلتقطها من داخل الصندوق. كانت تستعيد أنوثتها المسلوبة التي توارت خلف أسوار القيادة والسلطة. ظلت تتأملها في شغف

تقلبها بين يديها، وقد سقطت كل قلاع مقاومتها ومظاهر شخصيتها المتسلطة تحت وطأة إغراء القلادة.

تحفة فنية نادرة لم تحصل عليها ملكة من ملكات العالم، ولا زوجة أعظم سلاطين الأرض، كانت تحتاج إليها بشدة لتخرجها من شلال المشاعر السلبية الذي غمرها، كانت فرصتها السانحة ومتنفسها، وسبيلها الوحيد إلى ذلك.

ودون تردد رفعت «شجر الدر» القلادة وأحاطت عنقها بها، تركتها تتدلى على صدرها، قامت في تلقائية نحو مرآتها لتشاهد صورتها بالقلادة، وفي انبهار قالت:

- مذهلة، رائعةٌ بحق!

التفتت وهي تحت وطأة فضولها تسأل التاجر بنفس اللهجة:

- كم تساوي أيها التاجر؟

اتسعت ابتسامة التاجر في جزل وهو يقول:

- أما هذا فسأتركه لتقدير مولاتي، خاصة بعد أن نالت رضاكِ وحازت إعجابكِ.

أشارت «شجر الدر» إلى أحد الخدام:

- خذه إلى صاحب الخزانة ليعطيه ما يريد من مال، هي حتما تستحق أعلى مقابل.

انصرف التاجر مباشرة في سعادة ورضا وقد حقق ما كان يرجوه من الصفقة، أما «شجر الدر» فهمست في شرود وهي ما زالت تتأمل القلادة فوق صدرها في المرآة:

- هي حتما تستحق أعز ما لدي!

-٣٢-

اخْتِطَاف

الديار المصرية
٦٥٥هـ | ١٢٥٧م

توالت الأحداث وانطفأت نشوة الفرح بالقلادة سريعا. رد أيبك زوجته الأولى إلى عصمته. بل عزم على الزواج من امرأة أخرى ليكسر كبرياء «شجر الدر». جن جنونها كما أراد. أيبك الذي صَعَّدته على العرش يتحداها باستمرار. ويختم تحدياته بالزواج. ليكيد لها ويذيقها مرارة الغيرة. وليمكن لنفسه في الملك. لذلك عزمت على الانتقام.

التف حولها الخدم يستمعون إلى خطتها لاغتياله. خططت أن ترسل له أحد القضاة يدعوه للصلح. ستدعوه للصعود إلى قلعة الجبل ليبيت معها. سيتربص له فريق من الخدم. سيُغتال السلطان أثناء استحمامه في قلعة الجبل. وستعلن بعدها للجميع أنه مات فجأة أثناء الليل. هكذا قررت السلطانة.

كانت قلعة الجبل طريقا يقود إلى رحلة في اتجاه واحد نحو الآخرة. طريق يقصده كل من أراد التخلص من غريمه إلى غير رجعة: حتى عز الدين أيبك نفسه. اختار القلعة من قبل لاغتيال فارس الدين أقطاي، زعيم المماليك البحرية وغريمه اللدود. استدرجه إليها حتى نفذ أتباعه مأربه.

وبمقتل زوجها: زاد الحقد في قلب أرملة أيبك وبلغ مبلغه. راودها مردوخ في منامها يأمرها بقتل «شجر الدر» وانتزاع القلادة من عنقها. ووافق تحريضه

هوى نفسها في الانتقام من غريمتها، تلك التي اختطفت منها زوجها واستحوذت عليه.

«شجر الدر» التي سلبت أيبك من بيته وولده، اشترطت عليه تطليق زوجته وهجر ابنه، وحرَّمت على قدميه أن تطأ أرض منزله القديم، «شجر الدر» التي قتلته لمجرد أن هددها بزواجه من أخرى، رغم أنها رضيت بزواجها منه وهي تعلم أنها ستكون الثانية، «شجر الدر» التي أرهقته وراوغته، وسعت بدأبٍ في كسر هيبته وإخضاعه لسلطانها، لتجعله دميةً على عرش مصر، «شجر الدر» التي جعلت من نفسها أرملةً بإرادتها الذاتية كأنثى العنكبوت.

كان مردوخ يعرف كل هذا، حرضها في منامها على قتل «شجر الدر» جزاء لها على اقتراف خطاياها، هكذا وجدت «أم علي» نفسها تضع الخطة المحكمة مع المماليك للإتيان بـ«شجر الدر» إلى قلعة الجبل، وبنفس الجناح الذي قتل به أيبك لتنال نفس المصير، مع الكثير من الإهانة والازدراء والساعات العسيرة المؤلمة.

وفي اليوم التالي، اندفع جمع كبير من المماليك المعزية إلى القصر، اقتادوا السطانة قسرا وهي تصرخ فيهم معترضة:

- إلى أين أيها الصعاليك؟

- طريق اللاعودة أيتها السلطانة، إلى قلعة الجبل!

جردتها الخادمات والجواري من ثيابها، جروها بالحبال، اقتادوها إلى قلعة الجبل، وكانت «أم علي» أرملة أيبك في انتظارها، وبينما كانت «شجر الدر» تنتظر لحظاتها الأخيرة داخل القلعة، اجتمع كل قادة المماليك بالقصر، يومها بايعوا المنصور علي نور الدين بن أيبك ذا الخمسة عشر ربيعا سلطانا على البلاد.

لم يحضر هذا المشهد فريق الخادمات والجواري الذي كان لديه مهمة أخرى في قلعة الجبل، لم يكنْ سوى خادمات أم المنصور، لم يأتين لخدمتها كما يفعل

الخدم مع السادة. بل أتين لهدف آخر عرفته «شجر الدر» منذ اقتيادها إلى هناك. جهزن لها مراسم خاصة. اجتمعن متربصات. غلّقن الأبواب خلفهن بإحكام وهن يحملن أوامر واضحة. كنّ يعرفن مهمتهن جيدا. سيقتلن «شجر الدر». لكن الميتة ستكون مُهينة. لا بد أن تدفع «شجر الدر» ثمن تآمرها على أبيك. جزاءً لما اقترفته يداها. وفي نفس المكان الذي اغتالته فيه. لكن سلطانة مصر لاقت مصيرها بوسيلة متفردة.

-٣٣-

اغْتِيَال سُلْطَانَة

ضُربت «شجر الدر» بالقباقيب حتى الموت. وأُلقي بجسدها من فوق أسوار القلعة إلى الخندق الخلفي. لثلاثة أيام ظلت الكلاب تحوم حولها. اشتموها. ثم نهشوا أوصالها!

ثلاثة أيام مضت وجثمان «شجر الدر» ملقى في العراء. لم تدر الكلاب يومها أنها قد جعلت من جسد سلطانة مصر -صاحبة الصِيت والسمعة الواسعة- طعاما سائغا لها. أهينت سلطانة مصر في موتها. بعدما كانت في حياتها ملء الأسماع والأبصار. شاهد الأهالي جثمانها المسجى. لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب منها. تساءلوا في قرارة أنفسهم. ماذا فعلت «شجر الدر» في حياتها حتى يجري ما جرى لها في رحيلها؟! لكن «شجر الدر» لم تكن هناك لتعي أنها قد أهينت. فلم يعد يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.

شاهد الناس كل هذا. لكن واحدًا منهم لم يتجرأ على المساس بالجثة. حتى أتى أحد أصحاب الضمائر فحمل جثمانها مع ذويه وواراه التراب. كانوا يرون فيها -رغم كل شيء- مثالًا للرئيسة العظيمة التي سكنت في النفوس منذ زواجها بالملك الصالح. لم ينس هؤلاء الناس مآثرها وفضائلها. ولا أوقافها على وجوه البر التي عُرفت بها. لم يقدروا على تركها ملقاةً أكثر من ذلك وتجشموا المخاطرة. رغم عيون الحراس التي كانت ترمقهم من فوق الأسوار محذرةً ومنذرة.

انتهت «شجر الدر» لكن القلادة لم تنته. انتُزعت من عنقها عند مقتلها وأصبحت في حوزة «أم المنصور علي». هناك من ينتظر هذا الخبر ويترقبه مصحوبا بالدليل. وها هو الدليل بين يديها في تلك اللحظات.

ستُرسل تلك الأمارة -مصحوبة برسالة- إلى من يهتم بأمرهما. هناك في عاصمة العباسيين من يتلهف لسماع تلك الأخبار. في غضون أيام سيطير الخبر إلى الخليفة العباسي «المستعصم بالله»، يزف إليه الأنباء التي طالما انتظرها بإزاحة «شجر الدر»، وصعود وريث أيبك الذي لا يرى بأسًا في التحالف مع العباسيين. هكذا كانت تظن أم المنصور. كانت تطمع في تعضيد ملك ولدها الذي لم يبلغ بعد شأو الرجال. سيُسر المستعصم بتلك الهدية. ستشق القلادة طريقها من جديد إلى أرض الرافدين بعد قرون من الغياب.

-٣٤-

الغَفْلَة

تهلل وجه الخليفة المستعصم وهو يجلس على عرشه في مقر الخلافة العباسية ببغداد، بينما كان يقرأ رسالة أم المنصور، أدرك منها أنه قد أصبح له حليف في مصر، تملكه الظن بأنها بداية الخلاص من أنداده المعاندين، كان الأيوبيون ينافسونه على سيادة ممالك الشرق، وقد حانت نهاية حكمهم في الديار المصرية، هكذا توهم أنه قد تخلص من الأيوبيين ومن كبار قادة المماليك في مصر دفعة واحدة، أما من جلس على عرش الديار المصرية فقد كان فتىً حديث الأسنان، يمكن تطويعه بيسر لسلطان بني العباس.

جلس يرسم في خياله كيف سيفرض سلطته على مصر دون صراع بهذا التحالف المريح، تلك أمانيُه التي شغلت كل حواسه، دون أن يدرك الأخطار التي كانت تحدق بالدولة من جهة الشرق منذ عقود.

الجيوش المغولية التترية التي اجتاحت كل ممالك الشرق البعيد والأوسط كالسيل الجرار، تدبر منذ عقود للوصول إلى تلك اللحظة، وإسقاط أكبر الخلافات الإسلامية في المنطقة بأسرها، تغافلت عنهم الدول المتعاقبة وتجاهلت خطرهم، والآن أصبحوا على مرمى حجر من أسوار بغداد نفسها.

لكن كل ذلك لم يكن يشغل بال المستعصم وقتها، لقد كان هائما في غفلته عن كل ما يحاك في الخفاء، كان كمن سُكِّرَتْ أبصاره وطمست بصيرته، ظل يدبر المكائد، ويتقوى بالدسائس التي يحيكها ضد أنداده، تخبط في أخطائه السياسية الفادحة، كانت زلاته ظاهرة للقاصي والداني.

لكن هذه الرسالة أوهمته بأنه قد تلقى مسوغات سيطرته على مصر، قرر ألا

يعطي للتتار أو لغيرهم أي اهتمام ما دامت قواعد ملكه راسخة، ونفوذه يتمدد باطراد. سيضع القلادة على صدره ليراها ضيوفه حين يحضرون إلى قصره المنيف، ويمثلون أمام عرشه التليد. تخيل نفسه بين حاشيته ووزرائه يتزين بالقلادة كبرهان على بسط سلطانه واتساع نفوذه في كل البلاد التي حوله.

وفي غمرة زهوه الساذج، حمل القلادة في نشوة غافلة ووضعها حول عنقه، وابتسامة عريضة تملأ وجهه.

-٣٥-

هُولَاكُـو

مثلما تملكت الأحلام الخادعة من المستعصم، استبدت بهولاكو الأحلام الشيطانية. استحوذ عليه مردوخ. وسيطرت عليه الرغبة في قتل المستعصم.

كانت الأحوال قد تبدلت بمجيء «مونكو خان». انتخبه الإلخانات ليصير الخان الأعظم. أدرك أن امبراطورية المغول الشاسعة أكبر من أن يقودها وحده. قرر أن يقسّم قيادة الولايات المغولية بين إخوته الثلاثة. لكن فارس والعراق والشام ومصر صارت من نصيب القائد الدموي الذي كانت القلوب تنخلع لذكره..

هولاكو خان! القائد المغولي السفاح. الذي كان لا يرتوي إلا بسفك الدماء. استقبل هولاكو خبر توليه المهمة بنشوة عارمة. بدأ الزحف مرة أخرى نحو الغرب. تزايدت نشوته وتصاعد غروره. تعاظمت ثقته بالنصر مع توالي سقوط المدن الكبرى. تساقطت المدن في قبضته مثلما سقطت نظيراتها في أيام جنكيز خان.

عادت آلة القتل المغولية للعمل من جديد بعد عقود من التوقف. أصبح هولاكو على مشارف أرض الدولة العباسية. شحذ كل ذكائه العسكري وسياسته الماكرة للوصول إلى مبتغاه. عقد العزم على نيل مأربه. حتى لو فتح شلالات الدم من جديد. وحتى لو أضاف المغول إلى تاريخ الجنس البشري المتخم بالفظائع الكبرى- المزيد من الخطايا الهمجية والجرائم الدونية. تفوق الإنسان على نفسه في صناعة الشر. صنع سجلا حافلا من الحقارة والتدني والإجرام. استمرت جرائم الإنسان مصاحبة له. لازمته عبر تاريخه الحافل بكل

ما هو متجرد من الرحمة. لكن جرائم المغول والتتار لم ينافسهم فيها غيرهم من البشر. سيستغرق البشر وقتا مديدا قبل أن يأتي من يفوقهم دموية وإجراما.

تملكت من هولاكو نوازع لم تراوده من قبل. لعبة مردوخ المتواصلة منذ أيام بابل تتكرر معه من جديد. لم يعد هولاكو يرى في منامه ويقظته إلا مردوخ وقلادته والمستعصم. متلازمة مردوخ الأبدية تلح على كيان هولاكو وتقتحم أفكاره.

«اقتل المستعصم يا هولاكو وانتزع القلادة التي في عنقه»..

أمره مردوخ في منامه بذلك مرات عديدة. من يومها لم يعد هولاكو يرى هدفا أمام عينيه سوى قتل المستعصم. لم يغير ذلك شيئا في أدائه وسلوكه وخططه التوسعية. لكن نوازع القضاء على المستعصم فاقت كل ما سواها من نزعات أخرى. ظل متربصا حتى تحين اللحظة المرتقبة. كان ينتظر يوم غزوه لبغداد بفراغ صبر. حتى جاء الوقت المناسب. كان يملؤه التردد في الإقدام على تلك الخطوة. حذره حكماء المغول من اجتياح بغداد والمساس بخليفة بني العباس. حذروه من أن تحل عليهم لعنة السماء!

لم يعد هولاكو يدري ما ينبغي فعله! أيستجيب لنوازعه التوسعية ودوافعه الدفينة؟ هل يقدم على اجتياح بغداد دون إبطاء؟ هل يلبي نداء مردوخ؟ أم يجب عليه الإعراض والانصراف عن ذلك الهدف العزيز حتى لا تصيبه اللعنة؟!

لكن لعنة مردوخ فاقت مخاوفه. زاد تحريضه وتوالت الأحلام الكابوسية. دفع مردوخ إليه من يحرضه ويكشف له جبهة العباسيين وخباياهم. بدأ بعدها ألاعيبه وحربه النفسية بالهجوم على النواحي المحيطة ببغداد. أراد بث الرعب والتخويف. كان يرغب في إحياء ذكرى المذابح السابقة التي ارتكبها بنو قومه في بلاد الشرق. واصل حربه الباردة ضد الخليفة العباسي لإسقاطه. عزم على الإطاحة به من على عرش بغداد. صارت بغداد أقرب إليه من أي وقت مضى.

-٣٦-

خِيَانَة وَزِير

إقليم فارس

٦٥٥هـ | ١٢٥٧م

- ما الذي تريد قوله يا نصير الدين؟

قالها هولاكو جالسا داخل خيمته بمعسكر المغول لنصير الدين الطوسي الذي وقف ماثلا أمامه، فأجابه الرجل بهدوء:

- من الأفضل لكم يا هولاكو خان، إن أردتم الانتصار في تلك المعركة، وإسقاط بغداد في قبضتكم أن تحاصروا الخليفة من الداخل.

عقد هولاكو حاجبيه قائلا:

- وكيف نحاصره من الداخل يا رجل؟

نظر الطوسي في وجوه جلساء هولاكو قبل أن يقول:

- يجب أن تدفعوه لاتخاذ قرارات من شأنها إضعاف جبهته ليسهل عليكم اقتحام المدينة.

ازداد انعقاد حاجبي هولاكو وهو يقول في غلظة:

- ليس هذا ما أسأل عنه يا هذا، فلا توجد مدينة على وجه الأرض تستطيع الصمود أمام قوة المغول، إنما أسألك عن عواقب اقتحام بغداد وقتل الخليفة.

أجابه الطوسي بنفس رويته:

- على العكس أيها الخان، لا توجد أية عواقب لاقتحام بغداد، وكل ما قيل لك عن حلول اللعنات ونزولها من السماء هو محض خداع، هذه ليست مدينة

مقدسة، والخليفة العباسي رجل كأي رجل آخر، ولا يتحلى بأية قدسية. لكني أرى أن تحصينات بغداد وعسكرها هي أكبر العقبات.

قام هولاكو من مجلسه وبدت عليه أمارات التفكير وهو يقول للطوسي:

- هل أنت على يقين بما تقول يا رجل؟

أجابه الطوسي بنفس الهدوء:

- أجل أيها الخان، لا توجد أية لعنات ستصيبكم لاقتحام بغداد وقتل الخليفة وإسقاط خلافة بني العباس.

ضاقت عينا هولاكو وابتسم في مكر وهو يقول:

- إذن فقد سقطت بغداد في أيدينا.

انعقد حاجبا الطوسي بدوره وهو يقول:

- ولكن حذاري أيها الخان، لا تستهن بتحصينات بغداد ولا بعسكرها، فقائد العسكر في بغداد -مجاهد الدين الداودار- ليس بالرجل الهيّن، هو رجل ماهر حاذق -وعنيد أيضا- ويعرف ما يفعله جيدا.

أجابه هولاكو في غرور واضح وهو يوليه ظهره:

- جنود الأرض لا تعرف المستحيل، ولا يوجد من يستطيع الوقوف أمام وجوهنا أيها الرجل، ومجاهد الدين هذا سأذبحه بسيفي.

صمت الطوسي للحظات قبل أن يجيب بهدوء واثق:

- ولكن، لماذا لا نجعل المهمة أكثر سهولة؟

التفت هولاكو نحوه من جديد وهو يجيبه:

- كيف؟

قال الطوسي بجدية:

- يجب أن يقتنع المستعصم بأن يخفض إنفاقه على العسكر.

استدار إليه هولاكو متسائلا:

- وكيف نقنعه بذلك؟

أجابه الطوسي بنفس الهدوء:

- لقد بدأ وزيره في إقناعه بذلك أيها الخان.

صمت هولاكو مفكرا قبل أن يعود إلى مقعده ثم دعا الطوسي للجلوس أمامه، وهو يتأمله بتمعن قبل أن يقول ببطء:

- أنت ملزم بأن تفصح عما ورائك يا رجل، من الواضح أنك تعلم الكثير.

تنهد الطوسي بعمق قبل أن يقول:

- كما يعلم الخان أن كلا من مؤيد الدين بن العلقمي -وأنا- لا ننتمي لنفس الطائفة التي ينتمي إليها المستعصم خليفة العباسيين، هناك اختلافات مذهبية عميقة بين كلا الطائفتين منذ عقود طويلة، اختلافات في الاعتقاد، اختلافات في الأصول، اختلافات في الفروع.

ثم مال نحو هولاكو في هجة ذات مغزى وهو يقول:

- واختلافات في سبل الحكم والسياسة والتحالفات، بل المصالح أيضا.

بدا الاهتمام على وجه هولاكو وحاشيته، فواصل الطوسي حديثه:

- منذ اقتحامكم قلعة « ألموت» وهزيمتكم للحشاشين، واقتيادي من بينهم إلى هنا، علمت أنه لن يقف شيء في طريقكم، فآثرت أن أدخر نصيحتي لكم إلى حين، والآن وبعد أن انقشع الغبار وزال اللبس واتضحت الصورة، فإنه حريّ بكم أن تعلموا أن بغداد ليست كقلعة الحشاشين، حتما هي تختلف عن «ألموت» في العدة والعتاد والجيش والتحصين، بغداد مدينة كبيرة ولها تاريخ، والعباسيون لهم مكانة عظيمة عند أهلها وعند العرب والمسلمين عموما، هذه الأوضاع تجعل من اقتحامها بالطرق التقليدية أمرا عسيرا حتى لو لم يكن مستحيلا، على أنكم إن نجحتم في اقتحام بغداد بهذه الطريقة، فإن ذلك سيكلفكم الكثير وسيكبدكم خسائر هائلة، حتى وإن تكللت المهمة بالنجاح، فأبراج بغداد حصينة وضخمة، والمدينة مترامية الأطراف وعامرة بالسكان.

بدت على وجه هولاكو دلائل التفكير العميق، وظل يتفرس في ملامح الطوسي

طويلا قبل أن يقول ببطء:

- وماذا يمكننا فعله لجعل المهمة أكثر سهولة يا رجل؟

أجابه الطوسي:

- ستخترقون جبهتهم من الداخل قبل اقتحام المدينة.

سأله هولاكو في نفاد صبر:

- وكيف سنفعل ذلك؟ أفصح يا رجل!

أجابه الطوسي بلهجة اكتست بالأهمية:

- وزير العباسيين. الرجل الذي ينتمي للطائفة الاثنى عشرية مثلي. الوزير مؤيد الدين بن العلقمي. هو يظهر للخليفة عكس ما يبطن. وأنا أضمن تعاونه معكم. لكنه يريد الأمان. ويلتمس منكم أن تنصبوه على بغداد واليا عليها بعد الخلاص من العباسيين. سيكون رجلكم الذي يسوس الناس باسمكم وتحت سلطانكم.

قطب هولاكو جبينه كنايةً عن عدم الرضا وهو يقول بشيء من الحدة:

- أنت لا تنتمي لهذه الطائفة يا هذا، أنت إسماعيلي مثل الحشاشين. وإلا لما أقمت بينهم ولبثت فيهم كل هذه السنين من حياتك حتى جلبناك من قلعتهم.

أجابه الطوسي في ثبات وهو يرفع سبابته:

- ليس إذا علمت أنني كنت مجبرا على الإقامة بينهم. ولم يكن استبقاؤهم لي إلا لمكانة رأوني عليها من العلم. وهي نفس المكانة التي رأيتموني عليها. ولذلك استبقيتموني مثلما استبقاني الإسماعيليون.

ظهرت أمارات التفكير العميق على وجه هولاكو من جديد قبل أن يقول:

- وماذا يضمن لنا أن ابن العلقمي سيدين لنا بالولاء؟

أجابه الطوسي وهو يبرز رسالة من بين ملابسه. ويظهرها لهولاكو:

- ابن العلقمي هو من كاتبني وطلب مني ذلك بنفسه. يريد الخلاص من الحكم العباسي لبغداد والخلافة. ويريد أن ينضم إلى ركبكم. لقد بدأ في إقناع

الخليفة منذ فترة بتخفيض أعداد العسكر وعتاد الجيش. وقد استجاب له المستعصم. والجيش الآن في تناقص ولم يعد له من الأموال ما يكفيه.

لمعت عينا هولاكو كذئب يتأهب للانقضاض على فريسته وهو يقول:

- هل هذه المعلومات مؤكدة؟ وهل يستطيع ابن العلقمي أن يرسل لنا تعداد جيش العباسيين؟

أجابه الطوسي بجدية:

- بل إن ابن العلقمي سيأتيك إلى هنا بنفسه ليخبرك بكل شيء.

اشتعلت عينا هولاكو ببريق شرس. وتصاعدت داخله أصوات طبول الحرب وهو يقول:

- فليأت من فوره إذن. فليس لدينا ما نضيعه من الوقت لاقتحام بغداد.

-٣٧-

الخُذْلَان

بغداد – الدولة العباسية

٦٥٦هـ | ١٢٥٨م

مر عام على تسلم المستعصم رسالة أرملة أيبك. أمضت القلادة عاما بصحبته. استسلم خلالها أكثر لوسوسات وزيره. تقاعس عن التأهب للطوفان الآتي من الشرق البعيد. انخرط في غفلته بدلا من أن يتجهز للتتار. توالت أخبارهم في إسقاط الممالك القريبة. لكن المستعصم أمعن في تهاونه بشأنهم. صم أذنيه عن صخبهم الذي ملأ الدنيا من حوله. دأبه في ذلك كدأب غيره من الحكام. بلغ جميعهم مبلغًا فادحًا من التراخي والتدني والغفلة. تغافلوا عن أمر أمتهم وشؤون رعيتهم. التفتوا إلى الدنيا وأطماعها وسلطتها. كان بأسهم بيتهم شديدًا فتصارعوا فيما بينهم. ظل ديدنهم الحفاظ على عروشهم وخدمة مناصبهم التي توارثوها أو سلبوها من غيرهم بقوة السيف.

سقطت «ألموت» قلعة الحشاشين الإسماعيليين. ومن قبلها كل قلاعهم. وقعت مدن فارس في قبضة المغول. صارت كل الطرق إلى بغداد تحت سيطرتهم. يومها شعر المستعصم بالقلق. فاستنجد بوزيره. لكنه كان كالعطشان المستجير بماء البحر.

كان وزيره «مؤيد الدين بن العلقمي» -الرجل الثاني- باق في منصبه منذ أربعة عشر عاما. مستمرا في خيانته للدولة العباسية وللخليفة الغافل. الآن يتآمر مع هولاكو في الخفاء ضد الخليفة وضد الدولة بأسرها. كان ابن العلقمي

ينتمي لنفس الطائفة التي ينتمي إليها الطوسي، ولغفلة المستعصم وخفة عقله فقد تركه في منصبه.

تأمل ابن العلقمي الخليفة وبداخله تصاعدت ضحكات متشفية، استرجع أمر المراسلات التي جرت بينه وبين هولاكو، وزيارته له بنفسه في معسكر المغول، تذكر اتفاقه معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد، بإسداء الآراء الفاسدة والاقتراحات المضللة للمستعصم، في مقابل أن يكون له شأن في مجلس الحكم الذي سيدير بغداد بعد سقوط الخلافة والتخلص من الخليفة. الآن اقترب ابن العلقمي من ذلك الهدف، قام بدوره على أكمل ما يكون. لا بأس إذن في أن يمعن في تضليل المستعصم كما أوعز له هولاكو. أقنع الخليفة بالمزيد من التخفيض لنفقات الجيش، وتسريح الجنود أكثر من ذي قبل، وقد أطاعه الخليفة المغَيَّب دون أدنى تعقل.

وفي كل يوم يمر كان ابن العلقمي يرى في عيني المستعصم نظرته المذعورة، كنظرة فأر حبيس بمصيدة، تلاعب به الوزير حتى أضعف جهته وسرح جيشه، جعله يماطل هولاكو في إرسال الجند الذين طلبهم لحصار قلعة الحشاشين، تناقضت رسائله له بإيعاز من ابن العلقمي، تذبذبت كلماته بين التهديد والمهادنة، إلى أن وصلته رسالة من هولاكو، يطلب فيها هدم الحُصون وردْم الخنادق وتسليم البلاد لابنه، وأن يحضر لِمُقابلته، أو يُرسل الوزير مُجاهد الدين أيبك الدوادار وسُليمان شاه، وأنَّهُ بهذا سيعفو عنه، وأشار على رُسله أن يُبلغوه بأنَّه إن لم يستجب لطلبه، فلا يبقى عليه إلا أن يحشد جنده ويتخير ساحة القتال، وقتها رفع المستعصم عينيه إلى وزيره ليسأله:

- ما العمل يا ابن العلقمي؟ التتر على الأبواب فماذا نحن فاعلون؟

أجابه ابن العلقمي في أسف مفتعل:

- لا سبيل إلا الاستسلام يا مولاي، هؤلاء لا قبل لأحد بقتالهم.

أسقط في يد المستعصم وهو ينظر إليه مصدوما، قائلا في استنكار:

- الاستسلام؟ ماذا تقول يا رجل؟! ألم تخبرني من قبل بأن التترلن ينتووا أبدا مهاجمة بغداد؟ أليس من أجل ذلك سرّحنا الجنود وصرفناهم عن القتال والتدريب إلى الزراعة والصناعة والمعمار؟

أشاح مؤيد الدين بوجهه عن الخليفة في إعراض وهو يقول:

- لا بد لنا من مصانعتهم يا مولاي، فليس من حسن التدبير الوقوف أمام هذه الجيوش الزاحفة كالنمل الجرار، فجنودهم يأكلون الأخضر واليابس في طريقهم كالجراد المنتشر.

صاح مجاهد الدين الداودار الذي كان حاضرا المجلس وهو ينظر إلى ابن العلقمي شزرا:

- بئس الرأي يا مولاي، هذا الصلف الذي يخاطبنا به «هولاكو» لا ينبغي أن يقابل إلا بالقوة والقتال، كفانا خنوعا واستسلاما، فما لهؤلاء من عهد ولا ذمة، وما فعلوه بكل البلاد شاهد على ذلك.

تأمله الخليفة في حيرة ثم نظر نحو وزيره مستنجدا، مما جعل ابن العلقمي يوجه نظرة نارية نحو مجاهد الدين وهو يقول في غل مكبوت:

- بل بئس الرأي رأيك، هذه البلاد التي أتيت على ذكرها لم يصمد فيها جيش واحد أمام قوة التتر الطاغية.

ثم استدار إلى المستعصم قائلا:

- ألا يذكر مولاي ما حدث للإسماعيليين داخل قلعتهم الحصينة التي لم تغن عنهم من التتر شيئا؟

اندفع مجاهد الدين قائلا في حدة:

- تحصينات قلعة «ألموت» لا تبلغ معشار تحصينات بغداد وقلاعها يا هذا.

انطلقت ضحكة ساخرة من ابن العلقمي وهو يقول مستهزئا:

- يبدو أن القائد العظيم قد نسي أصول الحرب والقتال مع طول قعوده ورفه العيش، فلم يعد يستطيع التمييز بين قلاعنا وقلاع الإسماعيليين.

انفجر مجاهد الدين من الغيظ وهو يهتف غاضبا وقد توتر الموقف:

- احفظ لسانك يا ابن العلقمي وإلا جعلتك مثلا لغيرك. ألا يكفيك مراسلتك لهولاكو من خلف ظهورنا؟

ارتفع صوت الخليفة في ضيق وهو يقول منهيا الجدال:

- يبدو أن الغضب يمنعك يا مجاهد الدين من الحكم على الأمر بشكل سليم. لم تكن قلعة الحشاشين أقل تحصينا من بغداد. ومع ذلك سقطت في أيدي التتر. ونحن لم يعد لدينا ما يكفي من الجنود لملاقاتهم والتغلب عليهم. يبدو أن كلام ابن العلقمي كان صحيحا. حين حادثني عن تلك الأبراج العالية. والمجانيق القوية التي جلبوها معهم من الشرق البعيد لدك الحصون والقلاع. وأرى أنه لا قبل لأسوار بغداد ولا لغيرها بالتصدي لهذه الوسائل.

ابتسم ابن العلقمي في خبث وهو ينظر شامتا إلى خصمه. لكن مجاهد الدين سيطر على غضبه وقال في هدوء واثق:

- لكننا لن نمهلهم حتى يصلوا إلى الأسوار يا مولاي.

نظر إليه المستعصم في تساؤل فأجاب مجاهد الدين بنفس الثقة:

- لدينا عشرة آلاف جندي هم من تبقى بعد صرف باقي الجنود إلى الحرف والأعمال بمشورة ابن العلقمي. لكن هؤلاء يكفون لملاقاة التتر خارج الأسوار. هذه هي الفرصة الأخيرة يا مولاي لصد هؤلاء السفاحين القتلة. لقد أخذت بمشورة هذا الرجل كثيرا لتقليل النفقات. حتى لم يصبح لدينا جيش نقف به في وجه أعدائنا. ولو لم نقم بهذا لكان لنا الآن شأن آخر. ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

هم ابن العلقمي بالاعتراض على كلام مجاهد الدين. لكن المستعصم أشار له بيده مستوقفا وقال بإذعان وفي تحول مفاجئ:

- دعنا إذن نجرب خطتك يا مجاهد الدين. لقد حاولنا بمراسلته أن نثنيه رغبا ورهبًا دونما جدوى. حتى إننا قمنا بمهاداته بالهدايا الثمينة طلبا للسلم

وحقنا للدماء، لكنه رد علينا هدايانا وأرسل يهددنا بالويل والثبور. توكل على الله وسر على بركة الله لعل الله يجري على يديك النصر.

تردد مجاهد الدين قليلا ثم شد قامته، ونظر لابن العلقمي في مقت واضح قبل أن يرد بصره إلى الخليفة قائلا:

- رغم أن ذلك قد تأخر كثيرا، لكن سمعا وطاعة يا مولاي، سأصطحب «ابن قُر» لتجهيز الجيش والعتاد تمهيدا لملاقاة التتر من الجانب الغربي.

-٣٨-

نَفَاذ القَدَر

بغداد - الدولة العباسية

٦٥٦هـ | ١٢٥٨م

التفّت الجواري حول المستعصم، كان يجلس فوق الأرائك في استسلام، شاردا مأخوذا لا يلوي على شيء، حاول بعضهن الترفيه عنه، وإخراجه من حالة الوجوم التي تسيطر عليه، لكن جهودهن راحت هباءً، وهو ينظر في الفراغ وكأن عينيه لا تبصرهن.

وقفت إحدى الجواري تلهو أمام أقرانها في أداء مثير للضحك، لعلها تدخل السرور إلى قلب الخليفة الذي كان غائبا تماما عما حوله، ظلت الجارية رائحة غادية، تؤدي حركات راقصة وسط تصفيق أخواتها وضحكهن المتواصل.

فجأة، اخترق إحدى النوافذ سهم ليستقر بظهر الجارية، ترنحت للحظات قبل أن تسقط على وجهها كالحجر.

هب الخليفة واقفا فزعا لسقوط الجارية، سارعت الجواري لنجدتها ملتفات حولها، انحنت إحداهن تتحسسها، ثم رفعت وجهها نحو الخليفة المذهول، وهي تقول بصوت خفيض:

- ماتت عَرَفة.

انعقد لسان الخليفة، وانفجرت الجواري في البكاء، صرخ الخليفة مناديا على حجبته، هرولوا إليه فزعين، زاد فزعهم حين شاهدوا الجارية المسجاة على الأرض مضرجة في دمائها الحارة.

بعد قليل حضر الطبيب، كان يعلم -قبل أن يأتي- أنه لن يفعل شيئا حيال الفتاة القتيلة، لكنه نزع السهم من جسدها، مسحه من دمائها وأعطاه للخليفة، فإذا هو مكتوب عليه:

«إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم».

صرخ الخليفة في الحاجب قائلا بثورة:

- ضعوا الستائر الثقيلة فوق النوافذ، لا أريد لسهم تتري واحد أن يصل إلى داخل القصر.

قال الحاجب في إحباط:

- ولكن يا مولاي، التتر قد احتلوا «الكرخ» في غرب بغداد، وهم على مشارف شرق المدينة، ولو منعتنا الستائر سهامهم الآن، فلن يمنعنا شيء من سيوفهم في ضحوة من نهار.

أجابه المستعصم بثقة غافلة:

- سيقبلون بالصلح، وستعقد الهدنة كما قال الوزير «مؤيد الدين بن العلقمي».

عندها أُلجم الحاجب وكل من حوله، وعجزوا جميعا عن النطق.

سُقُوط بَغْدَاد

لأربعة أيام من اجتياحه بغداد بجيوشه الجرارة، تصاعدت النداءات في وجدان هولاكو، ترددت كلمات مردوخ مزلزلة كيانه:

اقتل المستعصم يا هولاكو.. اقتله.. اقتله.

أربعة أيام كاملة، جلس خلالها هولاكو على عرش الخلافة داخل قصر المستعصم، بينما سُجن الأخير دون طعام أو شراب، تزايد خلالها التحريض على قتل الخليفة، ملأت نفسه رغبته في القتل حتى كادت أن ترتسم في عينيه.

ويوم أن خرج إليه المستعصم راضخا لطلبه بالخروج، لبس الخليفة البردة النبوية التي ورثها بنو العباس، وتحلى بالخاتم وأمسك بالعصا الشريفة، لكنه وضع القلادة فوق صدره إمعانا في التزين والمفاخرة، فما كان من هولاكو إلا أن عامله بالغدر وقتل أبناءه أمام عينيه!

حرص هولاكو على تجويع المستعصم، جرده من أمواله وقصره ونسائه، جلس على عرشه واستباح حرمه الآمن، بينما تستباح دماء البغداديين بالخارج.

استدعاه من محبسه مرات ليستجوبه ويتشفى به، اشتعلت النيران في عينيه عند رؤيته له في المرة الأولى، قال له هازئًا:

- والآن أيها المضيف، ماذا ستقدم لضيوفك؟ من اللائق أيها الخليفة أن تحضر لنا ما يليق بنا!

يومها ظل المستعصم يرتعش مضطربا، قبل أن يحضر لهولاكو صناديق مجوهراته ونفائسه، نظر هولاكو إلى الأموال وصاحبها في غير اكتراث، ثم قال بوحشية وغلظة:

- هذه الأموال يسهل الوصول إليها، وهي ملك لأتباعي. أين ثروتك الحقيقية أيها الخليفة وأين هي دفائنك؟

استسلم المستعصم على الفور. دلهم على حوض مدفون في ساحة القصر مملوء بالذهب. استخرجه جنود هولاكو في زمن قصير. عادوا بسبائك الذهب الأحمر إلى سيدهم. سلط هولاكو نظراته الوحشية إلى المستعصم، قائلا باحتقار:

- أي خسة تتمتع بها يا رجل؟ ألا يستحي الخليفة العباسي من أن يجمع كل تلك الأموال ويأبى أن ينفقها على جيشه وعتاده؟

اكفهر وجه المستعصم أكثر. ارتسمت آيات القهر والتعاسة على وجهه وهيئته، بينما أكمل هولاكو قائلا:

- الآن تملك منك الندم لكنه لن ينفعك، بل استوجبت منا العدم. حتى لو أنفقت ما في الأرض وافتديت به نفسك، فنفسك الخسيسة التي دفعتك لجمع المال وإهمال التحصن بالعتاد والرجال لا تستحق منا الرحمة.

ثم نظر إلى رجاله قائلا:

- خذوه إلى محبسه من جديد. وإياكم أن تعطوه كسرة خبز أو حتى جرعة ماء.

أحاط جنديان من المغول بالمستعصم من الجانبين فقال مستنكرا:

- ألا تقدمون لي ما يسد رمقي أو يروي ظمئي؟ أهكذا تعامل من تغلبه من الملوك؟

تعالت ضحكات هولاكو وهو يقول بشراسة:

- بل سأعاملك معاملة الملوك يا هذا. سأقدم لك الطعام بنفسي، وسأتيك به إلى حيث أنت.

التفت إلى جنوده وقد تحولت لهجته إلى الصرامة قائلا:

- خذوه إلى محبسه فورا.

مرت الساعات كئيبة على المستعصم. صار الآن أكثر تصورا لفكرة الموت. لازم الاستغفار وترحم على أبنائه الذين تسبب في قتلهم. يدرك الآن حجم أخطائه الكارثية التي وقع فيها حين عين ابن العلقمي في الوزارة. أدرك كيف أدى تراخيه وتقصيره في حق رعيته ووطنه وأمته إلى هلاك آلاف البشر.

أجل. هي الأقدار ولا شك. لكنه رغم ذلك شعر بعظم الثقل الذي حمله طوعا. تلك الآثام الفادحة التي اقترفها دون أن يشعر. أرواح صعدت إلى بارئها غيلةً وقهرًا. دون جريرة سوى أن خليفتهم كان ضعيفًا جبانًا. وقد وثق فيمن لا يستحق الثقة. وأساء تقدير أمورهم ولم يحسن التدبير ولم يرعَ الأمانة حق رعايتها.

بعد ساعات فُتح الباب ودخل إلى الغرفة هولاكو يسبقه جنديان من المغول. نظروا إليه وقد افترش الأرض جالسا في تهالك. وضع أحدهم أمامه وعاءً من أوعية الطعام. أشار هولاكو إلى الوعاء قائلا:

- أتيتك بالطعام بنفسي أيها الخليفة. هيا.. تناول ما به.

نظر المستعصم إلى الوعاء بعينين فقدتا بريقهما من شدة الجوع والحزن. ثم رفعهما إلى هولاكو بضعف وهو يقول:

- لكنه ليس طعاما.. إنه ذهب!

أجابه هولاكو في شماتة:

- عرفت إذن أنه لا يؤكل. لماذا كنزته ولم تنفقه على جندك كي يصونوا ملكك الموروث من هجماتنا؟

أطرق المستعصم خجلا. فازدادت شراسة هولاكو. وتزايدت رغبته المحمومة في قتل المستعصم. طرق بإحدى قبضتيه بقوة على باب الغرفة الحديدي بجواره وهو يزأر بوحشية:

- لماذا لَمْ تصنع من تلك الأبواب الحديدية في قصورك سهام تقاتل بها أيها الجبان؟

تزايد شعور الخليفة بالندم وتأنيب الضمير وهو يجيب مطرقا برأسه نحو الأرض:

- هكذا كانت أقدار الله.

صرخ هولاكو في صيحة هادرة:

- كذلك ما سيجري عليك إنما هو أيضا من أقدار الله.

تركه هولاكو خلفه، أمر بإغلاق الغرفة ثانية، غير عابئ بتهالك المستعصم وإعيائه اللذين بلغا مبلغهما، استلقى المستعصم على أرض الغرفة وقد بدأ الضعف يدب في أرجاء جسده، حتى نال من عقله وسلبه وعيه، تمتم بكلمات التوبة في غمرة صرعته، يلتمس بها من ربه الغفران، غاب عن وعيه مرات عدة، لم يدر خلالها كم مر عليه من الوقت.

في نهاية اليوم اقتحم الغرفة جنديان، انتزعاه من إغفاءاته، اقتاداه إلى ساحة القصر وهما يجرانه جرا، كان عاجزا عن شد قامته، وفي الساحة.. اجتمع حشد من جنود التتار انتظارا لأوامر قائدهم.

أما هولاكو فقد جلس فوق أحد المقاعد العباسية الفاخرة، نقلوا له المقعد المزخرف إلى الساحة وأعدوا له المجلس كما أمر، وفوق صدره تدلت قلادة براقة استولى عليها من جملة مقتنيات المستعصم، كانوا قد سلبوا المستعصم قلادته، ضموها إلى غيرها مما وجدوه في خزانته، تخير منها هولاكو ما شاء وترك البقية لنسائه، حرص على مشاهدة ما أمر به جنوده، استحوذت عليه نوبة من التوحش، نوبة تختلف عن دوافعه المعتادة في القتل، فهذا الذي أزهق أرواح الملايين وهو يملؤه السرور، لن يسيطر عليه انفعال ضعيف لقتل خليفة، لكن رغبته في قتل ذلك الرجل بالذات فاقت كل رغباته السابقة، هي حالة غير اعتيادية تملكت منه منذ شهور، لكنها بلغت ذروتها في تلك اللحظة، سيطرت عليه حالة التوحش، كان مردوخ هو من يحرك هولاكو هذه المرة ويدفعه للقتل بوسيلة متفردة.

أمرهم بأن يأتوا بالمستعصم من محبسه. ليقتلوه أمامه في ساحة القصر. أشار عليه حكمائه بأن يتوخى الحذر. نصحوه بألا يريق دم الخليفة العباسي على الأرض. خشية أن تصيبهم لعنة السماء فتمطر عليهم دما. أو أن تظلم الدنيا كما كان يتردد في النبوءات. هكذا أتى العسكر بجُوالٍ من الجلد حتى لا تمس دماؤه الأرض. حشروا بداخله جسد المستعصم. كان مستسلما في حالة أقرب لفقدان الوعي. تركوه بالساحة وانتظروا الأمر من هولاكو الذي تملكته حالة عجيبة. اشتعلت عيناه دون أن ينطق بكلمة. تصاعد النداء من جديد:

- اقتل المستعصم.. اقتل المستعصم.. اقتل المستعصم..

بلغ التحريض حدا ضاقت به نفس هولاكو. فرفع يده وأشار للعسكر فبدأ العرض. رقصة الموت تصاعد إيقاعها بحركات محمومة. اندفع الجند من كل صوب نحو الجسد المستسلم داخل الجوال. رفسوه بأقدامهم. تنافسوا على كيل الركلات وتسديدها إلى كل نواحي الجسد الخالي من نسمة الحياة. لم يضره ما فعلوه فقد فارق الوعي قبل أن تبدأ حفلتهم البربرية. بعد انتهائهم.. أتى بعض الفرسان بخيولهم ودهسوه تحت سنابكها إمعانا في القضاء عليه. قُتل الخليفة رفسا بالأقدام. كان عليهم أهون من أن يقتلوه بالسيف كما يقتلون الرجال.

-٤٠-

في غَيَابَات القَبْر

- سأموت يا أماه!

قالتها الصبية بصوت واهن. وهي في أحضان أمها الجالسة على أرضية قبر عتيق مهجور في أطراف بغداد. بينما استلقى أخواها الصغيران بجوار أمها وهما في غاية الإعياء. قاومت الأم نفس الإعياء من أجل أبنائها. كانت تنازع دوارا عنيفا من قلة الغذاء. لكنها ظلت تقاوم ضعفها المستمر. لازمها الوهن منذ ما يزيد على خمسة أسابيع. هي الفترة ذاتها التي ظل التتار يعيثون فيها فسادا داخل بغداد بعد اجتياحها. يعملون القتل والحرق والتدمير بكل ما تقع عليه أيديهم. لم تر الأم كل هذا. لكن زوجها -الذي يختبئ بدوره داخل بئر جافة على طرف أحد الأحياء- كان يخبرها بما يجري كلما أتى إليهم خفية. ليزورهم حاملا بعض الخبز المقدد والماء الآسن. لقيمات ضئيلة يقمن صلبها وصلب أبنائها. وجرعات شحيحة من الماء تستحييهم. نجح الأب في أن يمدهم بها ويبقيهم على حافة الحياة. مخاطرا بذلك بهم قبل أن يخاطر بنفسه. مغامرة غير مأمونة العواقب ظل يمارسها الأب كل بضعة أيام. فلو أن أمره قد انكشف -وقتل بيد مغولي داخل أحد الطرقات- لانضم إلى عشرات الألوف من جثث البغداديين المتراكمة فوق بعضها البعض. ولانتهى الحال بزوجته وأبنائه إلى الموت جوعا. مقبورين داخل مدفنهم الجاهز.

ضعفت أنفاس الابنة في أحضان أمها. هبط شعور ثقيل. جثم على المكان الموحش فزاده وحشةً وقفرًا. حلق فوقهم الموت. اشتموا رائحته. شعرت به الأم وكأنه جالس على مقربة منهم. كجائع نَهِم في انتظار وجبة بشرية. ومع كل

ساعة تمر بهم وهم على ذلك، كانت ابتسامة الموت تزداد اتساعا، ممنيًا نفسه بظفره القريب.

تأخر الأب ليومين فنفد ما ادخرته الأم لأبنائها من كسرات الخبز الصلبة. لم يعد لديها سوى قطرات من الماء. أخذت تبلل بها شفتي ابنتها من آن لآخر. أدركت الأم أن ابنتها تحتضر. لم يكن ابناها النائمان بجوارها أفضل حالا منذ يوم مضى. جال بخاطرها المكدود لو أن الأب قد لقي ربه، فهم حتما سيتبعونه إلى الآخرة في الساعات القليلة القادمة. غالبها الشعور بالوهن وكادت أن يغشى عليها. خطر لها أنهم في كل الأحوال سيلقون ميتة رحيمة لن يشعروا معها بالألم. كل ما هنالك أنهم سيفقدون وعيهم ثم يفارقون الحياة وهم نائمون. لم يبق لهم إذن سوى عبور بوابة الحياة إلى الجانب الآخر.

هي ميتة رحيمة في كل الأحوال مقارنةً بموتهم على أيدي وحوش المغول الآدمية، التي تفترس ضحاياها بالخارج في طرقات بغداد وبيوتها.

بدأت في الاستسلام لصرعة الموت، غابت ابنتها عن الوعي وشحب وجهها، هربت الدماء من شفتيها حتى استحالتا كورقتي شجر ذابلتين أوشكتا على السقوط من شجرة الحياة. سقط جفنا الأم رغما عنها ووهنت حواسها، بدأت الغيبوبة تزحف نحو أطرافها ورأسها.

فجأة تناهى إلى مسامعها الواهنة صوت تألفه جيدا، صوت أنعش الأمل في قلبها المحتضر، صوت أحجار القبر تتحرك من أعلى. تنافى عندها الشعور بخطر أن يكون الآتي من أعلى شخص بخلاف زوجها، فحضور أحد السفاحين لقتلهم لن يمثل فارقا كبيرا وهم على تلك الحال، لن يجد أحدهم سوى بضعة جثامين مسجاة على الأرض خالية من الحياة، فعلام يكلف نفسه بسفك دماء أربعة من الأموات!

تسلل الضوء بوهن يناهز ضعفهم إلى حيث يرقدون، عجزت عيناها الكليلتان عن إبصار الضوء، تساوى في مقلتيها النور والظلمة ولم تعودا تقويان

على ممارسة عادتها في إبصار الموجودات.

هبط الرجل درج القبر متوجسا وهو يتوقع الأسوأ. وقف يتأملهم حاملا ما أتى به من مؤنة. اقتنصها لينقذ بها ذويه من براثن الموت. تأمل وجوههم الشاحبة بقلب محطم. نادى على الأم بوجل لعل جوابها يبدد هواجسه. مضت لحظات ثقيلة حتى جاهدت وهنها وبذلت جهدا مضنيا لرفع جفنها الثقيلين. ونظرت إليه نظر المغشي عليه من الموت.

تضاعفت آمال الرجل وهو يضع أحماله وينحني نحوها واضعها كفيه على وجهها. أخرج قربة الماء وأخذ يبلل شفتيها، ثم أعاد الكرة مع كل أبنائه قبل أن يتحسس أنفاسهم جميعا. اطمأن لبقائهم جميعا على قيد الحياة فاسترد أنفاسه الهاربة.

أحاط كتفي زوجته بذراعه، وأجلسها ببطء ثم بلل وجهها بيده ببعض قطرات من ماء القربة. انتظر لبرهة من الوقت حتى بدأت في استعادة بعض أنفاسها. قرب قربة الماء من فمها ودفع جرعة من مائها بين شفتيها. ابتلعتها المرأة فسعلت بعنف. انتظر الرجل حتى هدأت وقد استبشر بسعالها. بدأت أنفاسها تنتظم. عادت الدموية إلى وجنتها ببطء تحت بصيص من الضوء الخافت. تركها حين تأكد أنها قادرة على مواصلة الجلوس دون مساعدة. استدار إلى ابنته وسرب قطرات الماء من بين شفتيها. لفرحه الغامر سعلت ابنته كما فعلت أمها منذ لحظات. كرر ما فعله مع الولدين. بعد أقل من ساعة نهض أربعتهم وكأنهم يبعثون من مرقدهم بعد موات. استيقظ وعيهم لمرأى راعيهم، الذي لاح أمام نواظرهم كملاك حارس. ابتسم الرجل في ذبول ثم انحنى نحو قربة مماثلة. كان أفضل ما يفعله هو أن يروي أحشاءهم الظمأى باللبن. العسل قد يقتلهم بعد هذا الإعياء. هكذا تعلم من أرباب القوافل. والمزيد من الماء لن ينجح في إفاقتهم أكثر مما فعل. أما ما أحضره من غذاء وخبز لم يحن وقته بعد. لن يجد أمثل من اللبن. لذلك تجشم العناء وتحمل المخاطر

والصعاب من أجل أن يجلبه إليهم. بعد جرعات من اللبن توردت وجناتهم وعادت إليهم أمارات الحياة.

- كيف تمكنت من جلب هذا الطعام والحضور إلينا؟

أجفل الرجل لسماع صوت زوجته الأقرب إلى الفحيح. نظر إلى عينيها التي أطفأها الجوع والظمأ. أدار عينيه في وجوه أبنائه. وحمد الله متمتما بكلمات قليلة قبل أن يجلس أمامهم. وبتهد بحرارة قائلا:

- يعلم الله وحده كم عانيت في تلك الأيام. لكن قدّر الله أن تنتهي محنتنا.

التقط أنفاسه من جديد. ثم واصل حديثه قائلا:

- ها نحن ذا منذ اجتياح التتر لبغداد. وقتلهم كل من صادفهم. بل كل من خرج إليهم مستسلما والحال من سيئ إلى أسوأ. قتلوا الجميع بلا استثناء. من أصغر الجنود وحتى الخليفة ذاته. لم يسلم منهم صغير أو كبير. أعدموا كل من قدروا عليه. أخرجوا من المدينة أهلها وذبحوهم كالنعاج على مرأى من الأحياء حتى يحين دورهم وهم ينظرون.

أطلق تنهيدة أعقبها بزفرة حارة وهو يواصل حديثه:

- أربعون يوما اجتاحوا فيها طرقات بغداد وحوانيتها وقصورها. أزهقوا كل نفس وجدوها. نهبوا وحرقوا كل ما وقعت عليه أيديهم. أحرقوا المساجد والمدارس ومقابر الخلفاء. وذبحوا كل من وجدوه في الطرقات أو في البيوت والحوانيت والقصور أو فوق الأسطح والحانات. قتلوا العلماء والفقهاء والخطباء وحملة القرآن. استباحوا الأعراض وسبوا النساء. تراكمت الجيف في كل مكان وسالت الدماء في الطرق أنهارا جارية. لم يسلم منهم إلا من اختبأ مثلنا في الآبار وقنوات المجارير والقبور البعيدة.

صمت قليلا ترقبه الأعين المفعمة بالخوف واليأس ثم قال:

- كنت مختبئا داخل إحدى الآبار المهجورة. مكثت بداخلها طوال الليل والنهار. لم أكن أخرج إلا في ساعة متأخرة قبل الفجر. أجمع فيها ما تيسر من

الخبز القديد وبعض الماء، ثم آتيكم به كل بضعة أيام. إلى أن اشتدت الحال في الأسبوع الأخير، وصعب عليَّ الخروج من البئر، واضطررت لأكل ما كان بحوزتي حتى أقاوم الموت.

صمت من جديد وتجلت على وجهه أمارات البؤس وهو يستعيد تلك الساعات العصيبة ثم قال:

- أدركت وقتها عند عجزي عن الخروج من مكمني أنني ربما أفقدكم مع نفاد مؤنتكم، ولم أدر وقتها ماذا أفعل، فلجأت إلى الله ورجوته أن يرحمني وإياكم، وألا يطيل علينا ساعات العسرة، ولينجينا مما نحن فيه أو ليقضي أمرًا كان مفعولا.

ظهر التأثر على وجوه الأم وأبنائها وانسابت دمعة على وجنة الرجل وهو يقول:

- عندها نزل الفرج من الله، حين سمعت من داخل مكمني صوت المنادي يزف خبر الأمان ويحث المختبئين في أوكارهم على الخروج من مخابئهم، خرجت مستبشرا بعد أن تقطعت بي الأسباب، وعلمت بعدها أن من تبقى من أهل بغداد قد أوفدوا شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنجاني إلى هولاكو قائد التتر لطلب الأمان، فأمر هذا بوقف النهب والقتل وإعطاء الأمان، ذهبت بعدها إلى أحد التجار النساطرة وبعض السريان وبعت لهم خاتمي وبعض الحلي التي تبقت معي، وابتعت هذا الطعام واللبن، وبعض الماء من تجار الحلة والكوفة الذين بدؤوا في التوافد على بغداد لبيع الطعام، وشققت طريقي إليكم على أمل أن أجدكم أحياء.

طال صمت الجميع بعد كلمات الرجل، وكانت الأم أول من تكلم بصوتها الخفيض قائلة:

- أهذا يعني أنه يمكننا الخروج من هنا؟

أجابها الرجل:

- أجل، يمكننا ذلك، عاد من نجا من أهل المدينة إلى ما بقي من بيوتهم

وحوانيتهم. هؤلاء التجار المسيحيون -الذين أعطاهم التتر الأمان على أموالهم وأنفسهم بتوصية من زوجة هولاكو النسطورية- فتحوا الأسواق من جديد. وباقي التجار افتدوا أنفسهم وأهليهم بأموالهم. الكثير من الشيعة كذلك نجوا عندما لجؤوا إلى دار الوزير ابن العلقمي. أما اليهود فقد كانوا بعيدين عن أي خطر. كل هؤلاء افتتحوا الحانات من جديد وعادت الأسواق اليوم للبيع والتجارة. الآن لم يعد لنا سوى الخروج من هنا والعودة إلى دارنا التي صارت خاوية على عروشها.

استمر صمت المرأة لبعض الوقت وأطرقت نحو الأرض في خواء. فسالت على وجنتها دمعتان شحيحتان قبل أن تقول بصوتها الضعيف:

- لم يعد لدي رغبة للبقاء في هذا البلد. لم تعد تلك ديارنا الآن. بعد أن دنستها أقدام هؤلاء السفاحين واجتاحتها الشياطين. هذه الأرض أصبحت محملة بلعنة دماء أهلها إلى الأبد.

أطرق الرجل بدوره وهو يقول في خيبة أمل:

- لا يوجد مكان آخر تحت أديم السماء يمكنه أن يُقلُّنا يا امرأة. هذه الوحوش ستجتاح كل مكان آخر. وما داموا قد قضوا وطرهم من بغداد فلا أراهم يفعلون أكثر مما فعلوا بها. لا أراهم يرغبون في قتل من تبقى من شراذم قليلة: بعد أن أفنوا مئات الآلاف في أسابيع. سنعيش هنا كما شاءت أقدار الله. فالله وحده يعلم لماذا بقينا نحن دون غيرنا على قيد الحياة.

نظر إلى أبنائه وهو يدنو منهم فاتحا ذراعيه وضم ثلاثتهم نحوه قائلا:

- لعل الله قد أراد أن يخرج من ذريتكم من يعمر هذه البلاد من جديد. وربما يقوم واحد من أحفادكم بمهمة ما. لا يعلمها إلا الله.

-٤١-

الميرَاث الضّائع

افترش الأرض شاب ثلاثيني مهلهل الثياب، داخل بيت من البيوت الخشبية، بأحد الأطراف القصية المطلة على نهر دجلة في بغداد، ممسكا بيديه كتابا ظهر على أطرافه آثار المياه، ومحى البلل بعض سطوره وأربك كلماته، حالة من الكآبة ألمَّت بالرجل، وسيطر عليه الوجوم حتى نضح على وجهه وأزرى هيئته، وضع الكتاب على مسند خشبي أمامه بعد أن تأمله كثيرا وقلَّبه بين يديه، وعلى وجنتيه سالت قطرات من الدمع الحار، انسابت من عينيه وانحدرت حتى سقطت فوق صفحات الكتاب لتزيده بللا على بلله، تأمل الكلمات المتراصة على غلافه من جديد:

«المفردات في غريب القرآن»، وأسفل العنوان استقر اسم مؤلفه «الراغب الأصفهاني»، تأمل الكلمات من بين دموعه، وتساءل في نفسه:

«ماذا لو كان الرجل يعلم -حين خط كلماته تلك- أن مصير كتابه سيكون الإلقاء يوما إلى مياه النهر، لتمحو ما أنتجته قريحته وخطته أنامله؟ أكان سيخط سطورها حينئذ؟».

خطر بباله، أن كل من خط سطرا في كتاب من الكتب الملقاة في النهر، كانوا سيموتون قهرا لو أنهم علموا يوم تدوينها، أن مصير ما أفنوا أعمارهم من أجل إخراجه للناس سيكون الدمار في مياه النهر، على أيدي طغمة من الهمج المتوحشين!

قرر في نفسه أن يفعل الآن ما قد يوثق هذه الكارثة، هو طالب علم طالما جلس تحت أقدام العلماء، وجالس الفقهاء والأدباء، سيوثق ما جرى على أولى

صفحات هذا الكتاب بكلمات قليلة. سيفعل ذلك في كل كتاب ينتشله من النهر. لعل من يأتي بعده يعي قيمة ما تنتجه عقول البشر مخطوطًا فوق تلك الأوراق. تلك الكتب التي يهملها الإنسان ويعاملها بقسوة وامتهان. لو أن أهل كل عصر اجتمعوا ليروا ما رآه اليوم، لقدسوا كل كتاب، ولوضعوا ما تطاله أيديهم من كتب في خزائنهم المحصنة بدلا من أموالهم. فما رآه في تلك الأيام أمات فؤاده، وشرخ روحه، وكاد أن يذهب عقله. شأنه في ذلك شأن كل من عاين تلك المحن الكبرى.

طامتان نزلتا عليهم من سخط الله. أولاهما: هلاك الكثير من البشر مما يخطئه العد على أيدي التتار. سقط مئات الآلاف ببغداد وما سبقها من بلاد.

وأما ثانيتهما: فدمار نفائس الكتب التي جاوزت أعداد الهالكين من البشر. يومها اندفع التتار إلى أروقة «بيت الحكمة» -أضخم مكتبة على وجه البسيطة- وحملوا من داخلها القناطير المقنطرة من نفائس الكتب واتجهوا بها إلى النهر. المصير ذاته طال خزانتي كتب المدرسة النظامية والمستنصرية. أحرقوا بعضها وتركوا البعض وجبة سائغة لمواقد طعامهم. ألقوا بمعظمها إلى مياه دجلة حتى انسد مجراه. استحالت مياهه إلى السواد من كثرة المداد. لم يسلم من أيديهم سوى ما أخذه نصير الدين الطوسي ونقله إلى مرصده في مراغة. إضافةً إلى ما اقتنصه منها رشيد الدين فضل الله الذي صار وزيرا للمغول ونقل ما نقله إلى تبريز.

أقدم هولاكو يومها على فعلة لا تقل نكارة عما فعله جنوده. أتى بالبردة النبوية وبالعصا الشريفة التي تلقاها العباسيون من ميراث النبوة. البردة والعصا اللتان لازمتا كل خليفة عباسي منذ لحظة تقلده الخلافة وحتى مماته. سلبهما هولاكو من المستعصم وسط سائر الغنائم. وضعهما في وعاء نحاسي كبير. أحرقهما حتى صارتا رمادا. ثم ذر رمادهما في النهر ليختلط ما تبقى من ميراث العلم الضائع بميراث نبي المسلمين. فدين آبائه علَّمه أن تلك المقتنيات

ينبغي لها أن تتطهر من الدنس الذي لحق بها من دماء؛ حتى لا تنتقم منهم أرواح الأجداد التي تسكن مقتنيات أصحابها. ويا له من اعتقاد!

ظل الشاب يتحسر على كل ما ذهب مع ماء النهر من ذخائر الفقه والحديث والتفسير والرقائق واللغة والتاريخ. وحتى كتب علم الكلام لم تسلم منهم.

لم ينج من تلك الفعلة سوى ما نقله الرجلان الشيعيان من كتب العلوم والفنون الأخرى. خاصة كتب الفلك التي يقدرها الطوسي ويعظمها هولاكو.

خطر في باله كم كان الطوسي رجلا داهية. كان مرجعا شيعيا كبيرا. لكن الأهم من ذلك أنه كان عالما لا نظير له. لم يظهر في أمة الفرس عالم بالرياضيات والفلك والأحياء والكيمياء والفيزياء وحتى الفلسفة مثلما كان هو!

لم يعرف هل يحتقره في نفسه ويستصغره في عينيه. أم يُجله لما يحمل من علم؟ أمن المعقول أن كل هذا العلم لم يمنع الرجل من التضحية بكل تلك الكتب الهالكة في سبيل مجده الشخصي ومجد طائفته؟ أيضحي الطوسي بكل ما هلك من كتب. مثلما فعل ابن العلقمي حين ضحى بأهل بغداد؟ أم كانت له أهداف خفيّة لا يعلمها سواه؟

تصاعدت الحسرات في نفسه. طفقت عيناه تذرفان الدمع وهو يصطرع بين أمواج تلك الخواطر المأساوية. وترددت أصداؤها تهز كيانه..

- آهٍ يا بغداد يا زهرة البلاد وحاضرة الأمصار. كم تبددت بكِ من ذكرى عزيزة. وكم ضاع بكِ من نفائس العلوم والصحف والذخائر الثمينة على أيدي هؤلاء الأوغاد. وكم فنيت بكِ أعراق من البشر لم يُقدر أن يكون لها ذرية من الأبناء على ظهر الأرض بعد هذا اليوم. هؤلاء الوحوش المتجردون من الآدمية. صعدوا فوق قمة المنارة الإنسانية التي شيدها البشر عبر تاريخهم ليُتَبِّروا ما علَوْا تتبيرا!!

هكذا ترددت في نفسه صدى تلك الحسرات. لكنها ما عادت تجدي نفعا. حتى اللعنات لم تعد لتفيد. ذهب الرجلان بنفائس علوم البشر. ولم يبق منها

سوى القليل ومنها هذا الكتاب الذي بين يديه، لربما كان أثمنها جمعاء.

سيوثق هذا الحدث على صفحات الكتاب، وسيرافقه حتى الممات ولن يبرحه أبدا ما دام على قيد الحياة. هذه سطور سيخلِّدها الزمان، ولو انمحى مدادها من فوق الورق فسيأتي يوما من ينقلها إلى كتاب آخر ويقص على أهل زمانه ما جرى في تلك العصور. أمسك قلمه من داخل محبرة وضعها أمامه بجوار المسند الخشبي، وبيد مرتعشة كتب:

«انتشلت هذا الكتاب من نهر دجلة بعد أن رماه التتر لعنهم الله. وذلك سنة ستمائة وست وخمسون من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنا الفقير إليه تعالى«محمد بن أحمد بن أبي بكر بن أبي فراس بن سعد».

-٤٢-

جَزَاءً وِفَاقًا

جلس الوزير مؤيد الدين بن العلقمي في ديوان الوزارة ببغداد واجما يعتصر قبله الندم، ها هو قد أنفذ مخططه، وكان له ما أراد من القضاء على الخلافة العباسية والخلاص من الخليفة. جرأ هولاكو وأطمعه في اجتياح بغداد. انتقم من خصمه اللدود ومنافسه العنيد مجاهد الدين الداودار. اقتص لطائفته الشيعية من خصومهم. تخلص من الجميع بضربة قاصمة وبسلاح غيره. حافظ على كرسي الوزارة كما أراد. وها هو يقضي شهره الثالث محتفظا بمنصبه. صحيح أنه لم ينفرد بالوزارة، بل شاركه فيها وزير آخر عينه هولاكو، لكن هذا لا يهمه الآن، وقد قضى على جميع منافسيه وأعلى من شأن طائفته وحماهم ونصرهم.

لكن.. هل هذه هي بغداد التي أراد الظفر بسلطانها؟

صارت مدينة من الموتى. جُيِّفت أجسادهم. تفشى في أرجائها رائحة الموت والفتن والطاعون. ساد الغلاء والخراب في جنباتها. عم الكساد وبارت السلع. شحَّت المؤن وعزَّ الطعام. ذهب الخصوم وذهب معهم الجاه والعظمة. وحل محلهم النكارة والهوان وقلة التقدير والاعتبار.

بات يشعر بالذلة والدونية. جرحته الاستهانة من أراذل جند التتار. حدث نفسه بأن هذا لن يستمر طويلا، فربما رحل التتار عن بغداد إلى غيرها من البلاد كالشام ومصر، ووقتها تخلو له الأجواء، وتصير بغداد إمارة لبني طائفته كما أراد. لكن الأمور كانت تسير من سيئ إلى أسوأ!

تنازعت نفسه بين الرضا بخلاصه من خصومه وتحقيق مآربه، وبين

انحطاط مركزه وتدني مرتبته. فلم يقدر على حسم أمره. ظل حائرا وغرق في وجومه أكثر. فانكمش على نفسه في مجلسه بلا حراك. قضى ساعات اليوم لم يتفوه خلالها بكلمة واحدة.

قبل انقضاء يومه تعالى صوت سنابك فرس داخل رواق الديوان. تملكته الدهشة حين اقترن الصوت بمشهدٍ صادمٍ. رأى أحد فرسان المغول مقبلا عليه داخل قاعة ديوانه. أخذ يقترب منه حتى صار في مواجهته دون أن يهبط من فوق صهوة جواده. وطأ بفرسه البساط أمام الوزير الذي رمقه باستنكار دون أن يجرؤ على الاعتراض بكلمة واحدة. خاطبه المغولي بكلماته العربية المحطمة فلم يفهم من كلامه شيئا. لا لركاكة ما يقول ولكن من عِظَم الموقف. استمر المغولي في حديثه الركيك من فوق فرسه. غير عابئ بوجوده في ديوان الوزارة. ولا بوقوفه أمام الوزير الذي كان الأعيان يقبلون عتبة داره قبل شهور قليلة ويهرول الجند لخدمته ليل نهار. الآن يغشاه المغول بأفراسهم ويطئون بساطه بسنابك خيولهم. حتى الجواد نفسه لم يعبأ كصاحبه بالوزير. ولا بديوانه ولا ببساطه الذي امتد تحت أقدامه. فتبول على البساط دون تحفظ. بل أصاب رذاذ بوله ثياب الوزير الذي انتفض في مكانه. دون أن يجرؤ على إبداء سخطه بكلمة اعتراض. ولا على القيام من مجلسه. قرر أن يصبر على هذا الهوان. وأن يظهر قوة النفس وكأن شيئا لم يكن. اعتراضه الآن سيجُر عليه غضب هولاكو. وسخطه سيفضح ندمه للناس. لذلك آثر الصمت وابتلاع المهانة. هذا ما كان ينقصه في هذا اليوم الذي أبى إلا أن يحمل إليه صفعة قاسية. قبل أن تنقضي ساعاته ويمضي بلا عودة كباقي أيامه طاويا الندامة والحسرة في ثناياه.

في اليوم التالي. أتاه رجل من بغداد ينتمي إلى طائفته يطلب منه حاجة. فأجابه إليها. لكن الرجل قال له قبل أن يخرج:

- أعز الله مولانا الوزير. لقد فعلت كل ما فعلت ونصرت طائفتك حمية لها. وحميتنا وحفظت أرواحنا. لكن لعلك تعلم أنه قد قتل من أشراف آل البيت

خلق لا يحصون، وارتُكِبَت الفواحش مع نسائهم، وافتضت بناتهم الأبكار مما لا يعلمه إلا الله. أخبرني بالله عليك، لماذا ارتضيت بهذا؟!

زاغت عينا ابن العلقمي وهو يقول منفعلا:

- يا هذا، إليك عني، فإني ما فعلت ذلك إلا من أجلكم، وانتقاما لكم من مجاهد الدين الداودار، هو ومن كان على مثل رأيه جزاءً لهم على ما فعلوه بكم بالكرخ. وهذه بتلك. أما وقد قُتل فلا مبالاة لي بذلك.

بدت علامات الاستنكار وعدم الاقتناع على وجه الرجل فانصرف دون أن يعقّب. لكن كلمات الرجل وقعت بموقع عظيم من نفس ابن العلقمي. ازدادت حسرته وتعاظم ندمه. قام من مجلسه قاصدا بيته. زالت لديه الرغبة في استكمال عمله في ذلك اليوم، لكن صادفه عند باب الديوان رجل مغولي من رجال هولاكو. ابتدره منذرا بلهجة تحمل التهديد الواضح:

- أيها الوزير، نحتاج إلى الشعير فورا. تأخر علينا التجار، ولن يصبر الفرسان على الجوع. تدبر أمرك وإلا رفعنا الأمر لـ«هولاكو خان». ولا أراه سيكون مسرورا بذلك.

تجهم وجه ابن العلقمي وزادته كلمات الرجل غما على غمه. ركب فرسه وهو يقول للرجل:

- اصحبني إذن حتى تستطلع الأمر.

امتطى المغولي فرسه وسار به بجوار فرس الوزير في طرقات بغداد. مرت فرقة مسرعة من فرسان التتار بجوارهم في الطريق. صاح قائدهم في غلظة وقلة كياسة:

- أفسح الطريق يا هذا لفرسان الأرض.

قالها وأتبع قوله بضربة من سوطه لجواد الوزير أفزعت الجواد، ودفعته للتنحي جانبا بحركة حادة. كاد أن يسقط لها ابن العلقمي من فوق ظهر الجواد. مرت فرقة الفرسان بجوارهم مسرعة وهو يرمقهم بسخط صامت. تصاعد

والخيبة. تجمد في مكانه فوق فرسه غير مصدق لما
تموده حتى صاح فيه المغولي الذي صحبه ينهره على
حترام. كان هذا أكثر من قدرته على الاحتمال. وزير
ي كان يسير في موكب يضاهي موكب السلطان ذاته.
مربون فرسه في الطرقات لإفساح الطريق!
تملت إليه ما هو أسوأ. ارتفع صوت امرأة عجوز
البداية من إحدى طاقات المنازل- تناديه قائلة:
ام أمير المؤمنين المستعصم يا ابن العلقمي؟
يسار بعدها وهو لا يعي ما يدور من حوله. حطمت
في حسرته وندمه وظل واجما إلى أن أتم المهمة مع
انقطع ببيته أياما كثيرة. عض أنامله من الغيظ
رة والندامة حتى توقف عن النبض!
تأ بوزارة ولا سلطة ولا جاه. حاملا معه إثم ألوف
ري كخصومه. بل مات بسيف أشد فتكا هو سيف

-٤٣-

الزَّهوْ

تعلقت أعين جلساء هولاكو بالقلادة البراقة التي استقرت على صدره، جلس في زهو فوق مقعده الوثير، داخل خيمته بمعسكر التتار الذي ضُرب خارج أسوار بغداد المهدمة، لم يعد المغول قادرين على الإقامة بها بعد أن حفلت بجثث القتلى، تصاعدت منها رائحة الموت قبل أن ينتشر بها الطاعون والأوبئة.

لمح هولاكو التساؤل في عيون الجالسين، فبادرهم هو بإجابة تحمل نفس الزهو البادي على هيئته:

- أرى أن قلادتي الجديدة قد استحوذت على انتباهكم.

نضح الانتباه على وجوههم، وطفا فضولهم المكتوم على السطح، وهم ينقلون أبصارهم بين وجه هلاكو وقلادته، أخذت القلادة تتلألأ وكأنها تدرك أن الحاضرين يشاهدونها ويتحدثون عنها، انتقل إليها زهو صاحبها بها كأنها تملك مشاعرها وإرادتها الذاتية، في حين تابع هولاكو بنفس اللهجة:

- هذه القلادة ليست للمفاخرة والتباهي فحسب، لكنها تعني الكثير بالنسبة لأمتنا العظيمة التي تحكم الآن أعظم امبراطورية على مر الزمان.

راقبته أعين حاشيته في صمت فتابع هولاكو:

- هذه القلادة لها دلالات قوية، إنها ثمرة تفوق جيوشنا وشعبنا الشجاع على كل ما عداه من الأمم الأخرى.

لم يجرؤ الحاضرون على مقاطعته، فقام من مقامه عاقدا يديه خلف ظهره، وهو يجول بأرجاء الخيمة التي تضمهم متابعا في خيلاء:

- هذه القطعة الثمينة -ومثيلاتها مما حصل عليه عسكرنا من كل المدن

والممالك التي ظفرنا بها- هي أكبر دليل على تفوقنا وتحقيقنا لجميع أهدافنا، وقضائنا على جميع من تجرأ وحاول الوقوف في وجوهنا.

ثم التفت إليهم ناظرًا في وجوههم وهو يستدرك حديثه:

- حصيلة ونتاج صنائعهم، وذخائر أموالهم، وأثمن مدخراتهم وقعت في أيدينا، وليس هذا فحسب.

لمعت عيناه في ظفر جشع وهو يقول:

- بل أدق أسرارهم وخلاصة معارفهم وخبيئة مقدساتهم كذلك.

سأله أحد الأمراء قائلا:

- وما هي خطوتنا التالية يا هولاكو خان؟

رمقه هولاكو بنظرة تملؤها الشراسة وهو يقول:

- سنكمل زحفنا نحو الشام، وسنستولي على كل المدن والإمارات مثلما فعلنا بنظيراتها السابقة، بل سنسقط كل المدن في طريقنا إلى «بُخش الفأر».

ارتسمت الدهشة على الوجوه، فبادره مساعده «كتبغا نوين» متسائلا:

- وماذا يكون «بُخش الفأر» هذا يا هولاكو خان؟!

ابتسم هولاكو بنفس الوحشية قبل أن يجيبه:

- المعبر يا «كتبغا نوين»، الأرض التي تؤدي إلى كل ما حولها، القطر الذي تفر إليه كل الفئران لتختبئ من مواجهتنا، لكننا سنستولي عليه لنجعله مركزا لنا للذهاب حيث نريد، إنها الأرض التي فشل الصليبيون في الاستيلاء عليها حين أرسلت محرضا لهم على غزوها قبل عشر سنوات، إنها مصر!

بدت على «كتبغا» وبعض الحاضرين علامات الفهم، فقال مستوضحا:

- أتقصد أننا بحصولنا على مصر سنتمكن من الوصول إلى ما حولها من بلاد وغزو باقي الأقطار من هناك؟

أجابه هولاكو موافقا:

- أجل يا رجل، سنسيطر على كل الطرق إذا سيطرنا على مصر، ستظل

السبل مفتوحة إلى الشام، وستكون كل الطرق ممهدة لدخول جزيرة العرب، وستصبح أرض البربر رهن إشارتنا. أما أرض الروم فستكون محاصرة من الجهتين. سنتركها للنهاية ونزحف إليها من جهة الشام ومن جهة المغرب.

ظهر الإعجاب على الجميع، فتابع هولاكو بزهوه:

- قضينا على العباسيين ولم يبق لنا سوى بعض الأيوبيين والمماليك، وليس أمامنا لإخضاع باقي الأقاليم السبعة إلا سقوط مصر في أيدينا.

لاح الجنون في عينيه، قبل أن يقول مستدركا:

- بعدها سنحكم العالم بأسره وسيخضع لنا من تبقى من شعوب الأرض.

-٤٤-

المَمْلُوك الصَّارِم

مدينة حلب - الشام

٦٥٨هـ | ١٢٦٠م

أرهف المملوك «صارم الدين أزبك» سمعه. حين تناهى إلى أذنيه وقع سنابك أحد الخيول خارج المغارة التي يختبئ بداخلها على أطراف البرية خارج مدينة حلب. إنه اليوم الثالث الذي يمر عليه وهو على هذه الحال. يتنصت إلى أصوات ما يجري بالخارج. تحسبا لاقتحام أحد جنود التتار مخبأه الذي واتته فرصة ثمينة للاختباء بداخله قبل أيام. كان يومها متجها إلى حلب محملا برسالة. قرر أن يمر بأحد البساتين خارج أسوار المدينة ليجلب بعض التمر. حين علم بسقوط المدينة في أيدي التتار. يومها حمل مرنجلا قدر ما قد يسد رمقه من التمر لأيام. واصطحب قربة من الماء وصعد سريعا إلى تلك المغارة التي صادفها في أطراف الطريق المؤدي إلى القلعة. كان مدخلها خفيا ومنخفضا. كما أن موقعها متطرف لا يقصده رائحٌ ولا غادٍ إلا نادرا. لذلك لم يخطر ببال أحد جنود التتار أن يبحث هناك.

ظل متربصا في مخبئه حتى خفَتت الأصوات وهدأت الحركة تماما. انعدمت الأقدام بالخارج بحلول نهاية يومه الثالث. كان يعلم أن التتار-بعد تمكنهم من حلب- سيفعلون بها مثلما فعلوا بكل سابقاتها من المدن. قتل وسبي وحرق ونهب لكل ما سيصادفونه في طريقهم. وما حدث ببغداد لم يكن ببعيد. فكر بأن حلب حتما قد تحولت إلى مدينة أخرى غير التي ألفها. لن يتفاجأ لو لم يجد

فردا واحدا من أهلها على قيد الحياة إذا ما قدر له أن يدخلها بعد أن اقتحم التتار أسوارها!

تجاسر وزحف أسفل المدخل المنخفض حتى أصبح جسده بالخارج. قام يستطلع الموقف من حوله بحذر تحت ما تبقى من الضوء الخافت في تلك الساعات الأخيرة من اليوم. خلت المنطقة تماما من البشر. إلا من جثة ملقاة لأحد جنود التتر. كان التتري صريعا بالقرب من مدخل الغار. تأمله بتمعن وكأنه يشاهد كائنا سقط إليه من أساطير الأولين. هذا رجل تتري إذن!

اقترب منه بحذر خشية أن يكون لا يزال على قيد الحياة. استجمع شجاعته أكثر ومد يده إليه حتى قربها من وجهه. تحسس صدره في وجل حتى اطمأن لسكونه. تأكد أن الجسد خال من أنفاس الحياة. أيقن بذلك عندما لاحظ السهم الذي استقر في جنب الجندي. لابد أنه قد أطلق عليه من أحد أبراج حلب المحصنة. تأمله من جديد ثم جالت بخاطره فكرة مدهشة. سيجرده من ملابسه ويتزيا بزيه حتى يتمكن من السير داخل مخيم المغول ليتحرى الأمر.

على الفور قام بوضع فكرته موضع التنفيذ. نزع السهم من جسد الرجل التتري ونزع عنه أرديته. أسرع في ارتداء الملابس التترية بدلا من الجندي. صارت هيئته كأي جندي تتري. لا ينقصه سوى الثقة بالنفس وشيء من الجرأة حتى يسير بتلقائية وسط عسكر التتار.

سحب جثمان التتري القتيل نحو المغارة. حشر الجسد داخل الفتحة. واراه بالداخل بعيدا عن الأنظار حتى لا يلاحظ أحدهم أن ثيابه قد نزعت عنه. تخلص من ثيابه التي كان يلبسها قبل ارتداء الملابس التترية. الآن هو جاهز للمغامرة. لن يضيع الوقت في التردد ولن يحاول الفرار والتخفي. فلديه الآن مسوغات المرور داخل المخيم دون أية مضايقات. سيتحرك بحرية دون أن يشك به جند التتار. وجهه الذي يحمل ملامح أسلافه الترك سيخدع التتار حتما. يوجد الكثير مثله في جيوشهم بعد تحالفهم مع قبائل الترك وانصهارهم

بداخل الجيوش التترية.

هكذا سار صارم الدين بأريحية في جنبات المخيم. حتى اقترب من خيمة «هولاكو». ارتفعت نبضات قلبه مع دنوه من معقل السفاح المهيب الذي كثيرا ما سمع بمذابحه ودمويته. وكما توقع فقد وجد المنطقة التي تقع فيها الخيمة محاطة بحراسات مشددة. لكنه لاحظ في نواحي الخيمة شيئا لافتا. صندوقا كبيرا معلقا في أحد الصواري العالية يحرسه جنديان من التتار. كان الجنود يتقدمون من آن لآخر ويضعون قصاصات في الصندوق. أخذ يتجول حول محيط خيمة الخان حتى لاحظ أحد الجنود التترية يحمل ملامح الترك مثله. اقترب منه وهو في طريقه للصندوق وسأله بلغة الترك*:

- لماذا جئت إلى هنا يا رجل؟

أجابه الجندي كأمر معتاد بينهم:

- جئت أقدم مظلمة للخان.

لمعت الفكرة في ذهن صارم الدين وهو يجيبه بلا انفعال ظاهر:

- وما هي مظلمتك يا ترى؟

بدا الضيق على وجه الجندي وهو ينظر حوله قبل أن يقول بصوت خافت خشية أن يسمعه أحدهم:

- أحد الجنود من ذوي الأصول المغولية استولى على فرسي وادعى أنه له. لا أستطيع منازعته وإلا قضي علي بالموت إذا لم أستطع إثبات الأمر. فقوانين الياسا** تنص على ذلك. وأنت تعلم أنهم لا يعاملون جنود الترك المنضمين لهم -مثلنا- كما يعاملون جنود المغول والتتر.

---

*التركية أو لغة الترك المقصودة هنا هي التركية القديمة وهي لسان قبائل الترك الوسطى سيوية وليس اللغة التركية الحديثة. ولغات الترك عائلة كبيرة ابنثق منها التركمانية والاوزبكية والتترية والكزخية والقرغيزية والبلقانية والتركية الحديثة وغيرها من اللغات التي تنتمي لشجرة اللغات الألطية

**الياسا/ الياسق: قانون وضعه جنكيز خان يشمل احكاما للجزاء والعقاب من أجل نشر الأمن في أرجاء امبراطورية المغول.

تفجرت الدهشة في نفس صارم الدين لكنه سيطر على ملامحه وهو يقول:

- إذن علام تتظلم يا رجل ما دمت لن تستطيع مخاصمة المغولي؟!

أجابه الجندي موضحا:

- من عدل الخان أنه ترك لنا صندوق المظالم والمطالبات حتى يلبي مطالب العسكر. سألته في مظلمتي أن يوفر لي جوادا بديلا عن الذي فقدته. وبدلا من مخاصمة المغولي السارق فقد كتبت أنني قد فقدته في المعركة. وأنا فارس ولست من المشاة. ولا بد لي من جواد. وشكوت إليه أن قادة الاسطبلات لم يلبوا طلبي حتى الآن رغم أنني قد فقدته في بغداد كما زعمت في مظلمتي.

هز صارم الدين رأسه متفهما وقد اختمرت الفكرة في رأسه أكثر:

- مفهوم يا رجل. أنا أيضا سأقدم مظلمتي. لكن عليّ أن أجد ما أخطه عليها.

انصرف الجندي موليا وجهه نحو صندوق المظالم. في حين استدار صارم الدين وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ظفر. وأدرك ما سيفعله في الأيام القادمة. ها هي الفرصة قد واتته على طبق من ذهب. سيقدم على أكبر خدعة يمكنها أن تقضي على التتار وتحطمهم. هكذا انصرف من المنطقة في اتجاه بعض نواحي المخيم وهو يدعو ربه أن يسدد خطاه فيما هو مقدم عليه.

-٤٥-

فَانْسَا

- لماذا تبكين؟

قالها هولاكو متأملا عشيقته المغولية «فانسا»، التي انسابت دموعها الحارة على وجنتها –مطرقة برأسها- حتى انسكبت الدموع فوق أرضية الخيمة، التي تضمها مع هولاكو داخل مخيم المغول المقام خارج مدينة حلب، بعيدا عن أنظار زوجها «بيدرا» القائد في جيش هولاكو.

لم يتلق منها ردا، سوى صوت نشيجها، والمزيد من الدموع التي بللت موضع قدمها، فامتدت يد هولاكو تمسك بذراعها، بينما مد أصابع يده الأخرى نحو وجنتها وحول وجهها نحوه، نظر في عينيها الدامعتين وهو يقول في رقة يندر أن تخرج من رجل مثله:

- ماذا حدث يا فانسا؟

نظرت فانسا إلى عيني هولاكو وهي تقول بنظرة كسيرة تملؤها الدموع:

- إلى متى يا هولاكو خان؟ إلى متى؟

أجابها هولاكو في تساؤل وبنفس لهجته الحانية:

- إلى متى ماذا يا فانسا؟

سحبت فانسا ذراعها من بين أصابع هولاكو، نهضت بهدوء مولية ظهرها له، وهي تغالب دموعها:

- إلى متى نلتقي سرا؟ هل سنظل على هذه الحال كثيرا؟

اكتسى وجه هولاكو بالضيق واستعاد غلظته قائلا:

- وماذا تريدينني أن أفعل يا فانسا؟ أأقتل «بيدرا» أم أتخلص من زوجتي؟

استدارت فانسا في مواجهته وهي تقول مستنكرة:

- لا هذا ولا ذاك يا هولاكو خان! ألست أعظم قادة المغول؟

وضعت كفها على صدره مستدركة:

- أليس ها هنا قلب صنع من «البولاد»*؟ أليس «هولاكو خان» هو أكثر من يخشاه الجميع؟ هل يهتم هولاكو خان بكلام من حوله؟ أم يخشى ملامة الناس على حب فانسا؟

أجابها هولاكو بلهجة أرادها أن تكون رفيقة لكنها خرجت فظة رغما عنه:

- ليس الأمر كذلك يا فانسا، لكنك تخصين «بيدرا»، كل قبائل المغول تعرف ذلك، ولا يمكن لـ «هولاكو خان» نفسه مخالفة التقاليد وإشعال حرب بين القبائل، لا من أجل فانسا ولا من أجل غيرها، أترضين أن يقول أبناء المغول بأن «هولاكو بن تولوي» قد ضيع أمة المغول من أجل عشيقته؟

صمت ناظرا إليها بعبوس ثم استدرك:

- الأمر لا يحتمل انشقاقا بين قبائلنا، في حين تقف جيوشنا على مشارف خوض المعارك الفاصلة في الشام ثم مصر.

أطرقت فانسا برأسها مجددا وهي تقول:

- إذن ماذا ستفعل؟

أجابها هولاكو بشراسة:

- يجب أن يموت بيدرا، ولكن من العار أن يقال أن «هولاكو خان» يقتل قادته المخلصين؟

صمت لبرهة وهو يمسك بذراعي فانسا وينظر في عينيها من جديد قائلا:

- سيموت زوجك في الحرب على أيدي أعداء المغول، أو حتى بسهم صديق.

سرت في جسدها رعدة وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه مستسلمة قائلة:

- كما ترى يا سيد الأقاليم السبعة.

---

* البولاد هو الفولاذ في لغة شعوب آسيا القديمة.

تركها للحظات مستكينة على صدره قبل أن يبعدها برفق، وهو يخرج شيئا من جعبته قائلا بلهجة حاول أن يجعلها متلطفة. وبابتسامة فظة قال محاولا تغيير دفة الحديث:

- جلبت شيئا من أجلك.

تعلقت عيناها بما يحمله هولاكو فمد يديه يحيط عنقها به. تحسست فانسا ما وضعه هولاكو على صدرها قائلةً بشغف:

- ترى، ماذا تكون؟

أجابها هولاكو بلهجة يملؤها الزهو:

- قلادة نادرة، غنمناها من بغداد، كانت في خزائن الخليفة العباسي مع قلادات ومقتنيات أخرى. لا ينبغي لها أن توضع إلا على صدر حبيبتي فانسا.

ابتسمت فانسا في دلال، وعادت تحتضن هولاكو فأحاطها بذراعيه. لكنه فوجئ بها تبتعد فجأة وهي تنظر إلى صدره باندهاش قائلة:

- أنت أيضا ترتدي قلادة يا هولاكو خان!

ارتفعت ضحكات هولاكو وهو يقول في زهو أكبر:

- أجل يا فاتنتي، مرحى.. هذه أيام كثرت فيها الغنائم والقلادات.

عبست فانسا بوجهها في دلال طفولي وهي تقول:

- حصلت على قلادة أخرى دون أن تخبرني. أليس لي حق الاختيار؟

ابتسم هولاكو بنفس الفظاظة قائلا:

- لقد تخيرت لك أفضلها يا سيدة الأقاليم السبعة. وقلادتك أجمل من تلك بكثير.

ابتسمت فانسا في رضا، وهي تمسك القلادة وترفعها قليلا من فوق صدرها لتتأملها بشغف:

- لن أنزعها من عنقي حتى أموت.

ثم نظرت إلى هولاكو في مرح وهي تقول:

- سنرى من منا سينزع قلادته أولا يا سيد الأقاليم السبعة!

ثَمنُ الخيَانَة

تسلل شبح متسربل بالظلام بين الخيام. تحرك حذرا بخطوات صامتة. انتظر خروج فانسا التي تأخرت داخل الخيمة. كان هولاكو قد سبقها بالخروج بفترة وجيزة. ظل خلالها الرجل المجهول متربصا وراء خيمة مجاورة في تلك الساعة من الليل. حتى برزت فانسا من مدخل الخيمة تتلفت حولها بحذر.

لم يكن الرجل إلا زوجها بيدرا. كان الشك قد تملك منه منذ فترة. شعر بخيانتها. خروجها المتكرر بحجة زيارة صديقاتها أثار شكوكه. وتمنعها عنه طويلا أنبأه بخيانتها إياه. وتلك القلادة التي لازمت عنقها في الفترة الأخيرة. لكنه لم يملك دليلا. صار يملكه فقط بعد أن رآها بنفسه. تيقن أيضا أنها ليست المرة الأولى. لكن المفاجأة الصاعقة حين عرف أنها تخونه مع هولاكو. لذلك عزم بيدرا على أن ينتقم منها وفورا. أقسم بأنه لن يبيت ليلته إلا وقد أتم انتقامه. هو راحل في الفجر من حلب إلى بعلبك ليلحق بمعسكر القائد «كتبُغا». ثم إلى غزة على رأس بعض كتائب التتار. لن يترك فانسا خلفه على قيد الحياة. إن لم تكن له فلن تكون لغيره –هكذا قرر– سيعجز الجميع عن العثور على دليل قتله لها. سيقتلها فورا بعد أن توغر صدره من خيانتها إياه. اعترته حالة لم يستطع فهمها ولا مقاومتها وكأنه صار مسلوب الإرادة.

ضوضاء مدوية اجتاحت عقله وصمّت أذنيه. أصوات مختلطة. كوابيس مرعجة حرمت عليه النوم في الليالي الأخيرة. رؤى غريبة تراءت أمام ناظريه وهو يقظان. صيحات عالية تلح عليه في إصرار متواصل. تدفعه لقتل زوجته الخائنة دون تراخٍ. أخذت سيطرته على وعيه تخف تدريجيا في تلك اللحظات.

تسربت إليه مشاعر غريبة بدلا من مشاعره المعتادة. وجد نفسه مدفوعا -لا إراديا- كلما اقترب من فانسا. كانت تسير في الظلام أمامه دون أن تشعر به. كان هذا أخر مشهد تذكره «بهدرا» قبل أن يغادر معسكر المغول عند حلب. وفي يده قلادة زوجته القتيلة بعد أن نزعها من عنقها.

-٤٧-

الوَعِيد

- قُتلت؟!

صرخ بها هولاكو غاضبا، وانتفض واقفا بعد سماعه الخبر من أحد قادة المغول في خيمته فقال القائد:

- وجدناها مقتولة عند الفجر في أحد الطرقات بين الخيام أيها الخان، وسط بركة من الدماء، وقد نزفت ببطء طوال الليل من جروح رسغيها حتى بزغ نور الصباح.

استشاط هولاكو غضبا لمصرع عشيقته بهذه الوسيلة. شعر بالقهر والسخط العارم. ألقى أواني الطعام التي تراصت أمامه في عنف، فارتطمت بالأرض وتناثرت محتوياتها، وهو يهتف بصرخة هادرة:

- تبا .. من قتلها؟ وكيف حدث ذلك؟

أجابه الرجل في وجل من ثورة غضبه المفاجئة:

- لا نعرف من فعلها بعد يا هولاكو خان! لكن القاتل تعمد ألا تكون الميتة رحيمة. فلقد قيد أيدي القتيلة وأرجلها وكمم فمها ثم جرح رسغيها حتى تموت ببطء.

حاول هولاكو كتم غيظه وسخطه ولوعته بكل ما يملك من قوة، محاولا الثبات أمام الرجل وقال من تحت أسنانه:

- وهل وجدتم شيئا مع القتيلة أو أي متعلقات هامة؟

قال الرجل:

- لم نجد بحوزتها شيئا ذا أهمية يا سيدي، واضح أنها كانت في زيارة قصيرة

خارج خيمتها فلم تحمل من متعلقاتها شيئا.

لم يستطع هولاكو إخفاء ثورته أكثر من ذلك فخرجت كلماته تقطر بالمقت والغضب:

- وأين زوجها المقدم «بيدرا نوين»؟

أجابه الرجل بحذر متلافيا ثورته:

- المقدم بيدرا لحق بالقائد «كتبجا نوين» في البقاع يا سيدي. يبدو أنه رحل بالأمس.

قال هولاكو آمرا في غضب مكتوم:

- فتشوا خيمة القائد بيدرا وزوجته، لعلكم تهتدون إلى شيء يرشدكم إلى القاتل.

انصرف الرجل سريعا واشتعلت عينا هولاكو بغضب مخيف وهو يقول منفردا:

- سأنتقم منك يا بيدرا على فعلتك الشنيعة ولن تفلت بها أبدا.

قالها وهو ينزع القلادة المعلقة على صدره قائلا:

- لن يهنأ لي ارتداء أية قلادات بعدك يا فانسا، حتى أنتقم من قاتلك، ولن أهدأ حتى أسترد قلادتك أنت أيضا من عنق «بيدرا» وهو جثة هامدة.

-٤٨-

بُطُولَة مَمْلُوك

جلس هولاكو أمام خيمته على مشارف قلعة حلب فوق عرشه المرتجل تحيطه الخواتين * والجواري عن يمينه، بينما جلست زوجته «دوقوز خاتون» عن يساره. ظهر حزن مشوب بغضب مكتوم على وجهه. لطالما بدت قسماته الصارمة خالية من أية مشاعر كالتي تعتري البشر. ولطالما خلت دائما من الرحمة. لكن غضبه وحزنه اليوم كانا أكبر من أن يدفنهما بأعماقه فعربدا بين ملامحه. ظهر أثرهما في كل لمحة من لمحاته ولفتاته. وبين يديه تراص أربعة من الحجبة. وقد فتحوا صندوق المظالم والمطالبات. في ذلك اليوم يحين الموعد المخصص من كل أسبوع ليطالع فيه هولاكو محتويات الصندوق. وعلى مسافة من المجلس تجمهر عدد كبير من جنود المغول والتتار والترك في الساحة الواسعة الممتدة في نواحي الفناء. كلٌ منهم جاء طلبا للبت في مظلمته أو مطالبته التي أودعها الصندوق. توالت النداءات من الحجبة. وكلما نادى الحاجب أحد أسماء الجند تقدم الجندي المنادى نحو المنطقة التي عُقد فيها المجلس. فيركع ويقبل الأرض بين يدي هولاكو كما تقتضي الآداب المغولية. ثم يقرأ الحاجب المظلمة حتى يقضي فيها هولاكو بنفسه.

توالت المظالم والمطالبات حتى انتصف منها الحاجب. كانت المطالب تتراوح بين طلب لفرس أو درع أو سلاح. أو طلبا لرفقة إحدى الأسيرات. بينما كانت

---

* خواتين: جمع خاتون وهي كلمة مغولية معناها السيدة ذات النسب. وتطلق على كل أميرة أو سلطانة لديهم. وكانت تطلق على زوجة السلطان وذويه من النساء. وأصلها تأنيث للفظ «خان – تون»

المظالم تجسد شكاوى الجنود لعدم الإسراع في تأدية طلباتهم. لم يجسر أحدهم على خصومة بعضهم بعضا. فقد كان «الياسا» صارما في هذا الشأن. انصرف الجندي الذي كان أمام الحاجب بعد أن حصل على طلبه وقبل الأرض ثانية تحت قدمي هولاكو. فارتفع صوت الحاجب ينادي بلغة الترك قائلا:

- صاحب المطالبة «المملوك الصارم». فليتقدم بين يدي الخان.

انتفض صارم الدين حين سمع اسمه على لسان الحاجب. اختلج قلبه حتى كاد أن يقفز من بين ضلوعه. تقدم المملوك بأقدام راجفة نحو مجلس هولاكو. ها هو السفاح الشهير يتجلى أمام ناظريه. قرر أنه سيفعل مثلما فعل الجنود ويتصنع الخضوع والطاعة. سيتفانى في إظهار الولاء والإذعان حتى ينال مأربه. فإما أن ينجح مخططه أو أن يلقى ربه كما لقيه آلاف البشر من قبله. هكذا قرر في نفسه وأقره قلبه على خواطره. حتى يَثْبُتَ جَنانه وتتماسك جوارحه. في هذا الموقف العصيب الذي اختار أن يضع نفسه به طواعيةً.

تقدم صارم الدين نحو المجلس في ثبات ظاهري، حتى أصبح أمام الحاجب. جثا على ركبتيه ومال برأسه نحو الأرض ثم قبّل موطئ قدميه كما فعل من سبقه. تصاعد بداخله مقت كبير لهذا الفعل. لكنه عزى نفسه بأنه إن نجا وسارت خطته بنجاح فسيقتص لنفسه ولكل الأبرياء الذين قضوا نحبهم بسيوف هؤلاء القتلة. سيسرها في نفسه حتى حين. لكن أمامه الآن مهمة واجبة التنفيذ.

رفع قامته ووقف ماثلا أمام الحجبة مطرقا إلى الأرض. ارتفع صوت الحاجب يقرأ بلسان الترك مطالبته التي كان قد وضعها في الصندوق:

«المملوك الصارم، مملوك الملك الأشرف صاحب حمص، يقبل الأرض ويسأل الحضور بين يدي القان».

ناول الحاجب الرسالة لهولاكو فارتفع حاجباه، وظهرت على وجهه شبه ابتسامة ظافرة وهو يمعن النظر بشراسة إلى صارم الدين. تبادل بضع كلمات

بلسان المغول إلى حاجبه فقال الأخير لصارم الدين:

- أأنت مملوك الملك الأشرف صاحب حمص وبهادر المسلمين؟

أجاب المملوك بلغة الترك:

- أجل أيها الخان العظيم.

تتالت الأسئلة والإجابات بين «هولاكو» و«صارم الدين» ينقلها بينهم الحجبة، حتى أعجب هولاكو بحديث المملوك، فأمر بأن يُدنوه منه، قربه الحجبة حتى أجلسوه تحت قدمي هولاكو مباشرة، أخذ صارم الدين يختلس النظر إلى وجه هولاكو كلما سنحت له الفرصة، زاده الوجه البربري الشرس رهبة للموقف، ها هو قد صار قاب قوسين من زعيم تلك الوحوش، أدرك أنه لا مفر من أن ينال ثقته أكثر وأكثر حتى يصل لمبتغاه، هكذا حدث نفسه.

طال المجلس حتى فرغ هولاكو من معاينة كل المظالم والمطالب، انصرف الجنود المحتشدون في الفناء، وبقي هولاكو مع بعض ندمائه ونسائه وحجبته وحراسه فقط، بالإضافة لصارم الدين الذي كان لا يزال جالسا عند قدمي هولاكو، دعا هولاكو بطعام وشراب للمملوك، فتناوله بإذعان مطلق، بعدها استأذن صارم الدين من الحاجب أن يستعرض بعضا من مهاراته ليدخل السرور على قلب الخان.

مال الحاجب على أذن هولاكو يخبره برغبة صارم الدين، فوافق بلا اكتراث، كانت أمارات الحزن والوجوم طاغية على صرامته وبأسه الملازمين لملامحه، كان من السهل على مملوك ذكي مثل صارم الدين، أن يدرك أن هناك ما يحزن هولاكو ويعكر صفوه، لكن المملوك قرر أن يستحوذ على اهتمامه في هذا اليوم.

نهض المملوك وتوجه نحو وسط الفناء على مرأى من هولاكو ورفقائه، خلع بعضا من ملابسه وتخفف مما يثقل جسده، كان يعلم أن مصير خطته متوقفا على نجاح ما سيفعله أمامهم الآن، انتصب في ثبات ثم شرع في عرضه المثير، كان استعراضه يتمثل في بعض الحركات البهلوانية المثيرة التي تتطلب مهارة

ولياقة عالية وطول مراس. تعلمها منذ صباه حين اقتادوه للسبي. كان يمارسها في بلاط الملك الأشرف طوال فترة شبابه. استجمع الآن كل براعته وبدأ في تنفيذ حركاته الفنية. تارة يسير على يديه، وتارة يدور حول جسده في دورات رأسية سريعة، مستندا بكفيه على الأرض بلمسات خاطفة.

لاقت حركاته البارعة استحسان إعجاب الخواتين والنساء: فجعلن يصفقن بأيديهن لتحية المملوك الماهر. أما ما أثار إعجاب هولاكو نفسه حين امتطى الرجل صهوة جواد بالساحة، وجعل يدور به داخل الفناء ثم قام على قدميه فوق ظهر الجواد الراكض، قبل أن يرفع إحدى قدميه للخلف في الهواء ويستند على ظهر الجواد الراكض بساق واحدة، محررا ذراعيه نحو الجانبين بحركة غاية في الرشاقة.

تملك الإعجاب من هولاكو لمهارة صارم الدين الذي أنهى عرضه الشيق. ناداه ليجلس بجواره وقد نجح في إخراجه من حالة الحزن التي احتلت ملامحه قبلها. كان هولاكو لا يزال حزينا لفقدان عشيقته. لكن هذا المملوك استطاع أن يبدد شيئا من سحب الحزن والغضب التي تملكت منه. لذلك قرر هولاكو أن يجعل صارم الدين من رفقائه الدائمين.

مضت أيام، والمملوك لا يزال ملازما لهولاكو في مجلسه. أعجبه طرافة حديثه، ولباقة لسانه، وحضور ذهنه. حتى أن هولاكو أصبح لا يطعم طعاما إلا بحضوره.

في مساء اليوم الثالث جلس هولاكو وأحاط به رجاله وقواده. أرادوا إخراج صارم الدين من مجلسه لكن هولاكو أمرهم بتركه. سأله هولاكو عن سيده الملك الأشرف. أخبره المملوك بأنه قد رحل في طريق مصر. وأنه لابد له في تلك الأثناء أن يكون على مشارفها في بعض نواحي الشام. بعدما اصطحب معه نساءه وجواريه وأبناءه.

قال هولاكو متأملا صارم الدين:

- عندي لك مهمة يا صارم.

أجابه المملوك بسرعة:

- أنا رهن إشارة القان.

أمسك هولاكو بلحيته الخفيفة مفكرا قبل أن يقول:

- هل تستطيع أن تأتيني بسيدك الملك الأشرف صاحب حمص إلى هنا؟

أجابه صارم الدين بحماس مصطنع:

- نعم يا سيدي. آتيك به إلى هنا إن لحقته.

سأله هولاكو:

- وهل تضمن أن ينصاع لدعوتنا وأن يقنع لكلامك؟

استجمع صارم الدين رباطة جأشه وهو يقول:

- نصر الله القان، إن هيبتك عظيمة، ومملكتك واسعة، والملوك تخشاك ولا يقدر أحدهم أن يقف بين يديك، ووالله يا «خوند» الملوك، إنهم ليودون أن يمتثلوا أمامك مثل هؤلاء الماثلين بين يديك، ولكنهم يخشون سطوتك.

راقت كلمات المملوك لهولاكو، وارتسمت على شفتيه ابتسامته المخيفة وهو يقول:

- لو أردت المجيء به رغما عنه لجئت به، لكن لن يكون له عندنا إلا الذبح تحت أقدامنا، أما وقد جاء طوع إرادته فله مني الأمان على أن يسلمني حمص، بل إني أبقيه ملكا عليها كما كان قبل فراره.

شعر صارم الدين بالارتياح لوعد هولاكو، تصاعد الإصرار بداخله لإتمام خطته التي كانت تسير بنجاح حتى تلك اللحظة، بينما التفت هولاكو إلى بعض حُجّابه يأمرهم بتجهيز الخيل للمملوك حتى يتم مهمته.

قبّل المملوك يد هولاكو وخرج من عنده يدعو ربه أن يوفقه في استدعاء الملك الأشرف، فنجاح خطته بات متوقفا على نجاح تلك المهمة.

-٤٩-

الثَّغْرَة

بابتسامة ظافرة أخذت تتسع كل يوم. مضى صارم الدين لملاقاة «كِتْبُغا» وتسليمه رسالته كما كلفه هولاكو. خطته تسير على ما يرام. كان في تلك اللحظات يسير بجوار سيده القديم -الملك الأشرف بصحبة بعض مماليكه- متجهين نحو معسكر التتار بالقرب من سهل البقاع. كان التتار متأهبين للخروج إلى عين جالوت. نجح صارم الدين في استدعاء سيده -الملك الأشرف- الذي سلم حمص لهولاكو دون شرط. أعطاه هولاكو وأهلها الأمان. وأبقاه أميرا عليها. وها هم في طريقهم للانضمام إلى جيش التتار. لم يتوقع صارم الدين أن يكون مقنعا لهولاكو. للدرجة التي يطلب فيها منهم أن ينضموا إلى الجيش كباقي أفراد التتار.

جرت المقادير بوتيرة متسارعة. سقطت ميافارقين وحلب وغيرهما من المدن. استسلمت دمشق دون قتال بعد أن هجرها معظم أهلها في يوم كيوم الحشر. هب الدمشقيون من مساكنهم وبادروا بالهرب قبل مجيء الطوفان. كان الزحام رهيبا على أبواب المدينة. هرب معظم سكانها إلى القفار والطرق. خرجوا يغامرون بأرواحهم. وقعوا بين مطرقة وعناء السفر وسندان قطاع الطرق. لم يستطيعوا أن يفعلوا كقرنائهم من أهل حمص وحماة الذين هربوا إلى جبال لبنان. كقوم نوح حين اعتصموا من الطوفان بالجبال. لكن الدمشقيين هاموا على وجوههم. يحملون أطفالهم وما خف من متاعهم. مات منهم من مات من مشقة الطريق. لم ينج منهم إلا شذرات من الناس. أما من استطاعوا سداد نفقة ما استأجروه من إبل. فقد تجاوز أجر الواحد منها سبعمائة قطعة من

الفضة.

أما أعيانها وأشرافها ومن تبقى من أهلها، فقد قدموا مفاتيح دمشق لهولاكو لينالوا منه عهد الأمان، تمكن المغول من كل بلاد الشام بلا جهد أو مشقة، بين استسلام أمرائها أو فرارهم من وجه الجيوش التترية.

لكن حدثا واحدا هو ما حول دفة الموقف، شعر صارم الدين عندها أن الأقدار تتدخل لإنجاح خطته، مات خان المغول الأكبر «منكو خان» بعد مرض طويل، اجتمع الإلخانات في عاصمتهم لتنصيب خليفته، رحل هولاكو من حلب برفقته قسم كبير من الجيش التتري، بعث برسالة إلى مساعده الحاذق كتبغا -حملها صارم الدين- يفوضه فيها بقيادة الجيش التتري وإدارة المعركة، قال في رسالته:

- «سأعود إلى قراقورم، للانضمام إلى «الكوريل-تاي»، واللحاق بمجلس شورى الإلخانات، فإنه قد وصلني البريد بأن الخان الأعظم «مونكو خان» قد لحق بالأجداد، ووجب تنصيب الخان الجديد للإمبراطورية، وقد نصبتك قائدا على كل من تحت يدي من العسكر بالديار الشامية، وهم يزيدون على العشرين ألف جندي، فاحرص على سحق أعدائنا، وعليك بفتح مصر والسيطرة على نواحيها، حتى أعود إليك بكامل العسكر الذين اصطحبتهم معي لمواصلة زحفنا».

انزعج كتبغا لسماع فحوى الرسالة، كان عليه خوض المعركة بأقل من نصف الجيش، لم يكن لديه أي خيار سوى القتال بمن لديه من جنود، قرر أن يعتمد على سمعة المغول، وما تلقيه سيرتهم من رعب في قلوب خصومهم، كان يدرك أن خبرة فرسانه ومقاتليه تفوق خبرة أي جيوش أخرى، سيقاتل ذلك الجيش القادم من جهة مصر وسيلحق به الهزيمة، لن يوقفه شيء حتى يقتحم الديار المصرية، هكذا عقد العزم على خوض المعركة، كان يراهن أن المماليك لن يكتشفوا ذلك النقص في جيشه، ولن ينتبهوا إلى تلك الثغرة حين

يعاينون قوة جنوده وبسالتهم وشراستهم في ساحة المعركة.

أما صارم الدين فقد كان يتجهز لإتمام مهمته. كتب الرسالة التي سيبعث بها إلى أمراء المماليك. زودها بالتفاصيل اللازمة. كان يدرك أن الثغرة التي ستعبر خلالها الجيوش العربية إلى النصر قد اكتملت.

-٥٠-

التَّهديد

الديار المصرية
٦٥٨هـ/١٢٦٠م

- لن يحدث هذا وأنا حي!

قالها الشيخ العز بن عبدالسلام وهو يقف بثبات، في مواجهة السلطان المظفر سيف الدين قطز. جلس قطز على العرش قاطبا جبينه، تحفزت أطرافه وقبض بكفيه على مسندي العرش. كان عقله مشتعلا بالأفكار. وقد عقد مجلس الحرب، واجتمع لديه أكبر أمراء المماليك قبل أن يصل إلى مجلسهم العز بن عبدالسلام، مجادلا السلطان في الضرائب التي اعتزم على فرضها.

صمت قطز لبعض الوقت قبل أن يجيبه منتقيا كلماته:

- ولكن لا بد لنا من فرضها أيها الشيخ. يجب أن نجمع الأموال بأقصى سرعة لتجهيز الجيوش. لم يعد ببيت المال ما يسد هذا الباب، ولا ما يسد حاجة أهل البلاد من طعام إذا وقع الحصار.

تحرك العز بن عبدالسلام في مهابة ظاهرة، تقدم بضع خطوات نحو عرش قطز، تعلقت به أعين أمراء المماليك، قبل أن يقول بوقاره وهو ينظر إلى الجميع:

- إن أردت فعل ذلك فعليك أن تجمع الأموال من ثروات الأمراء والوزراء، ادعهم لأن يتجردوا من أموالهم من أجل أمتهم، حتى لا يبقى لكل منهم إلا سيفه وفرسه، فإن تساويتم جميعا مع عامة الناس في الممتلكات، فعندها يكون لك

الحق في فرض الضرائب.

تأمل قطز معلمه وشيخه باقتناع قبل أن يجيبه بإذعان:

- نعم الرأي هو رأيك أيها الشيخ، وسأكون أنا أول من يدفع بماله لتجهيز الجيش.

ثم حول نظره في اتجاه أمراء المماليك من حوله قائلا:

- ولا أظن أن مِن الأمراء مَن يعارض هذا الرأي.

اندفع الأمراء في تأييد رأيه بمجرد سماعهم عبارته، بدت علامات الرضا على وجه العزبن عبدالسلام . فأتبعها بقوله:

- هذه من علامات النصر أيها السلطان، إنني لأرجو الله أن يكلل جهادنا بالنصر.

ظهرت الطمأنينة في وجه قطزورفاقه، فقال الشيخ مودعا:

- أترككم في رعاية الله وأمنه، وأسأله أن يسدد خطاكم، سأسعى في ربوع البلاد -أنا ومن معي من العلماء- لحث الناس على الخروج لجهاد التتر، عسى الله أن يتقبل مني ومنكم.

قالها وانصرف، فالتفت قطز إلى أمراء المماليك قائلا:

- والآن ماذا ترون؟ أنخوض الحرب ونواجه التتر؟ أم نستسلم لهم ونهادنهم؟

اندفع جمال الدين بن أقوش الشمسي الذي كان جالسا على يسار السلطان قائلا:

- نحن عزمنا على مواجهتهم بالفعل، ولم يعد هناك من سبيل للتراجع.

تلاه ناصر الدين قميري قائلا:

- إن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضة هولاكو الآن، ولو طلبنا منه الأمان فلن يكون ذلك من العيب أو العار في شيء، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت ليسا من العقل في شيء، فهولاكو ليس هو الذي يُطمَأن إليه، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، وسيكون الموت مصير كل من

يستسلم له بلا شك.

وافقهما كل من علم الدين سنجر ومجير الدين بن الحسين، وتبعهم في ذلك عدد ممن حضر المجلس من وزراء وأمراء، لكن بعضهم قال:

- لا طاقة لنا بمقاتلتهم، وكل من حاول الوقوف بوجههم قد هلك.

نظر قطز إلى بيبرس الذي كان جالسا عن يمينه قائلا:

- وأنت يا بيبرس، ماذا ترى؟

أجابه بيبرس في عزم:

- سنقاتلهم بلا شك أيها السلطان، فإن انتصرنا فهذا فضل من الله ومكرمة لعباده وأمته، وإن هُزمنا فقد قدمنا إلى الله المعذرة، وسواء انتصرنا أو هزمنا فنحن معذورون أمام الخلق والخالق، فالنصر إذن أو الشهادة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ازداد قطز عزما بعد سماع كلمات بيبرس، وعقد الرأي على قتال التتار، واستغرق مع الأمراء في نقاشات تفصيلية حول تجهيزات الجيش، مستمعا لآراء بيبرس ورفاقه حول أفضل الطرق وأنسبها لمواجهة التتار، وبينما هم على ذلك إذ دخل أحد الحجبة إلى المجلس قائلا:

- وصل رسل التتر إلى الديوان محملين برسالة من هولاكو، وهم يستأذنون في الدخول أيها السلطان.

عم الصمت وتبادل الأمراء النظرات، فقال قطز مترقبا:

- دعهم يدخلون.

ذهب الحاجب ليعود بخمسة من رسل المغول، تقدموا في زيهم التقليدي وقلنسواتهم المصنوعة من جلود الحيوانات البرية، اقتربوا من مجلس السلطان في جرأة وجالت أعينهم تتفحص الجالسين في تبجح، توقفوا على مسافة من الجميع صامتين، حتى بادرهم قطز وهو ينظر إلى أوسطهم الذي يحمل رسالة بين يديه:

- هاتوا ما لديكم.

رمقه المغولي بنظرة متعجرفة قبل أن يقول بلهجة متعالية وبعربية مفهومة:

- نحمل إليك رسالة من القان العظيم هولاكو خان.

رمقه قطز بدوره بمهابة اضطرب لها قلب المغولي لكنه تظاهر بالتماسك. أشار قطز إلى الحاجب لاستلام الرسالة. فتناولها الحاجب من المغولي وشرع في قراءتها:

«من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز. الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم. يتنعمون بأنعامه. ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية. وما حولها من الأعمال. أنا نحن جند الله في أرضه. خلقنا من سخطه. وسلطنا على من حل به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر. وعن عزمنا مزدجر. فاتعظوا بغيركم وأسلموا لنا أمركم. قبل أن ينكشف الغطا. فتندموا ويعود عليكم الخطا. فنحن لا نرحم من بكى. ولا نرق لمن اشتكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد. وطهرنا الأرض من الفساد. وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب. وعلينا بالطلب. فأي أرض تؤويكم. وأي طريق تنجيكم. وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص. ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق. وسهامنا خوارق. وسيوفنا صواعق. وقلوبنا كالجبال. وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع. والعساكر لقتالنا لا تنفع. ودعاؤكم علينا لا يُسمع. فإنكم أكلتم الحرام. ولا تعفون عند كلام. وخنتم العهود والأيمان. وفشا فيكم العقوق والعصيان. فأبشروا بالمذلة والهوان. فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فمن طلب حربنا ندم. ومن قصد أماننا سلم. فإن أنتم لشرطنا وأمرنا أطعتم. فلكم ما لنا وعليكم ما علينا. وإن

خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أننا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة، والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير المذلة ما لملوككم علينا من سبيل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ولا كافيا ولا حرزا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى».

انتهى الحاجب من قراءة الرسالة، وهبط الصمت، بينما استمرت نظرات قطز مسلطة على رسل المغول بقوة، قبل أن ينهي الصمت قائلا بغضب:

- كسلطان مصر، وجب عليّ الرد على رسالة هولاكو، وسأكتبه بنفسي، لكني أترك الرأي للأمير ركن الدين بيبرس، فلينظر ماذا يرى؟

نظر بيبرس إلى السلطان للحظات، ومال على أذنه هامسا بكلمات لم يسمعها سواهما، أومأ له قطز موافقا، نهض بيبرس بعدها من مقعده واستل سيفه بسرعة خاطفة توترت لها نظرات المغول وهو يقول في تحد:

- بل سترد عليهم برسالتين أيها السلطان، رسالة بالمداد، وأخرى بالدم.

قالها وأشار بسيفه نحو أقل فرسان المغول الخمسة بنية وحجما، ثم أمر الحرس قائلا:

- احتجزوا هذا حتى ننظر في أمره، سيكفينا رسول واحد.

نظر المغولي المقصود إلى زملائه في حيرة ودار ببصره بين الجميع، فتقدم إليه الجنود وذهبوا به، فسأله أتابك العسكر:

- وماذا عن الأربعة الآخرين أيها الأمير؟

تقدم بيبرس نحو المغولي الذي كان يحمل الرسالة حتى صار في مواجهته

تماما وهو يجيب في بأس:

- ليس من عاداتنا قتل الرسل والسفراء.

تنفس المغول الأربعة بارتياح. لكن بيبرس استدرك عبارته قائلا:

- لكن الضرورات تبيح المحظورات.

أجابه المغولي في حدة:

- ماذا تعني أيها الأمير؟

أطال بيبرس النظر في عيني المغولي بنفس البأس والصرامة دون أن يجيبه بكلمة. ثم التفت إلى قائد الحرس قائلا بصوت حازم:

- بأمر من السلطان المظفر سيف الدين قطز. سيصير هؤلاء الشياطين عبرة للمعتبر. كي لا يتجرأ على تهديدنا أسافل البشر. وليعلم الجميع أننا لا نهادن من يستهين بنا، وأننا لسنا كغيرنا.

تحفز رسل المغول وقطب قائدهم جبينه وهو يقول في حدة وتعالٍ يتناقض مع موقفهم:

- انظر إلى ما تقول أيها الأمير. أهكذا تفعلون بالرسل؟ ألسنا مستأمنين في عرفكم؟

أجابه بيبرس بحدة أكبر وهو يلوح بسيفه في وجه المغولي:

- ابتلع لسانك أيها الوضيع وإلا قطعته بسيفي قبل رأسك. لا أمان لك ولا لقومك وقد هتكتم المواثيق والأعراف والأعراض.

ثم استدار إلى أتابك الحرس قائلا بحسم:

- قوموا بتوسيطهم* ثم علقوا رؤوسهم على باب زويلة ليراها أهل المحروسة، وليعلم القاصي والداني أن زمن الركون والخنوع قد ولى. وليعلم الشيطان هولاكو أننا له بالمرصاد.

---

* التوسيط: طريقة قديمة للإعدام. يتم فيها قطع الجسد من الوسط عند الخصر. وقد كثر استخدامها في العصور الوسطى.

قالها ثم استدرك ناظرا إلى المغول في شراسة:

- هيا.. فلننته من أمرهم فورا!!

اقتادهم العسكر إلى خارج الديوان، فارتفع صوت قائد المغول مهددا:

- سينتقم منكم هولاكو خان شر انتقام. ستدفعون ثمن تحديكم لجنود الأرض أيها المغرورون.

تباعد صوته حتى تلاشى، فنظر قطز إلى رفاقه قائلا في عزم:

- الآن لم يعد لأي منا الخيار. فبعد قتل الرسل لا مجال للتراجع قيد أنملة، لأن خصمكم لن يقبل بأية تسوية بعد مقتل مبعوثيه.

نظر إلى بيبرس في اعتداد وقال:

- الضرورات تبيح المحظورات! أحسنت القول والفعل يا بيبرس. قطعت الطريق أمامنا جميعا على التراجع. فالنصر أو الموت في سبيل الله.

-٥١-

رِسَالَة رَبانيَّة

الصالحية – الديار المصرية
٦٥٨هـ | ١٢٦٠م

انعقد مجلس الحرب من جديد بمعسكر الجيش المملوكي في الصالحية بشرق مصر. التف أمراء المماليك حول سلطانهم قطز داخل خيمته يتباحثون. كان من الواضح تنازعهم بشأن التتار وخطة الحرب. التقديرات المبدئية تشير إلى أن أعداد التتار تفوق الحصر. تأهيلهم أيضا يفوق تأهيل الجيوش المصرية والشامية. الجيوش العربية المسلمة لم تقتصر على الفرسان والجنود. كان غالبهم أناسًا خرجوا من ربوع مصر والشام. منهم المزارعون والفلاحون والعاملون والبسطاء. لبوا نداء الجهاد. لم ينفروا إلا من أجل الذود عن أراضيهم وأهليهم وبلادهم. لكن لم يكن لديهم أية دراية بفنون الحرب. ولا سبق لأحدهم أية خبرة بقتال.

توجس الأمراء خيفة حين اقتربوا من الموقعة المرتقبة. اختلفوا من جديد حول خطة الحرب. عادوا إلى ترددهم السابق. بل أشار بعضهم بالتراجع والتسليم لهولاكو. ودار بينهم الحديث بين مؤيد ومعارض. احتد قطز وقام من مجلسهم قائلا:

- من أراد التراجع فلينسحب الآن. وليقعد مع الخوالف. سألقى التتر وحدي.

قام بيبرس مثله وقال مهدئا له:

- مهلا أيها السلطان. فلست وحدك. إنما جئتُ إلى هنا ولن أعود أدراجي قبل

أن ننتصر عليهم.

نظر إليه قطز للحظات قبل أن يدير نظره في الجميع مستنكرا وموبخا لهم وهو يقول بغضب:

- لقد مضى عليكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزو كارهون، أما أنا فقد اخترت التوجه للقتال، فمن اختار الجهاد فليصحبني، ومن لم يختر ذلك فليعد إلى بيته، والله مطلع على القلوب، لكن فليعلم الذين يتخلفون عن الركب أن دماء الأبرياء التي ستراق بسيف التتر في رقابهم.

تملك الخجل من قلوب أمراء المماليك، وهوت أنظارهم إلى الأرض، لكن في هذه الأثناء دنا منهم الحاجب، نظر إليه قطز متسائلا، فقال في انفعال:

- رسالة هامة تنتظر بالخارج أيها السلطان.

بدا الاهتمام على الوجوه، فقال قطز:

- ممن هي أيها الحاجب؟

أجابه الحاجب:

- رسالة من المملوك صارم الدين أوزبك الأشرفي مملوك الملك الأشرف الأيوبي.

قطب قطز جبينه مفكرا، وتبادل النظرات مع بيبرس، قبل أن يأمر بإدخال الرسول إلى خيمة السلطان.

لم يمض وقت طويل حتى كان المبعوث الشاب يقف بين يدي قطز، يتلو عليهم رسالة المملوك الصارم، أمر قطز بصرف الرسول واستغرق في تفكير عميق بعد سماعه الرسالة، وقع في حيرة كبيرة، أيصدق رسالة صارم الدين، أم أنها مجرد مكيدة لتزويدهم بأخبار خادعة؟، كانت الرسالة تتناقض مع رسالة هولاكو، فكيف له أن يرسل إليهم بتهديده، في نفس الوقت الذي رحل فيه إلى عاصمة قومه، مصطحبا جزءا كبيرا من الجيش التتري؟

بعد مشاورات طويلة مع رفاقه، وقر في قلوبهم جميعا أنها رسالة ربانية،

وفرصة لن تتكرر للنصر المبين. اجتمعت كلمتهم على الرد على رسالة هولاكو برسالة مماثلة تعلن اختيارهم للقتال، والأخذ برأي صارم الدين ونصائحه التي أتت في رسالته. لكن مع اتخاذ الاحتياطات والتعامل مع الأمر بحذر. فتلك الأخبار تعلن تواجد ثغرة ضخمة في جبهة التتار، وأن ميزان القوى قد تغير، بات واضحا لهم أن رحيل هولاكو مع جيشه -في هذا التوقيت بالذات- يعني أن عناية الله تتدخل لإنقاذ من بقي من الأبرياء.

-٥٢-

الطَّرِيق المُقَدَّس

احتشدت جموع غفيرة من الجند في الصالحية بشرق مصر. توافد المصريون والشاميون بكثافة من كل صوب. انصهروا في صفوف الكتائب في مزيج من أبدال الشام ونجباء مصر. تزايدت أعدادهم تدريجيا حتى بدت معالم الجيش. تراصوا بانتظام تحت أشعة الشمس المحرقة. لم يمنعهم قيظ الحر ولفح الهجير من تلبية النداء. لم يصدهم طول المسافات أثناء الزحف. ولم يفتّ من عضدهم ما تناقلته الألسنة وما رسخ في الأذهان عن وحشية التتار. وانعدام رحمتهم. وتدني إنسانيتهم.

امتدت أذرع الشمس الملتهبة تخترق الأجواء. كانت تلفح الأرض كتنور عملاق ينضح بالوهج. ارتفعت فوقهم سحبٌ معبأة بأوار السماء. تمطر الرؤوس بلهيبها. لكن ذلك الجيش تشبع بمعنويات تحلق في الأعالي وتناطح السحاب. تغلفها درع متينة من الإيمانيات الرفيعة. تشبعوا بها بعد نداءات العلماء الأجلاء والواعظين الخلصاء. امتطى فرسانهم خيول العز بن عبدالسلام. الذي كلّل صهوة كل جواد بخاتم الوعظ والتحريض على القتال. أشاع بينهم نكران الذات والرغبة في نيل الشهادة. اشتاقت قلوبهم لسكنى الفردوس. أو إحراز النصر المؤزر على العدو العسيف.

بدا الطريق لامتناهيًا. لكنه بدا أيضا وكأنه ينقص الأرض من أطرافها. مازال الطريق العتيق -الملازم لشطآن البحر والمتاخم لشمال سيناء- مُعَبَّدًا بخطوات جيش مصر القديم. طرقته منذ قرون طويلة أقدام الجنود البواسل. وهي رائحة غادية في أزمان مصر الغابرة. عنفوان القدماء ما زال يحوم فوق طريق

«حورس» الحربي، يشهد بأعظم الغزوات وأشرف الانتصارات، لتضع مصر القديمة في صدارة الشرق العتيق، وتجعل منها إمبراطورة العالم القديم، لتظل جاثمة على أنفاس أعدائها آمادا طويلة.

ها هنا سار أحمس وتحتمس وأمنحتب ورعمسيس نحو ربوع الشام الفسيحة، حين تمددت رقعة الإمبراطورية المصرية، حينما ضمت مصر إليها الشام وأطراف من نواحي الرافدين، كالأخت الكبرى التي تضم أشقاءها الصغار إلى أحضانها –طوعا أو كرها- كما تصنع الأم الرؤوم بصغارها. وها هنا أيضا سار ابن العاص ورفاقه آتين من قلب جزيرة العرب، أتوا عبر الشام حاملين مشاعل النور وبشارات الدين الجديد القديم، عازمين على تخليص أرض الكنانة من الروم الذين كانوا يسومون أهلها سوء العذاب والاضطهاد الطائفي، والتضييق عليهم في عباداتهم وأرزاقهم.

هذا طريق مقدس لدى كل طائفة، في كل عصر، وعند كل عابر، في هذا اليوم يطأه سيف الدين قطز وركن الدين بيبرس بجيشهما الذي بلغ غبار سيره الشهب، استشعر كل راكب ومترجل منهم بجلال اللحظة، غشيتهم ذكريات الأسلاف وأمجادهم، كسيل من الوجدان فائق النقاء، أتاهم من أطياف الماضي السحيق، تدفق إلى أذهانهم وقلوبهم ليكونوا على قلب رجل واحد.

-٥٣-

غَـــزَّة

مدينة غزة - فلسطين

رجب ٦٥٨ هـ | يوليو ١٢٦٠م

انحدرت جحافل منظمة من المصريين والشاميين بحشود كثيفة. هابطةً من فوق التلال المحيطة بغزة، نزلت الكتائب نحو حاميات التتار -المتركزة في المدينة وحول أطرافها- كصواعق السماء.

لم يتوقع التتار تلقي الهجوم من هذا الحشد الكثيف. كانوا واثقين من عجز المماليك على مواجهتهم، والإتيان بتلك الجيوش المنظمة التي باغتتهم دون مقدمات.

أفاق بيدرا على مشهد هجوم المصريين والشاميين. ظل يتأمل المشهد دون حراك. دارت أفكاره في رأسه -غير مصدق لما يرى- تقول بلسان حاله:

- «يالجرأتكم أيها المصريون! من أين راودتكم تلك الشجاعة الزائفة؟ بل ذلك الجنون المطبق الذي دفعكم لحمل السلاح في وجه جيوش الخان الأعظم وملك الأرض؟ إن أقرانكم الذين كانوا هناك، تركناهم خلفنا وقد جُيِّفت أجسادهم الهامدة كالتلال الضخمة التي ارتفعت فوق مستوى أسوار مدنهم الخربة... وزخمت الرياح بروائحها الكريهة التي حلت محل رياح الشرق الزكية!

يالوقاحتكم وبالرعونتكم! لم يجرؤ قبلكم أحدٌ من أصحاب تلك الجثث المتراكمة -حينما كانت تسكنها أرواحها- على حمل السلاح في وجهنا أو التفكير في المقاومة.. لم نجد منهم إلا كل استسلام وخنوع ويأس وخوف. أو السعي

خلفنا نحو تحالف مخزٍ أو ركوع مُذل. وجبن بلغ آفاق كل ما اجتحناه من أقطار شاسعة. فهل يمكن أن يكون لكم رأي آخر مخالف لإرادتنا نحن جنود الأرض وحَمَلَة لواء الهيمنة على البشرية؟

نحن الجنود التي سخرها ربكم كسَيفٍ مُصْلَتٍ على رقابكم، ورقاب كل من فجر وكفر بالنعمة منكم -وفقا لأعرافكم وشرائعكم- وتخلى عن نهج معبودكم الذي ارتضيتموه لأنفسكم».

انضم إلى الركب الكثير من الخوارزميين والترك، وتوافد عليهم بعض الأمراء الأيوبيين. جاؤوا من كل صوب يزحفون، خرجوا من ديارهم يحرصون على الموت، بقدر ما حرص أقرانهم -الذين قضوا نحبهم- على الحياة. لكن المصريين استأثروا بنصيب الأسد، حُشدت الجيوش الكثيفة من الديار المصرية، لبى الناس نداء الجهاد، خالفوا دأب كل من جاورهم في الاستسلام والخنوع والركوع أمام ذلك الطوفان الزاحف من الشرق القاصي، قرروا التدخل بحسم في ذلك اليوم، كانت تلك من مراتهم التي يهبُّون فيها لإنقاذ الجميع، لكنهم كانوا في كل المرات يدهشون أهل عصرهم، كان الانتفاض بعد صمت طويل من خصالهم، لذلك كانوا يربكون حسابات خصومهم المستقرة، ويفاجئون غيرهم بما لا يتوقعونه.

كان من يتربع فوق قمة هرم السلطنة رجل من المماليك، لكنه كان فارسا من أصل نبيل، ينحدر من سلالة ملوك خوارزم الشجعان، قاده المغول إلى الأسر -حين اجتاحوا بلاد الخوارزميين- بيع بثمن بخس في الشام، لتؤول به الأحوال ويستقر بمصر في زمرة مماليك سلطانها الأيوبي.

يومها أسموه «قطز» وأرادوا وصفه بالجرو الشرس، لكن الجراء تنمو وتكبُر، فيصير أكثرها كلابا نابحة، بينما يصبح القليل منها أسودا كاسرة، وها هو الشبل الصغير الشرس -الذي ظنوه مجرد جروٍ آخر- قد صار ليثًا هصورًا، عائدًا إليهم على رأس جيش كبير، ليكسر شوكتهم ويفرق شملهم.

هذا ما كان ينقص هذه الأمة. استحال جسدها المترهل جثةً هامدة لا حراك لها، حتى أتى هذا الخوارزمي الأسير، ليصير سلطانا في مفارقة قدرية. وهو لا يزال في عرف أهل عصره مملوكًا لغيره. لكنه أتى ليحيي الموات ويبعث الحياة من جديد في أوصال الأمة التي أصابها الوهن.

هذه المرة كانت المفاجأة من نصيب التتار. كانوا قد اعتادوا الانتصار. لم تعرف لهم الهزيمة سبيلا. لم يعهدوا سوى النصر منذ أن بدأ زحفهم من أغوار آسيا البعيدة وأقاصيها الباردة، قبل أكثر من نصف قرن. لكن الهزيمة طالتهم هذه المرة قبل أن يبدأ القتال. كانت المفاجأة هي نصف النصر لخصومهم قبل أن يبادروا بالهجوم.

لم يدُر بخلدهم أن هناك من لا يزال محتفظا برغبته في المقاومة والقتال ضدهم، بعد أن بثوا الرعب في قلوب كل من حاول تحديهم، سبقتهم في كل مرة بحور الدماء، مثلت رسلهم الصامتة إلى كل من سمع بسيرتهم وأدرك زحفهم الثابت المنتظم خلال سنوات قليلة، اجتاحوا فيها نصف المعمورة، واستمروا يتجهزون لاجتياح نصفها الآخر.

لذلك كان وقع الصدمة قاسيا عليهم، حينما رأوا أمام أعينهم تلك الجيوش المنظمة التي أتت زاحفة من مصر، انضمت إليها بعض الجحافل الشامية، تحت لواء هؤلاء «المماليك» الذين أصبحوا «أمراء» بمنطق غريب لا تدركه الأفهام ولا تفقهه العقول.

- الويل لكم أيها المصريون، وسحقا لكم أيها الشاميون، والوعيد كل الوعيد لكم أيها المماليك، ستتذوقون صنوف القتل والعذاب جزاء لكم على تحديكم للخان الأعظم، ملك الأرض وقاهر العالم الذي دانت له الأقطار، وانصاعت لإرادته النافذة شعوبٌ شاءت أم أبت حتف أنفها.

هكذا كان لسان حال التتار، لكن كان للمصريين رأيٌ آخر، ففي غزة –تلك الأرض التي تلتحف بالإباء وتتحلى بالعزة– بدأ الجهاد والغزو، ولأول مرة من

نصف قرن أدرك التتار حقيقةً كانوا يحيدون منها..

شعروا بهزيمتهم الأولى قبل أن تلتقي الجيوش أو تتعانق السيوف بصليلها الصارم.. الهزيمة تلوح في الأفق وسيوف المسلمين -شاميين كانوا أو مصريين- ستُعمِلُ بنصالها في أجسادهم وتسوق إليهم مصارعهم فوق حواف حادة مستقيمة كانت أو ملتوية. فلا فارق اليوم بين سيف وآخر. أو بين سهم ورمح. تعددت الأسباب والموت واحدٌ.

الآن يتذوقون الموت ويتجرعون كأسه بعد أن طال بهم الأمد. اعتادوا أن يذيقوه غيرهم بسخاء يحسدون عليه. كأنه الماء الفرات. وقد طفقوا يسقونه غيرهم. ويُنهون صيام من يلاقيهم بكؤوس المنية السوداء. كانوا يتقربون إلى الشيطان بسفك الدماء الحارة. ويثيبهم عليها بمزيد من الهيمنة والسلطان. لكنه في ذلك اليوم -أمام تلك الحشود- قد أدبر ونأى بجانبه.

-٥٤-

جَالُوت يُقتَل مِن جَدِيد

عين جالوت - فلسطين

٢٥ رمضان ٦٥٨هـ | ٣ سبتمبر ١٢٦٠م

تهادت الشمس من مشرقها في صبيحة ذلك اليوم في العشر الأخير من شهر رمضان، لاحت في السماء بيضاء ناصعة على غير عادتها، بدت كأنها تلبس حلة بهية، تتلألأ في رونقها كأنه يوم عرسها، وتحت أشعتها البيضاء انحدرت إحدى الكتائب العسكرية نحو الوادي المنبسط وسط تلال عين جالوت، نزلت الكتيبة من فوق أحد التلال، ارتدى جنودها أردية خاصة، مزجت ملابسهم بين البياض والحمرة، وحملت راياتهم نفس اللونين، اصطفوا أثناء انحدارهم بنظام، حاملين أسلحتهم ودروعهم بتناسق بديع، زاحفين خلف بعضهم بعضا في تناغم تام.

وفي أحد أطراف الوادي وقف صارم الدين أوزبك بجوار «كتبغا» قائد المغول، وسط كتائبهم المتراصة فوق أرض الوادي الرحيب، جميعهم وقفوا يترقبون مجيء تلك الكتائب العجيبة التي بدأ توافدها من خلف التلال في هيئة لم يتوقعوها، بدت آثار المفاجأة جلية على وجه كتبغا عند مرآه لتلك الكتيبة، فمال على أذن المملوك الصارم يسأله وسط دهشته:

- سُنْجُق من هذا يا صارم الدين؟

كان المملوك الصارم ينتظر السؤال ويتوقعه فأجابه بتلقائية:

- هذا سنجق الأمير شمس الدين سنقر الرومي.

ظهرت أمارات الامتعاض على وجه «كتبجا». فلم يكن يألف هذا في كل غزواته السابقة. وخلال نصف قرن خاض خلالها معاركه ضد كل من قابله من شعوب الشرق. لم يصادفهم سوى مختبئين خلف الأسوار والحصون. ظهروا دائما أذلاء في خضوع مهين. أو فارين مولين الأدبار أمام جيوش التتار. أو خانعين مستسلمين للذبح تحت نصال سيوفهم البتارة. لكن ما يراه أمامه الآن خالف توقعاته. وأكد له ما رواه مساعده «بيدرا نوين» الذي لحق به بعد هزيمته في غزة.

لم يمض وقت طويل على نزول الكتيبة الأولى. حتى لاحت كتيبة أخرى أخذت تهبط من التلال بنفس النظام كقرينتها. لكن جنودها كانوا يرتدون ملابس صفراء. تساءل كتبجا من جديد في عصبية:

- وكتيبة من هذه أيضا؟!

أجابه صارم الدين بنفس التلقائية:

- هذه كتيبة الأمير «بلبان الرشيدي»

تتابع هبوط الكتائب بألوانها المميزة. ونظامها المحكم. وظل صارم الدين يتلو على مسامع كتبجا أسماء وهمية لا يعرفها لقادة الكتائب. وأمراء المماليك واحدا تلو الآخر. حتى ابتلع كتبجا لسانه وألجمته الصدمة مما رأى. أما الكتائب الملونة فقد تراصت على أرض السهل المنبسط. وظهر في منتصف طلائعهم من بعيد «ركن الدين بيبرس» قائدهم المحنك بهيئته المميزة.

لكن ما أثار حفيظة كتبجا وجميع قادة المغول هي تلك الفرقة العجيبة التي حملت آلات إيقاعية ضخمة. وأخرى نحاسية بأصوات رنانة. طبول الحرب كما لم تطرق آذانهم من قبل. ظلت تقرع بدوي مزلزل. وتتابعت بإيقاعات مميزة. تصحبها أبواق صاخبة ذات أصوات مدروسة. لم يفهم التتار وظيفة تلك الكتيبة. ظنوا أنها أتت لتقرع طبولها تشجيعا للمصريين على الإقدام وترفع معنوياتهم. تيقنوا وقتها أن خصومهم قد تجهزوا للمعركة جيدا هذه

المرة، وأتوا بعرض غير مسبوق.

أسرّ صارم الدين في نفسه ضحكة ساخرة لم يستطع إطلاقها علنا، حتى لا ينكشف أمره أمام كتبجا، غمرته السعادة وهو يسترجع ما قام به سرا. كان يعلم أهمية تلك الإيقاعات. أدرك بأن الأمور تسير بنجاح حتى تلك اللحظة. توزيع جيش المماليك وزحفهم بعد شروق الشمس -كما أوصاهم- يدل على أن اتفاقه السري معهم قد تم تفعيله. أدرك أنه كان موفقا حين عرض على هولاكو عند مغادرته إلى عاصمة المغول -قبل سبعة أشهر- أن يضمه إلى جيوشه. رأى فيه هولاكو جاسوسا مثاليا. وظن أنه سيفيد كتبجا كثيرا في تعريفه بتسليح الجيوش المصرية والشامية وعتادها. أخبره صارم الدين بعلمه بأسماء أمراء المماليك وإمكاناتهم العسكرية. فهو من أصل المماليك. لذلك ظن هولاكو أنهم سيعطونه الأمان لأنه منهم. انخدع هولاكو بإخلاص «صارم الدين» المفتعل. لكن صارم الدين هو من قام بخداعه. قرر أن يلعب دور الجاسوس المزدوج. وأضمر في نفسه تقديم الأخبار الصحيحة للمماليك، وتقديم أخبار زائفة للمغول.

انقلبت الموازين قبل بدء المعركة. تولدت ثغرة خطرة في جهة التتار. كان صارم الدين يقف شامتا وسط قادة المغول. يُظهر غير ما يُبطن. بعد أن أتم مهمته الاستخباراتية بنجاح، استفاد أمراء المماليك من رسالته. وانعكس ذلك على تخطيطهم للمعركة وعلى تجهيزهم للجيش. كان يشهد الموقعة التي انتظرها منذ اليوم الذي بدأ فيه خطته العبقرية.

توالى هبوط فيالق الجيش من فوق التلال. امتلأت الوادي عند السفوح بالمصريين والشاميين وحلفائهم. كان موقعهم مميزا. كانوا يقفون على أرض مرتفعة تعلو فوق الأرض التي يقف التتار فوقها. جاؤوا في توقيت محسوب عند شروق الشمس كما أوصاهم المملوك الصارم. ميزوا كتائبهم بألوان مختلفة. دربوا الفيالق على إيقاعات الطبول لتنفيذ تكتيكات مدروسة. شفرات صوتية

معلنة يعرفها كل فيلق لتنفيذ مهمة بعينها.

اتفق كل من قطز وبيبرس على أن يكثفوا الهجوم نحو ميسرة جيش التتار. كان صارم الدين وجماعة كبيرة من مماليك الملك الأشرف الأيوبي يرابطون في الميسرة. كان المملوك الصارم قد وعد أمراء المماليك بالتراجع أمامهم، ليسهل عليهم هزيمة الميسرة التترية بسهولة. أما المفاجأة الكبرى التي أعدها قطز وبيبرس فهي مرابطة الفيالق الأخرى خلف التلال لمباغتة التتار أثناء المعركة.

شن كتبغا هجوما ضاريا على مقدمة الجيش المصري، تصدى له بيبرس وفيالقه ببسالة. ضغط التتار عليهم بشراسة انكسرت لها ميسرة الجيش المملوكي، تراجعت الفيالق في انسحاب متفق عليه. تقدم التتار بقوة نحوهم، ظنوا أنهم تمكنوا منهم أخيرا بعد نزال طويل بلغ نصف النهار. أمر كتبغا جنوده باختراق الصفوف وتصفية من يواجههم في قلب الجيش المملوكي بعدما انكسرت ميسرته. لكنهم لم يدركوا أنهم يزحفون بأرجلهم نحو كمين متقن وفخ محكم.

ازداد تراجع الفيالق وقادة الألوية ينظرون إلى بيبرس في انتظار اشارته، توالت عليهم الغارات، اشتدت عليهم وطأة السيوف. تساقط الرجال كأوراق الخريف. كثر القتلى من الجانبين. ظل بيبرس متحفزا يتحين اللحظة الموعودة، أخذ يُعمل بسيفه في أجساد من يلاقيه من التتار وعقله يدور بسرعة. الأنفاس تتلاحق، الأجساد تسقط، الدماء والأشلاء تتطاير. تراجع بيبرس نحو كتيبة الطبول. أظهر نفسه لقادتهم، رفع يده عاليا وهو فوق فرسه. أخيرا أعطاهم الإشارة لإطلاق الإيقاع المنشود.

ارتفعت أصوات دقات الطبول في إيقاع مميز، ودوّت رنات آلاتهم النحاسية، اخترقت أصوات الأبواق أسماع من كان بساحة المعركة. وانتشر صداها على مرمى فراسخ عديدة. فجأة انحدرت فيالق أخرى بألوان غير معتادة من فوق التلال إلى أسفل الوادي. قطز على رأس الجنود ينهب الأرض بفرسه مشهرا

سيفه أمامه. انتشروا في أرجاء الوادي من كل صوب حتى حاصروا التتار. عندها أدرك قادة المغول أن تلك الكتيبة المتأخرة تقوم بمهمة إبلاغ الأوامر والتكتيكات لجميع الألوية في ساحة المعركة، وفقا لخطة مدروسة بعناية وتدريب فائق. لكن قادة المغول وجنودهم من التترلم يستسلموا بسهولة، كانت مهمتهم لا تزال عفية تثقل ميسرة الجيش المصري بضراوة. زاد ضغطهم على الميسرة حتى كادوا أن يخترقوا حصارهم. أدرك قطز ما يحدث. وشعر بأن دفة المعركة تميل نحو التتار. ما حققه جنوده كاد أن يضيع. النصر الذي اقترب يوشك على الضياع. دماء من قتلوا جميعا ودماء زوجته -التي استشهدت لتوها- تكاد أن تذهب سدى. وفي غمرة مشاعره ألقى بدرعه وخلع خوذته وطوح بها ليعرفه الجميع. صرخ بصوت كالزئير فتزلزلت التلال من حوله وارتفع صداه في سماء المعركة:

- الله أكبر.. واإسلاماه.. واإسلاماه!

كان لصراخه وقع السحر في نفوس جنوده. انتفضوا بحماس جنوني وأخذوا يقاتلون بفدائية. انقض رفاقه من فوق التلال بسيوفهم على رؤوس وأجساد التتار كالنسور الجارحة. تجمد التتار في أماكنهم غير مصدقين. حاولوا الصمود. قاوموا بعناد. حاولوا صد الغارة الساحقة. لكن مقاومتهم انهارت فجأة. انسحق الكثير منهم تحت سنابك الخيول. صوبوا سهامهم ورماحهم نحو قطز في محاولة يائسة لاغتياله. لكنها أصابت فرسه فسقط من فوق ظهره. سعى على قدميه بلا جواد يطاعن أجسادهم بسيفه. أدركه أمير مملوكي وهبط له عن فرسه. لكنه رفض قائلا بكياسة:

- لا أريد أن أحرم رفاقك من جهدك.

ظل يقاتل كالأسود مترجلا حتى انتصف منهم. جاؤوا له بجواد آخر فقبله على مضض. شيئا فشيئا تقهقرت مؤخرة التتار وبدأت موجات الفر تظهر في فيالقهم. عدوى انتشرت في الجيش التتري وأطلق كل من يستطيع الفرار

ساقيه للريح، لكن الفيالق المصرية والشامية والمملوكية أطبقت عليهم من كل الجهات واخترقت خطوطهم، حمل بيبرس على من تبقى من ميسرة التتار بجنوده، كان صارم الدين هناك مع رفاقه، تركوا ميمنة جيش بيبرس تتقدم دون مقاومة كما وعدوهم، انسحب صارم الدين والمماليك الأيوبيين مع التتار المنسحبين، تظاهروا بالذعر والفزع، كانت الفرحة تملؤهم وهم يتظاهرون بالفرار، هلكت ميسرة التتار عن آخرها ولم يبق فيها جندي واحد، لم يكن قلب جيشهم أفضل حالا، فقد انسحق تحت وطأة فيالق قطز التي كانت لا تزال محتفظة بقوتها وحماستها، حتى الفيالق التي بدأت المعركة من أولها هبت للقتال من جديد، دب فيهم الحماس عند مرأى أقرانهم، ومع صرخات قطز الحماسية انتفض العديد من المصابين والجرحى ليعاودوا القتال من جديد، لم يعد لجيش التتار صدر ولا ميسرة، وفر معظم جنود الميمنة، ومن تبقى منهم انضم إلى من تبقى من قلب الجيش، حوصروا بين الفيالق المصرية والشامية، طوقوهم من كل الجهات، لكن كتبغا كان بينهم، لازال الضبع العجوز يصول ويجول في شجاعة، يصرخ في كبرياء محفزا من تبقى من جنوده للقتال حتى آخر رمق، أخذ يضرب يمنة ويسرة، أقسم على ألا يموت إلا وهو يُزهق الأنفاس ويسفك الدماء، أدرك المقاتل العنيد أنه خسر المعركة، لكنه رفض أن يفر مع الفارين، «بيدرا» أيضا كان هناك، أخذ يصرخ في قائده حتى ينجو بحياته، جذبه من ملابسه مرارا ليقنعه بالهرب، لكن كتبغا نهره قائلا:

- لا مفر من الموت هنا يا «بيدرا»، تراجع أنت ومن معك واحمل لواءنا من جديد، لا تستسلم لهم، اذهب الآن.. فلا بد أن يبقى على قيد الحياة من يعيد لنا هيبتنا.

وقف «بيدرا» يتأمله طويلا، ثم غاب وسط سحب الغبار الكثيف تاركا خلفه قائده العجوز.

أدرك كتبغا أن جيشه قد انهزم، هذه هي الهزيمة الأولى التي ينالها في معركة

حقيقية أمام المسلمين، وكان يعلم أنها الأخيرة. أيقن بذلك في قرارة نفسه وهو يتجهز للموت، لكنه لم يكن يتصور قبلها بأن هزيمته ستكون على أيدي طغمة من المماليك، أدرك أنه أخطأ في تقدير قوتهم وحنكتهم، أدرك أيضا أنه أخطأ حين لم يحتَط بقوات إضافية خلف الوادي كما فعل المماليك، لكن إدراكه لذلك كان متأخرا.

قرر في نفسه أنه سيموت الآن، سيواجه الموت بشجاعة رجل سبعيني خاض عشرات المعارك وانتصر فيها جميعا، فليمت الآن قبل أن يعاين الهزيمة بعينيه وقبل أن يتجرع مرارتها، وقف بجسارة -بعد أن فقد فرسه- في صدر جنوده الباقين على قيد الحياة، أخذ يوزع طعناته على أجساد أعدائه، استأسد من معه من الجنود حين رأوه يقاتل بلا استسلام، وصنعوا بأجسادهم جدارا منيعا عصيا على الاختراق.

على الجانب الآخر كان قطز يتقدم بثبات في طليعة فيلق من الفرسان المهرة، رأى كتبغا فعرفه على الفور، ذئب عجوز لكنه قوي البنية، يتحرك بخفة وبراعة لا تتناسب مع سنه، استطالت لحيته البيضاء المجدولة حتى عقدها خلف أذنيه.

تعجب قطز من هيئته وبأسه رغم تجاوزه السبعين، لكنه عزم في تلك اللحظة على تخليص العالم من شره، وجه فرسه في اتجاهه وأعد العدة لاقتناص رأسه، لكنه أدرك أن اختراق هذا الجدار البشري لن يكون ميسورا، في اللحظة التالية فوجئ قطز بطوفان جارف من الفرسان يقذفون بأجسادهم فوق فرسان التتار في هجوم فدائي عنيف، تخلوا عن جيادهم ليهبطوا فوق رؤوسهم ببراعة، أعملوا فيهم سيوفهم ورماحهم وخناجرهم، انهار الجدار البشري فجأة وكشفت الصفوف عن كتبغا وفرسانه، بعدها اخترقت الصفوف بعض الجياد مسرعة كالسهام حتى انتهى أحدها إلى حيث يقف كتبغا، هبط راكب الجواد من فوق فرسه ووقف عاري الصدر أمام السفاح.

تبادل مع الرجل بضع كلمات لم يتبينها سواهما وسط صخب القتال، بدأ النزال العنيف. لم يكن الفارس المترجل سوى جمال الدين أقوش الشمسي، فارسٌ بارعٌ استطاع أن يصل إلى قائد المغول قبل السلطان نفسه. أجهز عليه بإصرار وبأس، وظل يراوغ ويناور ويفادي ضربات كتبجا السديدة. سدد سيفه نحوه بضربات مدروسة حتى أفقده قوته ومعها سيفه. أثخن جسده بجراحات عميقة سالت منها دماؤه. أخيرا خر الجسد القوي للرجل السبعيني العنيد. هبط على ركبتيه رغما عنه وقاوم رغبة في الانطراح أرضا.

ثبت المملوك ذبابة سيفه على صدر كتبجا وهو يقول متشفيا:

- سقطتَ أخيرا أيها الشيطان وحانت نهايتك.

أجابه كتبجا وهو يحاول النهوض في عناد:

- حتى لو حانت نهايتي يا هذا، فإن كنت تظن أنها نهاية جنود الأرض فأنت واهم.

أجابه جمال الدين بقسوة:

- بل هي نهايتكم جميعا. ولتعلم قبل أن أرسلك إلى الجحيم أننا لن ننعم بعيش حتى نقضي على قومك من تحت أديم السماء ونطهر أرضنا منكم.

في نفس اللحظات التي أنهى فيها عبارته كان قطز وفرقته قد وصلوا إلى حيث يقف الرجلان. هبط قطز من فوق ظهر جواده، وتوجه إليهما قائلا لكتبجا في اعتداد:

- الحمد لله الذي مكننا من رقابكم أيها السفاحون. استعد للموت يا قائد الشياطين.

نظر إليه كتبجا في تحدٍ يتناقض مع موقفه وهو يقول:

- لا تفرح بانتصارك الزائف أيها السلطان المغرور، ما هي إلا أيام قلائل ويسحقكم جند الأرض.

أجابه جمال الدين الذي كان لا يزال مسلطا سيفه نحو صدره قائلا بصرامة:

- بل نحن من سيسحقكم عن آخركم. وسأقتلك الآن بسيفي أيها الوقح.

أشار إلى جنوده فأوثقوا أذرع كتبجا ورفاقه خلف ظهورهم. قدموه إلى الأمام وأحنوا ظهره حتى صار جاثيا على ركبتيه. ظل على وضعه دون حراك قبل أن يرفع رأسه في اتجاه جمال الدين وقطز. وقال بثبات:

- حين يبلغ هولاكو خان خبر مقتلي: فلسوف يطأ أرضكم بجيوش لا قبل لأحد بقتالها.

قالها وأعاد رأسه إلى موضعها وسلط عينيه إلى الوادي أمامه. رفع جمال الدين سيفه وهوى به على عنقه بلا تردد. سقط رأس الطاغية. وسالت دماؤه تخضب الأرض. تأملوا جميعا المشهد. تراءى أمام ناظري قطز مشهدا مماثلا. داود النبي يقطع رأس جالوت. رأس الطاغية يسقط في نفس الموضع. ودماؤه تروي نفس البقعة. الآن سقط رأس طاغية آخر. قُتل جالوت اليوم من جديد.

-٥٥-

مُجرَّد قِلادَة

انطلق بهدرا إلى الشمال الشرقي نحو بيسان مع من بقي من جيش التتار. تردد طويلا قبل الانطلاق. لم يكن لديه ما يخسره فعليا. كان قد خسر زوجته فانسا. قتلها بيديه جزاءً لخيانتها. انهزم في غزة، وبعدها في عين جالوت. ومعها خسر قائده ومعلمه كتبغا. شهد مقتله من فوق أحد التلال. عاين نزاله الأخير قبل أن يغادر عين جالوت إلى بيسان. كان يفضل الموت بجواره على أن يفر مع الفارين. لكنه أراد أن ينفذ وصية قائده ويواصل القتال. كما أنه لم ينه انتقامه بعد. هولاكو لا يزال على قيد الحياة. كان يريد أن يقضي عليه قبل أن يموت. لذلك تخفف «بهدرا» من كل ما يحمله إلا من سيفه وجرابه الجلدي المعلق عند خصره. تحسس الأشياء بداخله فوجدها. القلادة التي انتزعها من عنق «فانسا» بعدما قتلها، لا يزال يحتفظ بها. لم يفكر أبدا في أن يضعها في عنقه. لذلك ظلت مكانها. كان قد فقد الكثير من متعلقاته في عين جالوت، لكنه لم يفقدها كباقي الأشياء. قرر ألا يرتديها أبدا. فلا بد أنها كانت مهداة لـ «فانسا» من هولاكو نفسه.

نظر حوله يتأمل المكان. مروج بيسان تمتد حوله في كل اتجاه. أرض خصبة شاسعة ممتدة الأطراف. مليئة بالنخيل إلى مرمى البصر. يخترقها نهر الأردن وتنتشر فيها العيون والينابيع المتفجرة. نازعته نفسه لأول مرة وامتلأ قلبه بالحنين إلى أرضه البعيدة منذ رحيله عنها. حيث وطنه الأم. البحيرة العظيمة والسهول المنبسطة بين الجبال في أرض أجداده المغول. لأول مرة تساءل في نفسه.. لماذا نحن هنا؟

لم تكن سوى طموحات رجل جشع مريض سيطر عليه جنون العظمة. هي ما قادتهم إلى تلك الأراضي لسفك دماء أهلها. والاستيلاء على أموالهم. وانتهاك حرماتهم.

تبا لها من أطماع.. الآن يدرك بيدرا أنهم مجرد عبيد لنزوات جنكيز خان ومطامع ذريته. أدرك أيضا أن امبراطورية المغول ستتحطم بعد تلك الهزيمة. هذه المرة لن تقوم لهم قائمة.

وصل من بقي من جنوده إلى بيسان تباعا. ولحق بهم رفاقهم الآتون من صوب دمشق وحلب وباقي مدن الشام حين سمعوا بالهزيمة. ظل بعض قادة الألوية في المروج الرحيبة ينظمون الصفوف من جديد. كانوا يستعدون لمعركة جديدة مع المسلمين. لكن «بيدرا» علم أنهم مهزومون لا محالة. لن يقاتل بنفس الروح التي أبداها في عين جالوت. لكنه علم أيضا أن رفاقه في هذا الجيش الأخير سيقاتلون بضراوة. كان يعلم أنهم سيُظهرون بسالة من لم يعد لديه شيء ليخسره. ومع ذلك فقد كان متيقنا من هزيمتهم. سيعمل على الاستعداد للهروب والعودة إلى حيث هولاكو. ربما ينال منه ليخلص العالم من شروره. هكذا حدث نفسه بالانتقام منه. ويوما سيلقي بالقلادة لتسبح في دمائه الدنسة.

مرت أيام قلائل وصار الجيش المرتجل جاهزا للقتال. أقام قادة الألوية تحصينات عدة عند مشارف الوادي. ربضت الفيالق في مواقعها في انتظار جيش المماليك المنتصر.

في اليوم التالي. لاحت طلائع الجيش العربي المملوكي في الأفق الممتد. لم يمر وقت طويل حتى التقى الجمعان. تقاتل الجيشان بشراسة. تصادم الجنود بقوة أكبر من المعركة الأخيرة. كاد التتار أن يتغلبوا على خصومهم. لكن الغلبة في النهاية كانت من نصيب جيش قطز وبيبرس.

لم يبق من جيشهم إلا شذرات من الجنود المشتتين هنا وهناك. انقلبوا على

أعقابهم هاربين بغير هدى. «بيدرا» نفسه أصابه الإعياء ولم يظفر سوى بجواد شارد. امتطاه بصعوبة من كثرة الإنهاك. حتى جرابه الجلدي لم يعد هناك. سقط منه في المعركة. مشهد النهاية المرجوة لهولاكو مع قلادته السابحة في دمه -الذي كان بيدرا يأمله- لن يتحقق. ذهبت القلادة بلا رجعة. أخذ يبتعد عن موقع المعركة دون أن ينظر وراءه. هذه الأرض ليست لهم. لا يوجد بها ما يستحق البكاء سوى الهزيمة. والذكريات الأليمة لفقد معلمه الجسور كتبجاء. حتى القلادة لم تعد له. هذه المروج المترامية ستطوي ذكريات غابرة. لم يبق هناك من أثر لقائده ولا لزوجته الخائنة. حتى قلادتها لم تعد هناك. كانت مجرد قلادة. وقد ذهبت مع الذاهبين.

-٥٦-

أثْمَن الغَنَائِم

- تفضل يا جلالة السلطان.

نطق فارس الدين أقطاي المستعرب «أتابك العسكر» بالعبارة في احترام، وهو يمد يده إلى الملك المظفر سيف الدين قطز بالقلادة. انتزعت العبارة «قطز» من شروده العميق، فالتفت إليه متسائلا:

- ما هذه يا فارس الدين؟

أجابه الأتابك مبتسما في ود:

- إنها أثمن الغنائم على الإطلاق.

تأمل قطز القلادة للحظات قبل أن يلتقطها من يده ليتفحصها بإمعان، وهو يقول بنفس الشرود:

- قلادة عتيقة! هل هي غنيمة تترية؟

أجابه الأتابك:

- فقدها أحد قادة المغول في بيسان، وساقها إلينا أحد جنودنا الأمناء، فرأيت أنها لا تليق إلا بك.

أشاح قطز بوجهه الذي يكسوه الحزن والشرود، وهو يقول في عزوف:

- لا حاجة لي بها يا فارس الدين، من الأفضل أن تذهب لبيت المال.

تأمله الأتابك للحظات ثم قال مستجديا:

- هون عليك يا «خوند»، فكل ما فات يمكن تعويضه. إن كنت حزينا لفقد زوجتك فيمكنك الزواج من أخرى، وإن كان حزنك على ما جرى في البلاد، فقد حققت نصرا لم يحققه سواك، وأعدت للأمة هيبتها بعد أن كسرت شوكة

التتر.

قطب قطز جبينه بضيق قائلا:

- زوجتي «جلنار» رحمها الله لا تعدلها أخرى يا فارس الدين، وقد ارتقت إلى بارئها مجاهدة صابرة قانتة لله عز وجل، وأسأله تعالى أن يلحقني بها في الصالحين، وأما النصر فلم يكن من صنعي، بل هو من الله عز وجل ثم بجهاد المخلصين، ثم إن المعارك لم تنته بعد، ولن تنته قبل وقت طويل.

قال الأتابك:

- ماذا يحزنك إذن يا «خوند»؟، سنقهر أعداءنا وستؤول الأمور إلى ما هو أفضل بأمر الله.

هز قطز رأسه ببطء وهو يقول:

- أخشى أن تؤول إلى الأسوأ يا فارس الدين، ما دامت جبهتنا متصدعة من داخلها.

قال الأتابك في حذر:

- أتقصد الأمراء؟

قال قطز في أسى:

- أجل، الأمراء يضمرون غير ما يظهرون، لكني أرى ذلك في وجوههم وفي كل لفتاتهم.

صمت قليلا وأطرق برأسه قبل أن يقول بضيق أكبر:

- وما يحزنني أكثر هو أن يتورط الأمير «ركن الدين» معهم!

مط فارس الدين شفته السفلى في أسف وهو يقول:

- يبدو أنه غاضب من أنك لم توليه إمارة حلب كما وعدته أيها السلطان.

هز قطز رأسه نفيا، وهو يقول:

- أنت لا تعرف بيبرس كما أعرفه يا فارس الدين، فصحيح أنني تراجعت عن توليته حلب، وصحيح أن ذلك قد ضايقه، لكن هذا ليس السبب الحقيقي

لتغييره، الأمراء يحرضونه منذ أن بلغنا دمشق، ويوقظون في نفسه العداء القديم بين فريقي الأمراء، ثم إنني لم أتراجع عن وعدي له إلا لوعد أفضل منه، ولقد أخبرته بذلك.

نظر فارس الدين إلى قطز بتساؤل قائلا:

- وبم وعدته أيها السلطان؟

أجابه قطز وهو يحول أنظاره بعيدا:

- وعدته بما هو أكبر من حلب ومن دمشق ومن كل الإمارات. أخبرته أنه سيحكم أرضا كبيرة، وسيحكمها من قلعة الجبل، أخبرته أيضا أنني سأعلن ذلك فور وصولي إلى المحروسة.

تملكت الدهشة من فارس الدين فقال:

- ورغم ذلك لا يزال غاضبا؟!

تابع قطز وكأنه لم يسمعه:

- لكني أوصيته أن ينزع حب السلطة من قلبه، وأن يتغلب على هوى النفس، عندها فقط سيصير صالحا للمهمة.

اقترب فارس الدين من قطز حتى صار في مواجهته ثم قال بنفس الدهشة:

- أي قول هذا أيها السلطان؟ تتنازل له عن حكم مصر؟ وبعد هذا النصر العظيم؟ أتترك حقا فداحة أن تسلطه عليك وعلى سائر خلصائك، بينما قلبه قد امتلأ بالضغينة والسخط عليك؟

وضع قطز يده على كتف فارس الدين ثم قال وهو يتنهد:

- قلت لك إنك لا تعرف بيبرس كما أعرفه، وأحسب أن الله سيعز به تلك الأمة.

أجابه فارس الدين في استنكار:

- ولكن يا جلالة السلطان هذا الرجل...

قاطعه قطز بحسم:

- لقد اتخذت قراري يا فارس الدين، ولن أتراجع عنه، سأسلم بيبرس مقاليد الحكم، وهذه أوامري ووصيتي وعليك تنفيذها مهما تكلف الأمر، حتى لو كان الثمن حياتي نفسها.

صمت فارس الدين بغير رضا، ثم قال مستجديا قطز:

- حتى لو كنت تعلم أنهم يضمرون بك شرا ومعهم بيبرس؟

أجابه قطز متأملا:

- حتى لو أنهى حياتي بيديه، فلا بد لك من تنفيذ الوصية، سيكون بيبرس سلطانا لمصر وإمارات الشام، سيصير بطلا عظيما، وظاهرا على أعداء الأمة.

حاول فارس الدين استيعاب الأمر لكنه عجز عن ذلك، إلا أنه رضخ لأمر قطز في النهاية، قبل أن يمد يده بالقلادة مرة أخرى محاولا تغيير دفة الحديث قائلا:

- حسنا أيها السلطان، فلتأخذ القلادة إذن، إن كنت لا بد تاركا للملك، فلابد لك من ارتدائها لتلقى بها أهل المحروسة حينما يستقبلونك استقبال الفاتحين المنتصرين.

ابتسم قطز ابتسامة باهتة وهو يقول:

- أعدك أنني سأفكر بالأمر.

تناول القلادة وتأملها مرة أخرى سريعا، قبل أن يخرج جرابه الذي يضعه حول عنقه تحت سترته الحربية، ليضعها بداخله ثم يعيد إحكامه حول عنقه من جديد، وهو يقول:

- أعدك بذلك.. إن كان في العمر بقية.

نَزْغُ الشَّيطَان

- لا تجهد نفسك بمنافستي يا بيبرس.

تلفت بيبرس حوله في حيرة وهو يبحث عن صاحب الصوت. كان يقف وحيدا في غابة غارقة في الظلام تقع بداخل مرج متسع. كان يعرف صاحب الصوت ويميزه جيدا. إنه صوت قطز بلا شك. لا يمكن أن يخطئ صوت صديقه القديم ورفيق الحياة.

أخذ يتلفت حوله بتحفز ممسكا بسيفه بكلتا يديه. ملأته عداوة غير مفهومة تجاه قطز. لم تكن المبارزة هي السبب. لطالما تبارزا منذ طفولتهما منذ أن كان لكل منهما سيف من خشب. وحتى بعد أن صارا فارسين ظلا يتبارزان بلا انقطاع وبلا أية ضغينة. كانت المنافسة بينهما سجال. تغلب على قطز مرات عدة، وتفوق عليه قطز في غيرها. وفي العديد من المرات الأخرى تعادلت قوتهما. لكنه يشعر الآن بانهزامه قبل أن تكتمل المباراة. فشله في تمييز مكان منافسه أربكه وأشعره بالعجز لأول مرة.

- لن تعرف مكاني يا بيبرس. فأنا لم أعد كما كنت.

جاءه الصوت ثانيةً وكأنه ينبعث من اللامكان. أرهف سمعه ودار بلفتات حادة علّه يرى أو يسمع ما يدله على مكان صاحب الصوت. لكنه عجز عن إدراكه. فصاح بعنف قائلا:

- ابرز من مخبئك يا قطز. قاتلني كفارس كما اعتدت أن تفعل. لا أراك إلا خائفا من سيفي.

أجابته ضحكة هازئة ترددت من حوله وزادته ارتباكا فزاد التفاته بجنون.

لمح شيئا يتحرك خلف أحد الأشجار. توجه نحوه بحذر مشهرا سيفه في اتجاهه. اقترب من الشجرة بخطوات متحفزة وأرهف سمعه. كاد أن يبلغ جزع الشجرة عندما انطلق جسد من خلفه كالبرق. أصابته ضربة عنيفة في ظهره دفعته للأمام بقوة. تدحرج جسده على الأرض حتى استقر على ظهره. تصاعد الألم في جسده حتى بلغ رأسه. تشبث بسيفه وهو يحاول أن ينظر حوله ليدرك خصمه. تراءى له جسد يكسوه الظلام. هذه هيئة قطز بلا شك.

تمالك نفسه وحاول النهوض لمواجهته لكنه شعر بقوته تتلاشى. قهر خفي ثبته في مكانه جعله عاجزا عن النهوض. استجمع قوته وهتف بحدة قائلا:

- لا تتريث يا قطز. اقتلني الآن من فورك إن كنت فاعلا. لا تمعن في إشعاري بالعجز.

ترددت ضحكة خصمه من جديد وهو يقول بسخرية:

- أنت عاجز عن مجاراتي حقًا يا بيبرس. أخبرتك مرارا ألا تحاول منافستي. لن أقتلك الآن. لكني سأتركك تشعر بالعجز طوال الحياة.

تملك الضيق والإحباط من بيبرس. تسربت إليه مشاعر طالما منعها من السيطرة عليه. تملكه العجز لأول مرة في حياته. لم يكن المقاتل الذي يسمح للهزيمة أن تناله منذ حداثته. لذلك خالطت تلك المشاعر إحساسه بالكراهية تجاه قطز الذي أذاقه طعم الهزيمة.

حاول النهوض من جديد. لكنه كان كمن تسمّر في الأرض. اقترب منه خصمه. تيقن من إحساسه حين طالعته هيئة قطز التي يعرفها.

- مهلا يا بيبرس.. ما هذا الذي تراه؟!

تساءل في نفسه وهو يتفرس في غريمه. كانت عينا قطز ملتهبتين كالنيران، نيران حقيقية تكاد تخرج من المحجرين. تساءل بحيرة.. متى وكيف تبدلت هيئته هكذا؟ ثم هذا الذي على صدره؟ تلك القلادة الغريبة التي لا يذكر أن قطز قد ارتداها من قبل!

حاول أن يتحرر من قيده الخفي، لكن خصمه مد يده ليمسك بعنقه، أراد أن يقاوم، لكن قبضة خصمه أطبقت على عنقه بإحكام، شعر بالاختناق وتقطعت أنفاسه، راوده الإحساس بالموت وأظلم المشهد أكثر من ذي قبل، زاد خصمه من ضغطه على عنقه وهو لا يزال عاجزا عن المقاومة، شعر بالموت يقترب، وبروحه تنسحب مع انسحاب الأنفاس، همس من بين شفتيه بكلمات خرجت بصعوبة:

- فلتكن مشيئتك يا قدوس.

ما إن نطق كلماته حتى تلاشى المشهد من حوله فجأة، فتح عينيه فوجد نفسه بخيمته التي بدأ ليلته بداخلها، كان يلهث محاولا التقاط أنفاسه المتقطعة، نظر حوله فوجد رفاقه -أمراء المماليك- قد استفاقوا على صوت أنينه، أسرعوا إليه لتفقد الأمر، التفوا حوله متسائلين عما أصابه في تلك الساعة في جوف الليل، بادره بلبان الرشيدي الذي كان أسبقهم بالوصول إليه قائلا:

- ماذا دهاك يا بيبرس؟

تأمله بيبرس وهو لا يزال يلهث من الانفعال، وقد أدرك أنه استيقظ بعد كابوس مزعج، فقال بصعوبة:

- كابوس.. كابوس خانق.

ربت بهادر المعزي على كتفه قائلا:

- لا بد أن المتطاول قطز هو من راودك في أحلامك من جديد.

تأمله بيبرس بحيرة وهو يقول:

- أجل، نفس الحلم، لكنه اليوم قد زاد في كتمه لأنفاسي عن ذي قبل، حتى أنني أوشكت على الموت.

تدخل بيدغان الركني قائلا:

- ها هو يطاردك حتى في أحلامك، لا بد من وضع حد لهذا المتسلط.

اقتحم «أنص الأصبهاني» حديثهم بكلماته وهو يقول في غل:

- بل قولوا لا بد من إنهاء حياته، ووضع حد لتلك المهزلة. هذا البائس قد ظن نفسه سلطانا ولن يتركنا أحياء، نواياه باتت واضحة. ولا بد أنه الآن يخطط للخلاص منا جميعا.

نظر إليهم بيبرس وقد هدأت أنفاسه، ثم قال بعد أن جلسوا حوله:

- ما لكم لم تتوقفوا عن ملء أذاني بكلماتكم ضد قطز. ألا تذكرون له حسنةً واحدة؟ أليس هو من عفا عما سلف وضرب عنه صفحا، حتى أعادنا من الشام بعد أن كنا مشردين هائمين على وجوهنا؟ أليس هو من فتح الله على يديه ونصره على التتر؟

اندفع بكتوت الجوكندرا يهتف مستنكرا:

- ومن شردنا سواه؟ بل قل أنه لم يتراجع إلا عند احتياجه لنا، ولولا خطر التتر الذي حدق بالجميع لما تصالح معنا واستدعانا من الشام، ثم إننا من صنعنا له هذا النصر. أمن المعقول أن تنسى كل ما فعله يا بيبرس؟ ألا ترى كيف جردنا من أموالنا ثم حرم علينا كل درهم من غنائم التتر؟ ألم تركيف سبَّنا ووبخنا وتوعدنا حين اقتسمنا بعض الغنائم؟ أنسيت قتله لزعيمنا فارس الدين أقطاي رحمه الله؟ أنسيت اغتياله لزملائنا الذي ثاروا على قتله له؟ أم أنك تريد التفريط في ثأر أستاذك ومعلمك؟

أشاح بيبرس بوجهه عنه لتصطدم نظراته بنظرات «أنص الأصبهاني» الذي استدرك على قول زميله:

- لو أنك نسيت الثأر فنحن لم ننسه يا بيبرس، لو أنك نسيت قتله أقطاي في سبيل أن يصبح نائبا للسلطان فنحن لم ننس، لو أنك نسيت قتله لرفاقنا والتنكيل بهم فنحن لم ننس، لو أنك نسيت تشريدنا في بلاد الشام وإجبارنا على الهرب من وجهه ومطاردتنا في إمارات الشام فنحن لم ننس، لو أنك نسيت اضطرارنا اللجوء للأمراء الأيوبيين فنحن لم ولن ننسى أيًا من ذلك، أما لو أنك

تغاضيت عن حقك في حلب -التي وعدك بها ثم نكص عن وعده- فهذا شأنك وحدك.

تصارعت المشاعر في نفس بيبرس، لكنه لم يسمح لها بالطفو على صفحة وجهه، زاد اقتناعه بما يقولون لكنه كان دائما ما يلتمس العذر لقطز، صديقه القديم ورفيقه في حياة الرق والفروسية سواء بسواء، كان يرى فيه الرفيق الصالح رغم كل شيء، لطالما اعتقد بأن قطز كان مضطرا للتورط في بعض الأمور لكونه المساعد الأول لأيبك، ورغم كل ما سمعه من رفاقه، وبرغم ما تولد في نفسه من هواجس ومشاعر عدائية -تسربت إليه مما يراه في أحلامه وكوابيسه- لكن في قلبه ظل جزء يأبى إلا التعاطف مع قطز رغم كل شيء.

اقترب قلاوون الألفي من أذنه ونطق بكلمات قاطع بها أفكاره قائلا:

- كلام «أنص» في موضعه يا بيبرس، قطز ليس بذاك الرجل البريء الذي يوحي به مظهره وورعه، بل هو داهية ماكر وصاحب حيلة واسعة، حتى إنني لا أستبعد أنه من كان خلف كل الأحداث التي جرت منذ البداية، فلا أستبعد أنه كان وراء قتل «شجر الدر» لزعيمه عز الدين أيبك، بل ووراء مقتلها هي نفسها بتحريضه لأم المنصور، وحتى «عز الدين الحلبي» كان قطز يقف وراء مقتله، ولو أنه وراء كل ذلك فعليه أن يكفر عن أفعاله.

التفت إليه بيبرس بنظرة جامدة أخفت دهشته بداخله، فلو أن الأمر كذلك فإن قطز لم يكن إلا شيطانا، هكذا بدا له في تلك اللحظة، أمن الممكن أن يكون قطز هو من كان دائما خلف الستار لتحريك الأمور في هذا الاتجاه؟ أمن الممكن أن يكون قطز بهذا الدهاء والمكر؟ أمن الممكن أن يدبر كل هذا لتستوي له الأمور ويؤول له عرش مصر؟ حاول طرد تلك الأفكار من رأسه، لكن «أنص الأصبهاني» مال نحوه وهو يقول من جديد بلهجة حاسمة:

- سيدفع قطز الثمن، رضيت بذلك أم لم ترض يا بيبرس فسنأخذ بالثأر، بيدك أو بيدنا فسينال جزاءه.

طالت حيرة بيبرس وظل الجميع يراقبون خلجاته وهو ينقل نظراته إليهم، إلى أن قال بخفوت:

- لا أقوى على أن أمسه بسوء، لا أستطيع أن أنال منه بعد أن شاركته الجهاد والغزو، كما أنني أخشى ألا تستقيم الأمور من بعده إن أنتم أخذتم بثأركم منه، فيخلو كرسي السلطان.

أجابه أنص بلهجة لا تقبل الجدل:

- لن تلوث يدك بدمائه، دع لنا تلك المهمة على أن تلتزم بدورك، أما أمور السلطنة فلا أرى غيرك يصلح لها يا بيبرس، أنت أبرعنا وأقوانا وأكثرنا حنكة ومهارة وسياسة، ومن الآن فصاعدا، المُلك لمن غلب! أنت السلطان يا بيبرس شئت ذلك أم أبيت.

أيده رفاقه جميعا بكلمات مشجعة، فقال بهادر المعزّي:

- يجب أن ننفذ خطتنا قبل أن يصل إلى قلعة الجبل، فلو بلغها لانتهى أمرنا جميعا وأنت أولنا يا بيبرس، سيصير في أوج قوته وطغيانه وانتصاره، لن نتمكن منه لو تربع على كرسي السلطنة آمنا مطمئنا بين أهل المحروسة.

التفت إليه بيبرس متسائلا:

- ماذا تقصد يا بهادر؟

تدخل بلبان الهاروني قائلا:

- يقصد أن خطتنا ستنفذ بأقصى سرعة، غدا صباحا سيستكمل الجيش زحفه نحو الصالحية، ويجب علينا اقتناص الفرصة قبل فوات الأوان.

قطب بيبرس جبينه وهو ينظر إليهم جميعا، قبل أن يقول في تحفظ:

- وماذا تريدونني أن أفعل؟

مال أنص الأصبهاني نحو بيبرس من جديد وهو ينظر في عينيه:

- ستعطله وتعيق حركته وتشغله حتى نجهز عليه، هذا كل ما نريده منك، لن تتورط في دمه إن كانت تلك رغبتك، لكن لتعلم جيدا يا بيبرس أنك إن لم تفعل

فستعد ذلك تضحية منك برقابنا.

تباعد أنص عن بيبرس ثم نهض متراجعا إلى الخلف وتبعه رفاقه جميعا وهو يقول بلهجة تحذيرية:

- تخيريا بيبرس، إما نحن.. وإما قطز.

انسحب الجميع إلى الخارج، وبقي بيبرس وحده يصارع أفكاره، لو أن قطز قد ارتكب كل تلك الخطايا فعليه التكفير عما فعل، لن تنتهي كل تلك الضغائن إلا بسداده الدين، هكذا سيطرت عليه الفكرة وحرمته النوم حتى أشرقت الشمس.

-٥٨-

السُلْطَان المَغْدُور

تهادت الفيالق المصرية المنتصرة في طريق عودتها من أرض فلسطين في اتجاه مصر. كان الجند يسيرون مبتهجين، تكلل رؤوسهم نشوة النصر الذي حققوه على التتار. يتقدمهم قادة المماليك. كانوا قد قطعوا معظم الطريق حتى أصبحوا على مشارف الصالحية في شرق الديار المصرية. نقطة الانطلاق التي بدؤوا زحفهم منها قبل شهور. أراد سلطانهم المظفر التوقف ليمنحهم قسطا من الراحة حتى يتمكنوا من استكمال المسير. أشار إلى فارس الدين أقطاي المستعرب أتابك العسكر. فأصدر أوامره بدوره لقادة الألوية بأن يتوقفوا. انزوت كل كتيبة في ركن من أركان السهل لنصب الخيام وإطعام الخيول.

لم يهبط السلطان عن فرسه حتى لمح أرنبا بريا كبيرا، يركض متزعجا من أصوات الجنود الصاخبة. حوّل قطز فرسه فورا في اتجاهه لاصطياده. زادت الطريدة من سرعتها فزاد قطز من انطلاقه خلفها. تبادل أمراء المماليك النظرات. كانت لحظة مرتقبة علموا أنها لن تتكرر. انطلقوا خلفه من فورهم دون تردد. لم ينتبه لانطلاقهم سوى أتابك العسكر فارس الدين. أثار ذهابهم خلفه قلقه. شعر بأن تتبعهم له يخفي نية تخلو من البراءة. فكر في اللحاق بهم لكنه عدل عن الفكرة. حتما سيفقد أثرهم وسط هذه الغابة من الأشجار. لم يعد أمامه سوى الانتظار حتى عودتهم جميعا.

داخل الغابة كان قطز يطلق سهمه على أرنبه الطريد. أصابه بإحكام واقترب ليلتقطه قبل أن يجد بيبرس أمامه راكبا فرسه. تأمله للحظات قبل أن يقول متسائلا:

- أجئت للصيد مثلي يا بيبرس؟

أجابه بيبرس بهدوء:

- بل جئت ملتمسا لحاجة أيها السلطان.

تأمله قطز للحظات، ثم قال:

- يسرني تلبية حاجتك يا بيبرس، فأنت لدينا في أكرم مكان، ما هي حاجتك يا ترى؟

تأمله بيبرس بدوره وهو يصارع مشاعره الوئيدة بداخله، كان ينفذ اتفاقه مع المماليك، أما هم فاختبؤوا خلف الأشجار تحسبا للحظة المرتقبة، تباطأ بيبرس قليلا قبل أن يتخلص من تردده ثم قال:

- راقت لي جارية تركية من سبي التتر، هل يأذن لي السلطان باصطحابها؟

أومأ قطز برأسه على الفور ثم قال:

- لك هذا على أن تحسن رعايتها، وتعاملها بالإكرام.

هبط بيبرس من فرسه قاصدا تقبيل يد قطز، اقترب منه قائلا باقتضاب:

- أشكر لك صنيعك أيها السلطان.

تقدم نحو قطز بخطوات بطيئة، شعر وكأن الغابة تظلم من حوله، نفس المشهد الذي يراوده في أحلامه المزعجة، الظلام يكسو كل شيء حوله رغم أنهم في وضح النهار، قطز أمامه متسربلا بالسواد، عيناه حمراوان بلون الدم والنار، شعوره بالكراهية يتنامى في قلبه، لم يعد هذا صديقه الذي يعرفه، حتما هو شيطان مريد، تناول يده وقبلها متظاهرا بشكره وفقا للخطة، لكنه قبض عليها طويلا ولم يفلتها، انتبه قطز لذلك وتعجب للحظات، همّ بسحب يده، لكن في اللحظة التالية برز بكتوت الجوكندار من خلف أحد الأشجار منطلقا بفرسه كالسهم، ضرب بسيفه ذراع قطز التي يمسكها بيبرس في موضع الكتف.

الضربة كانت أسبق من إدراك قطز للأمر، فجأة شعر بذراعه الممدودة نحو بيبرس تكاد تنفصل عن جسده، يده التي قبض عليها الأخير منعته عن الحركة،

ضربة السيف خلعت ذراعه عن كتفه وهو لا يزال غير فاهم لما يجري. أخيرا تعاظم الألم ومع سريانه في جسده أدرك قطز الحيلة. أفلت بيبرس يده وتراجع خطوة للخلف وهو غارق في رؤياه الضبابية المظلمة. في نفس اللحظة انطلق سهم بهادر المعزي ليخترق عنق السلطان الجريح.

أدرك الجميع أن قطز ينازع الموت فبرزوا من مكامنهم. بعدها اندفع «أنص الأصبهاني» ليطرح قطز المترنح عن فرسه. في اللحظات التالية انطلقت أسهمهم جميعا نحو جسده المنطرح أرضا لتنهي الأمر.

اندفعت الدماء من بين شفتي قطز. لم يعد قادرا على الحركة وقد أيقن بالموت. أفاق بيبرس على مشهد الجسد المسجى على الأرض غارقا في دمائه وقد اخترقته السهام. أدرك في لحظة واحدة أنهم قد نفذوا مخططهم بنجاح. رأى رفاقه يقفون على مسافة من الصريع. لم يحاول أحدهم الاقتراب وكأنهم يخشونه حتى في احتضاره. لكن بيبرس اقترب بخطوات وجلة نحو قطز. مد الأخير يده اليسرى نحوه. عرف بيبرس أنه يريد التحدث إليه في سكرات موته. انحنى نحوه وهبط على ركبتيه. لمسه قطز بيده المغطاة بالتراب والدماء فلطخ سترته. حاول أن ينطق بكلمات لكنها خرجت من فمه محتضرة كصاحبها:

- لماذا يا بيبرس؟.. كانت ستؤول لك..

شعر بيبرس بصعوبة السؤال. فألجم لسانه. لكنه مد يده نحو وجه قطز مربتا. قبل أن يقول:

- لم يكن هناك مفرٌ من ذلك أيها الصديق. هذه نهاية المطاف. لعل ذلك يكفّر عن خطاياك وتنال الغفران!

تخافت النور في عيني قطز وأثلجت أطرافه وأبطأت أنفاسه. لمعت عين بيبرس اليسرى التي طالما ومضت بالغضب لترهب الخصوم. لكنها كانت تلمع من دمعة ترقرقت منها. فهمس قطز بصعوبة:

- واصل الجهاد. واحكم بالعدل.

أسلم قطز روحه وتراخى جسده وسقطت يده الممدودة، تجمد بيبرس للحظات، مد يده نحو عنق صديقه القتيل ليريحها، لامست يده الجراب القماشي المعلق بعنقه، جذبه حتى أخرجه من تحت سترة قطز ثم فتحه، بعض المتعلقات البسيطة والقليل من النقود كانت هناك، لكن القلادة ظهرت من داخله كأنها حية برزت من مكمنها، سحب يده كالملدوغ، القلادة نفسها التي رآها على صدر قطز في أحلامه، لكنه لم يكن يرتديها في تلك اللحظة، ولم يره يرتديها في أي وقت مضى!

مد يده يلتقطها ثم تأملها قليلا، رفع رأسه ليجد رفاقه ملتفين من حوله، صوب نظراته المندهشة نحو وجوههم، نهض ببطء ممسكا بالقلادة، اقترب منه بندوغز التركي قائلا في جشع:

- أرغب في تلك القلادة يا بيبرس!

تأمله بيبرس بنظرة صامتة، أعقبها بأخرى إلى جسد قطز الصريع، قبل أن يمد بها يده إليه بعدم اكتراث قائلا:

- هي لك.

ناولها له ثم توجه إلى فرسه ليمتطيه بلا كلمة أخرى، توجهوا جميعا نحو جيادهم لينطلقوا إلى حيث المخيم، لكن بندوغز ظل واقفا يتأمل القلادة في فرح، قبل أن يحيط بها عنقه قائلا في نشوة ظافرة:

- مرحى.. غنمت ما لم يغنمه الجميع، يبدو أن حسن الطالع قد هل، وأن سنوات السعد آتية.

-٥٩-

القَهْر

«إنها بداية النهاية. إمبراطورية غاشمة بنيناها على الدماء، قامت كصرح من الملح. لن تلبث وأن تذوب عندما ينهمر مطر أول سحابة عابرة. لتصير ترابا في تراب. بل طينا تدوسه الأقدام».

منكو خان ـ في سكرات الموت

***

تبريز - إقليم فارس
ذو القعدة ٦٥٨ هـ/ نوفمبر ١٢٦٠م

بركان من حمم أوشك أن ينفجر داخل نفس هولاكو. غليان ثائر كاد أن يزهق نفسه. أماله السامية المحلقة في الأعالي حطت على الأرض وتلطخت بالأوحال. كل الظروف تكالبت لتقهره. الهزيمة التي لم يعرف لها مذاقا من قبل صار يتجرع منها ألوانا. والخيبة صارت تلاحقه أينما كان.

اندحرت جيوشه تحت وطأة سيوف المسلمين في عين جالوت. وفي القوقاز تلقى الخسائر المتتالية من ابن عمه «بركة خان». ملك القبيلة الذهبية التي أسسها جده جنكيز خان. اعتنق «بركة خان» الإسلام هو وكل أفراد قبيلته الذهبية. قرر «بركة خان» أن ينتقم من هولاكو على كل ما ارتكبه من جرائم.

وها هو يؤكد تفوقه عليه ويعاجله بالهزيمة تلو الأخرى. بل الأدهى دخول الكثير من عسكر هولاكو وقوات الإلخانات إلى الإسلام وانضمامهم لقوات القبيلة الذهبية.

فقد أيضا فانسا عشيقته الأثيرة. وحتى «بيدرا» -زوج حبيبته فانسا وقاتلها- نجا من الموت الذي أرسله إليه، وعاد إليه في تبريز حيا يرزق. بالرغم من هلاك كتبغا وغالبية جيشه المهيب.

الآن يَمْثُل بيدرا أمام هولاكو المكلوم في حالة يرثى لها. قطع مع بقايا الجيش مسافات شاسعة من الشام حتى بلغ تبريز بفارس ليقف أمامه الآن.

رمقه هولاكو بشراسة وهو لا يزال جالسا على مقعده:

- كيف هزمتم؟

تماسك بيدرا وهو يكاد يسقط من فرط إعيائه وإحباطه وهو يقول بصعوبة:

- بعد رحيل الخان الأعظم منكو خان عن عالمنا، ورحيلك من حلب قاصدا «قراقورم» لحضور مراسم اختيار الخان الجديد، رحلت أنا أيضا بأوامر القائد «كتبغا نوين» من بعلبك إلى غزة في حامية مجهزة للتمركز على مشارف مصر، كان هدفنا تأمين التقدم الذي حققناه بالشام لحين وصول باقي القوات قبل الهجوم على مصر.

صمت بيدرا فزمجر هولاكو بلهجة يملؤها المقت:

- ثم ماذا؟

أطرق بيدرا برأسه وهو يجيب بنفس الانكسار:

- باغتنا المماليك على رأس فيالق كثيفة من المصريين والشاميين، وكان هذا مخالفا لخطتنا فتراجعنا تراجعا تكتيكيا إلى...

قاطعه هولاكو بصوت كالزئير:

- بل فررتم من أمامهم كالجرذان أيها الجبناء!

أجابه بيدرا مبررا:

- لقد انتثروا فجأة كالجراد من كل صوب، وجاءت توجهات كتبجا نوين بالتراجع لنلحق به في سهل البقاع قبل الزحف إلى عين جالوت، لكنه لحق بالأجداد بشجاعة، زحفت أنا ومن بقي من الجيش إلى بيسان تنفيذا لوصية «كتبجا نوين». قاتلناهم حتى كدنا أن نهزمهم، لكن جيشنا انكسر أمامهم بغرابة لأسباب غير مفهومة، لم نفعل شيئا سوى تنفيذ أوامره يا «هولاكو خان».

نهض هولاكو من مجلسه بحدة وقد تصاعدت بداخله نيران الغضب، تصحبها رغبة عارمة في الانتقام من بيدرا لقتله «فانسا» وقد وجد حجته أخيرا، فصرخ بعنف:

- بل لم تفعلوا شيئا على الإطلاق أيها العجزة سوى التقصير والانهزام.

انقض على بيدرا وأمسك بعنقه ثم طرحه أرضا بعنف، ازدادت حدة سخطه العارم للهزيمة التي تلقتها جيوشه في غزة وعين جالوت وبيسان، وتحطَّم آماله على صخرة الواقع الجديد، فعاود الانقضاض على بيدرا المنطرح أرضا خائر القوى، هم بالفتك به لولا أن قاطعه نداء أحد الحراس:

- سيدي القائد هولاكو خان، رسالة من الخان الأعظم.

أفاق هولاكو من حالة الغضب على عبارة الحارس وهو يلتفت إلى رسول الخان، أدرك أن قتل بيدرا أمامه لن يكون عملا حكيما، فسرعان ما يعرف «قوبيلاي خان» وكل الإلخانات بأن هولاكو قد قضى على القائد الأخير المتبقي بعد هلاك كل قادته وآخرهم كتبجا.

ألقى الرسول نظرة على بيدرا المسجى على الأرض في تهالك، ثم ألقى التحية على هولاكو الذي قال بغلظة دون أن يبادله التحية:

- ماذا لديك؟

فض رسول الخان رسالته ثم قرأ:

- «من الخان الأعظم إلى القائد هولاكو بن تولوي، أبعث إليك بتلك الرسالة

وأنا في طريقي إلى حاضرة الصين لتفقد أحوال أملاكنا والبدء في تأسيس عاصمتها الجديدة «خان باليق». قد علمنا ما جرى في أرض الشام وهزيمة الجيوش أمام جيوش العرب والمماليك. وهذه الهزيمة دون شك ستنال من سمعتنا، وستمس هيبتنا التي كافحنا من أجل تثبيتها. فإذا وعيت كلامنا وأدركت مرادنا فهب من فورك على رأس جيشك إلى حيث تجرأ علينا من كان بالأمس يرتعد من ذكرنا، فانتقم منهم ولا تبق منهم رجلا ولا امرأة ولا شيخا ولا طفلا، مسلحا كان أو أعزل إلا سلبته حياته.

حطم مدنهم واسلب أموالهم وامح ذكرهم. وانتهز فرصة هلاك سلطانهم الذي قتله رفاقه، واصطحب من ارتضيت من فرسان المغول، واعلم أن تراخيك في فعل ذلك سيكون أول بادرة لتحطيم حلمنا وزوال سلطاننا ونهاية عهدنا، فيتبدد حلم الهيمنة على الأقاليم السبعة كما أراده جدنا العظيم «جنكيز خان».

الخان الأعظم

قوبلاي خان

استبد الضيق بهولاكو بعد سماعه لرسالة أخيه الخان الأكبر، وسأل الرسول بحزم صارم:

- كم قطع الخان في طريقه إلى الصين؟

أجابه الرسول:

- مسيرة أسبوعين.

أجابه هولاكو بحزم:

- إذن فلن تلحقه بالطريق قبل أن يصل غايته، بل ستدركه في الصين، اكتب إليه كلماتي:

«من هولاكو خان بن تولوي خان، إلى الخان الأعظم قوبلاي خان، ليطمئن الخان بأن هؤلاء الأشقياء سيدفعون الثمن غاليا، فليفرحوا قليلا بنصرهم

الزائف. فقريبا ستنزل سيوفنا كالصواعق على رؤوسهم ليعلم من بحيا بعدهم أن فرسان المغول لا تقهر.

لكن ليعلم الخان الأعظم أن أمر المارق «بركة خان» قد استفحل بعد دخوله دين المسلمين. وقد علمت ما كان منه حين حرض عليك أخاك «أرتق بوقا» وأسرة «أوقطاي» وحاولوا منازعتك على الملك. كما حرض الكثير من العسكر الذين كانوا معي بالأرض الغربية في الشام وغيرها للدخول في دين المسلمين. والانضمام لأعداء دولة الإلخانات. أما كبرى الطامات فهو إرساله الرسل إلينا يطالبنا بثلث الغنائم لصالح أسرة والده «جوجي» بزعم أن ذلك من وصية جدنا جنكيز خان.

لذلك فليعلم الخان الأعظم أني سأولي المقدم «بيدرا نوين» أمر الشام، وستقوم حملته بمشاغلة عدونا وتكبيده الخسائر حتى أفرغ من أمر المارق «بركة» وأزحف إليهم بجيوش لا قبل لهم بها. لكن وقبل ذلك فليأذن لي الخان بإنهاء هذا الأمر أولا.

هولاكو بن تولوي خان»

طوى الرسول رسالة هولاكو وانصرف. فالتفت هولاكو إلى بيدرا الذي كان لا يزال جاثيا على ركبتيه مطأطئ الرأس وقال:

- مازالت لديك الفرصة لإصلاح ما حدث كما سمعت بأذنيك.

أجابه بيدرا بنفس الانكسار:

- سمعا وطاعة يا «هولاكو خان».

قال هولاكو بصرامة:

- إذن ستجهز ما تيسر لك من جيش. وستقفل عائدا إلى الشام، ولتبدأ بحمص وحلب فإنهما مفتاحا هذه الأرض. وليجدر بك أن تموت هناك خير لك من أن تعود منهزما.

جلس على مقعده، ونفسه لا تزال تنازعه بين الانتقام من بيدرا وبين رغبته

في مواصلة الحرب وتنفيذ أوامر الخان، فتابع في مقت:

- اغرب الآن عن وجهي قبل أن أطاوع رغبتي في قتلك.

أطال بيدرا النظر إليه في جرأة لا تتناسب مع الموقف، كأنما يسجل داخل نفسه كل إهانات وأخطاء هولاكو في حقه، كان يكرهه ويرغب في الانتقام منه، خاصة أنه الرجل الذي خانه مع زوجته، ثم الآن يتلقى منه الإهانة بتلك الطريقة التي أوشك فيها على قتله؛ طال جمود نظراته فقاطعها هولاكو بصيحة غضب:

- ماذا بك؟ ألم تستوعب بعد؟!

أجابه بيدرا وهو يكبح بداخله رغبته في الانتقام منه، مضمرا لهولاكو عكس ما يُظهر:

- لا شيء يا هولاكو خان، لا شيء.

قالها وولى مدبرا ليبدأ مهمته الجديدة، تاركا هولاكو وحيدا خلفه يغلي من الغضب.

لم يمض وقت طويل على مغادرة بيدرا لهولاكو، حتى انتفض الأخير فجأة وقبض على مسند مقعده بقوة، حاول القيام واختلاجات جسده في تزايد، وضع قدمه على الأرض لكنه فقد توازنه فسقط على الأرض بعنف، نزف رأسه حين اصطدم بالأرض، تلوى من أثر الألم عاجزا عن السيطرة على حركته وتقوس جسده كالجنين، حاول المقاومة وأراد أن ينادي على الحراس خارج الخيمة، لكن صوته خرج كالعواء، تزايدت التشنجات حتى صار الجسد يتقلص في حركات أكثر عنفا، شحب وجهه بشدة وعلته الزرقة، عضلات الجسد بكامله أصابها رجفة مستمرة، استمرت النوبة وطالت وزاد إيقاع التشنجات، انقلبت العينان لأعلى حتى غابت في محجريهما وطغى عليهما البياض، كافح لالتقاط أنفاسه بشهقات حادة حتى صارت شخيرا متتاليا، أصاب البلل ملابسه من جراء تبوله لا إراديا، تدريجيا تناقصت حدة التشنجات وخفتت أنفاسه،

أخذ الجسد المصروع يهدأ رويدا رويدا، حتى سكن وغاب صاحبه عن الوعي. مرت برهة من الوقت وجسد هولاكو ساكن دون حراك، استعاد وعيه وعادت للجسد المتعرق حركته، بصعوبة ظل يحاول الجلوس. قال لنفسه بصوت خافت بعد أن بدأ في السيطرة على وعيه:

- ماذا دهاك يا هولاكو، لقد صارت النوبات أكثر حدة.

نهض بصعوبة وسار حتى وصل إلى مقعده، جلس فوقه مناجيا نفسه من جديد:

- ترى ماذا دهاني؟ أهي لعنة إله المسلمين قد أصابتني، أم هو شيطان قد حل في جسدي؟

انتابته حالة من آلام النفس والغضب المكتوم محدثا نفسه بحسرة واستنكار:

- هولاكو العظيم الذي حارب الدنيا بأسرها، يعجز عن مقاومة نوبة صرع، ويعوي كالكلاب ويبول على نفسه، يالها من مهزلة، يبدو أنها مقدمات الموت.

تفجر الغضب المكتوم من جديد فصاح بصوت هادر:

- تعال أيها الموت سريعا، احضر الآن أو ارحل بعيدا، إياك أن تقتلني ببطء أيها اللعين.

أصابته جرعة مضاعفة من البؤس حين أدرك أنه يخاطب نفسه كالمجنون، راوده فجأة مذاق كل الهزائم والخيبات التي مُنيَ بها في الفترة الأخيرة، خسارته لقانسا، هزيمة جيوشه في عين جالوت، هزائمه المتتالية أمام ابن عمه المسلم «بركة خان»، حتى قوته أخذت في التسرب من بين يديه، والآن.. يوقن بأنه سيموت بهذا المرض عاجلا أم آجلا.

شعر بتعاسة لا حدود لها، استرخى على مقعده غير قادر على الحراك، ومن فمه خرجت كلماته لنفسه خافتة تحمل الحسرة والقهر:

- ها قد انهزمت يا هولاكو وانتهى أمرك، هزمك الصرع وأصابتك دعوات

المسلمين. لن تلبث وأن تلحق بالأجداد لا تحمل معك سوى الهزيمة.. إنها نهايتك.

-٦٠٠

قِلادَة ضَائعَة

توالت هزائم بيدرا في الشام حتى أصابته حالة من التبلد والذهول الصامت. كان في طريق عودته الثانية من الشام، قاتل في كل الميادين هو وفرسانه بمنتهى القوة والشجاعة. لكن مهاراتهم لم تغن عنهم من الهزيمة شيئا. غابت عنهم الانتصارات بعدما فقدوا قائدهم المحنك «كتبجا».

تساءل في نفسه كيف تسنى لهؤلاء أن يقاتلوا فرسان الأرض بهذه الخطط البارعة. تلك الكتائب الملونة في عين جالوت. كل منها حملت لواءها وجاءت بمهمة محددة في ساحة المعركة. تلك الآلات الإيقاعية وطبول الحرب بإيقاعاتها الخاصة المدروسة. خططهم التي نفذوها بحرفية ومهارة يحسدون عليها. هذا آخر ما كانوا يتوقعونه منهم بعد كل ما حققه المغول من مكاسب.

ومنذ أن نجا بنفسه في بيسان، لم يكف عن التفكير في الانتقام من هولاكو. ولم يكف عن تذكر تلك القلادة التي فقدها رغما عنه. القلادة التي نزعها من عنق زوجته الخائنة. سقطت منه في جرابه بساحة المعركة في غمرة القتال والكر والفر. فكّر أنها لا بد قد سقطت في يد أحد أمراء المماليك. وربما سقطت في يد السلطان ذاته.

لم يعد ذلك يعنيه، بل لم يعد هناك دافع لديه للتأسف على شيء. فقد انهزم ثانيةً في حمص من جيش الأيوبيين، وفشل في الاستيلاء على حماة وحلب من جديد، حتى جنوده هربوا إلى الشام واعتنقوا دين المسلمين. لكن ما دام أنه لا يزال حيا فلسوف يعود إلى هولاكو ليقضي أحدهما على الآخر. أو ليموتا معا. سيفقد حياته في كل الأحوال.

هذا المجد الزائف الذي صنعوه فوق جثث ودماء البشر. قد صار على حافة الانهيار والتلاشي.

«فلتمت يا بيدرا أو فليمت هولاكو فلن تنطفئ الشمس ولن تنطمس النجوم لموتنا».

هكذا حدث بيدرا نفسه في رحلته التي لم يكن يدري نهايتها.

-٦١-

القِدّيس لوِيس

«لا يمكن الانتصار على المسلمين في الحرب، وإنما ننتصر عليهم بعدة أشياء.. إشاعة الفرقة بين قادتهم، وألا يقوم فيهم حاكمٌ صالح، وإفساد أنظمة الحكم في بلادهم بالرشوة والفساد والنساء، وألا يقوم لهم جيش يؤمن بحق وطنه أو يضحي في سبيل مبادئه، وألا تقوم لهم وحدة، وآخرها.. أن تنشأ في وسط بلادهم دولة غريبة عنهم موالية لنا، وقتها فقط سننتصر عليهم»

من وصية لويس التاسع ملك فرنسا

***

تونس

أغسطس ١٢٧٠م

انتفض جسد لويس التاسع ملك فرنسا فجأة، جلس على طرف فراشه داخل خيمته حين جاءه صوت الحارس من الخارج، يناديه في وقت متأخر من الليل في تلك الفترة من فصل الصيف الحار، يحثه على الاستيقاظ لأمر طارئ، كانت الموجودات تسبح في قيظ ثقيل يتخلل جنح الليل، ويحمل معه حرارة

الصيف المحملة برطوبة البحر. في ذلك الجانب من شمال القارة الإفريقية الساخنة، لم يكسر حدته تلك الرياح الساحلية التي تهب من البحر على ذلك الجزء من الساحلي التونسي، حتى نال من أجساد جنوده الذين اعتادوا برودة أقطارهم المتجمدة.

استفاق لويس تدريجيا من غفوة النوم التي كانت تسيطر عليه، لكنه عجز عن التحرر منها بالكامل. لم تكن عيناه قد حظيت بنوم مريح سوى لفترة وجيزة، فأجاب الجندي الذي كان ينادي نداءً متقطعًا بصوت مرهق وبكلمات قليلة، انتصب واقفا ليرتدي ثيابه على عجل وهو يتساءل في نفسه عن السبب الذي يدفعهم لإيقاظه في تلك الساعة التي شارف فيها الفجر على البزوغ.

برز لويس من الخيمة مندهشًا ومشوشًا، ليجد أمامه قادته وأمراءه يقفون أمام حراسه، استيقظوا جميعا بدورهم مجتمعين بلا موعد مسبق، تصاعدت دهشته أكثر وهو يقول في صوت لم يفارقه النوم بعد:

- ماذا حدث؟ لماذا استيقظ الجميع في تلك الساعة؟

أجابه أحد القادة وهو يشير إلى جندي صليبي يقف على مقربة منهم:

- رسالة يحملها هذا الجندي يا جلالة الملك، حضر بها للتو آتيا من الشام، وقد تأهبنا جميعا حين ظننا أنه هجوم من سفينة معادية.

تأمله لويس بنظرات يملؤها النعاس قبل أن يخاطب الجندي قائلا:

- هات ما لديك أيها الجندي.

تقدم الجندي خطوة إلى الأمام ثم أخرج من ملابسه شيئا، دفع الرجال من حوله للتحفز خشية أن يكون الرجل قد جاء بنية الشر، لكنه أخرج جرابا قماشيا مد به يده نحو الملك الذي تناوله مندهشًا وهو يقول:

- ما هذا؟

أجابه الجندي:

- لقد انتزعتها من صدر أمير من أمراء المماليك قد لقي مصرعه أثناء القتال

يا سيدي.

فتح لويس الجراب في دهشة أكبر وهو يقول:

- وماذا تكون يا رجل؟

قال الجندي:

- إنها قلادة يا سيدي.

تصاعدت دهشة لويس وهو يخرج القلادة من جرابها قائلا للجندي:

- وهل قطعت كل تلك المسافة من الشام لتأتيني بقلادة؟!

أجابه الجندي مستدركا وهو يمد إليه يده برسالة مطوية:

- بل حملت إليك أيضا رسالة من الأمير بوهيموند السادس كونت تريبل*.

قبض لويس على القلادة بحرص، ثم التقط الرسالة من الرجل قبل أن يلتفت إلى الجميع قائلا بحزم:

- فليتبعني الجميع إلى خيمة الاجتماع.

تحرك الجميع خلفه صوب خيمة واسعة في الجوار، يحتل فيها مقعد الملك صدارة مجلسها، وما إن استقر بهم الحال داخلها، حتى مد لويس يده بالرسالة وناولها أحد الأمراء قائلا في حزم:

- اقرأ أيها الأمير.

تناول الأمير الصليبي الرسالة وشرع في قراءتها قائلا:

«باسم الصليب...

من خادم التاج، الكونت بوهيموند السادس، أمير كونتية «تريبل»** إلى الملك لويس التاسع ملك فرنسا وحامل لواء الصليب.

قد علمنا بأمر حملة جلالتك إلى تونس ويشاء الرب أنكم فعلتم ذلك في

---

*تريبل: هي طرابلس الشام بلغة الصليبيين في ذلك الوقت.

**طرابلس: مدينة بالشام على ساحل البحر المتوسط، لقبت «بالمدينة المقدسة» كما دعيت أيام العرب بالفيحاء، وتسمى حاليا طرابلس الشام أو طرابلس الشرق، وكانت من المراكز الهامة سياسيا وتجاريا وبحريا وعسكريا وصناعيا، تقع حاليا داخل حدود لبنان.

التوقيت الذي أوشكت فيه كونتية «تربل» على السقوط في براثن السلطان «بيبرس» الذي استولى على مدن وحصون وممرات مجاورة، ثم واصل مهاجمة كونتية تربل، فحاصرها مع جنوده وهاجم قلعة الحصن من عدة جهات وكاد أن يستولي عليها، لولا حملة جلالتك الحالية التي ظن أنها أتت لتهاجم مصر كالحملة السابقة، فقفل عائدًا إلى مصر. لكننا على يقين أنه لن يهدأ وسيعاود الهجوم على الإمارات الصليبية ولا شك، ونحن الآن في ترقب لعودته من جديد، لكنا نخشى أيضا ألا تصمد الكونتية في وجهه ونخشى سقوطها كما سقطت أنطاكيا التي انهزمت فيها قوات الصليب هزيمة صاعقة، فتذهب تربل كما ذهبت أنطاكيا بلا رجعة ومن قبلها أورشليم.

إن أخوية فرسان القديس «جون» الإسبارطيين الذين يسيطرون على قلعة الحصن مستعدون للدفاع عنها بأرواحهم، لكنهم وحدهم ليسوا قادرين على التصدي لهذا السلطان العنيد وجيوشه الجرارة التي لا تكل ولا تهدأ، وقد علمت نيافتك أن عكا قد أصابها الوهن بعد تنازل ملكها عن نصف أملاك التاج الصليبي في مقابل هدنة مُذلة مع السلطان بيبرس، واستسلمت كيليكيا* لنفس المصير، حيث قام ملكها بعقد هدنة مع سلطان المسلمين لتنسحب على إثرها قواته من مدن الشام كافة التي فُتحت لنا أثناء حربهم مع التتار، فصار شمال الشام تحت سيطرة المسلمين وانقطع الاتصال بين جيوش الصليب في طرابلس وعكا وبين كيليكيا، وغدت مصالحنا معطلة ووجودنا في أرض الشام مهددًا، ولم يبق لنا ظهير سوى مملكة قبرص الصليبية تحت تاج الملك هيو الثالث، والذي هادن سلطان المسلمين بدوره إلى حين وصول المساعدات من أوروبا.

---

* قيليقية | كيليكيا | أرمينيا الصغرى: منطقة جغرافية تاريخية تقع جنوب الأناضول على السواحل الجنوبية الشرقية لتركيا، وكانت مملكة كيليكيا من أهم معاقل الصليبيين على مشارف الشام ودول الشرق.

وها نحن الآن بين مطرقة هذا السلطان البربري المتوحش وسندان الصراعات التي نشبت بين أمراء الصليب، وآخر آمالنا معلقة بقداستك. ولا ننسى لك صنائعك الجليلة وجهودك المثمرة، حين قمت بمساعدتنا في إرساء حكمنا بأنطاكيا والتي -ومع الأسف- سقطت في أيدي الأعداء بعد ما يقرب من قرنين. كما لا ننسى حين عملت بكل جهد عبر سنوات متعاقبة لجمع شمل الأمراء الصليبيين المتناحرين في إمارات الشام، وكل التضحيات التي قدمتها من أجل رفعة لواء الصليب فيما بقي لنا من أراض في تخوم الأرض المقدسة.

لا نملك الآن يا جلالة الملك إلا أن نصلي للرب أن يرعانا ويساندنا بيد قوية، وأن نبعث إليك طالبين يد العون والمشورة فيما يمكن أن نقوم به، للحفاظ على آخر معاقلنا في تلك الأرض التي بذلنا من أجلها الأنفس والأموال، ولعلي أطمع في أن تول وجهك تلقاءها بدلا من إتمام تلك الحملة التي لا نستطيع أن نفهم دوافعكم في إتمامها.

خادم الصليب المخلص

الكونت بوهيموند السادس

أمير كونتية تريبل»

طوى الأمير الصليبي الرسالة، وناولها للملك الذي غرق في التفكير العميق، تجمد للحظات، ثم نظر الملك إلى أمرائه وقادته قبل أن يقول بلهجته الحازمة:

- ما رأيكم فيما جاء بتلك الرسالة؟

تبادل بعضهم نظرات صامتة قبل أن يبادر أحد الأمراء بالحديث قائلا:

- يبدو أن أمراء الشام لا يدركون هدف حملتنا يا جلالة الملك.

وافقه غالبية الأمراء والقادة بإيماءات من رؤوسهم تأكيدا على ما قاله الأمير، قبل أن يقول أحدهم مضيفا:

- قد يعاود «بيبرس» الهجوم على تريبل وباقي إمارات الشام مرة أخرى، لكنه إن فعل فسيتلقى حينها مفاجأة قاسية حين نزحف نحو مصر ثم إلى أورشليم

والشام ونحاصره قبل أن يدرك أنه وقع في فخ لا فكاك منه، أما لو لم يقع في الفخ فعلى الأقل نكون قد منعناه من مواصلة هجومه على الإمارات الصليبية هناك.

نظر أحد الأمراء إلى زميله معترضا وهو يقول:

- لا تستهن بحنكته يا أيها الأمير ولا بقوة من حوله من المماليك، لا زالت مرارة ما حدث في معركة المنصورة أثناء حملتنا السابقة على مصر تراودني كلما حاولت نسيانه.

تدخل لويس وهو يوجه حديثه للأمير قائلا بلهجة حادة غاضبة:

- من يظن نفسه هذا المملوك المسمى «بيبرس»؟ أيظن نفسه صلاح الدين؟ سيموت حتما مثلما مات «صلاح الدين»، وسنسترد إمارات الصليب رغما عنه.

نظر إليه الأمراء في صمت، فتمالك نفسه للحظات قبل أن يقول:

- ما حدث في المنصورة لن يتكرر ثانيةً.

صمت لوهلة ثم واصل حديثه قائلا:

- صحيح أننا جئنا إلى هنا ليس من أجل التمركز في تونس بل من أجل الزحف على مصر وأورشليم، لكن الأحوال في الشام قد تضطرنا لإعادة حساباتنا مرة أخرى وربما نغادر في أقرب وقت إلى هناك من أجل إغاثة حلفائنا المحاصرين.

قام من مقعده وهو يسير بينهم قائلا:

- لذلك فأنا لا أملك أن أنفرد بهذا القرار إلا بعد أخذ مشورتكم، فمن منكم يؤيد بقاءنا واستمرارنا في حملتنا ومن يؤيد رحيلنا إلى الشام للدفاع عن تريبل واستعادة أنطاكيا؟

انقسم الحضور بين مؤيد ومعارض فحسم لويس الأمر قائلا:

- من الواضح أن المؤيدين لمواصلة خطتنا أكبر من عدد المعارضين، كما أننا خرجنا من بلادنا عازمين على تنفيذها.

نظر إلى أحد الأمراء ثم قال:

- فلنبعث برسالة إلى الكونت بوهيموند توضح فيها خطتنا. ولنطمئنه بأن «بيبرس» لن يحاول الهجوم على تربل ما دمنا نهدد مصر من الغرب. ولنعلمه بأننا نجهز خطة خاصة لإرباك حسابات «بيبرس» وجيوشه.

تبادل بعض النقاشات مع الحاضرين. قبل أن يعود إلى خيمته من جديد. جلس وحيدا يتأمل القلادة بتمعن. راودته الرغبة في ارتدائها. قوة مجهولة دفعته ليفعل. صاحبتها رغبة جامحة. وضعها على صدره. ظل يفكر في كل خيباته التي أصابته على يد المماليك. يذكر كيف حارب في كل الجبهات. وكيف استمات لتوحيد صفوف الأمراء الصليبيين في الشام. وكيف ذهبت جهود الإصلاح بينهم دون جدوى. وكيف حاول التحالف مع المغول فطالبوه بالجزية! ورغم هذا لم يستسلم للهزيمة والفشل وقاوم باستماتة. لكنه رغم كل ذلك لم يحقق انتصارا واحدا على المسلمين. كان يدرك أن هذه الحملة ستكون الأخيرة. لقد وضع كل رهاناته على تحقيق النصر هذه المرة. كان يعلم أنها لو فشلت فلن تقوم للصليبيين قائمة. كل ما سيليها من حملات ستفشل تباعا. هكذا أيقن لويس.

استمر غارقا في أفكاره حتى أسفر الصبح. فجأة تملكه الوهن. فكر بأنه راوده بفعل السهر والإرهاق. لكنه وجد جسده مصابا بسخونة زائدة. شعر بالحمى تسري في رأسه وأطرافه. حاول التمدد على فراشه لينال بعضا من الراحة. تملكته رعشة شديدة. غاب عنه وعيه لفترة لم يدركها. تعرق جسده بغزارة. عند الظهيرة كان الملأ الذين اجتمعوا به ليلا يقفون عند رأسه داخل خيمته. ازدادت وطأة الحمى حتى صار يهذي دون وعي. لم يدر وقتها أن الكثير من أفراد حملته -وأولهم ابنه «جان تريستان»- قد أصابتهم نفس الحمى كالوباء. بعد أيام قلائل كان العديد من المصابين قد فارقوا الحياة. بينما ظل لويس ينازع الموت.

تعددت التكهنات. قال البعض إنها حمّى معروفة في تلك الاصقاع. وقيل إنه

الطاعون، وقال غيرهم إن الماء ملوث، وقال آخرون إنه الزحار، بينما تحدث البعض عن تسلل أحد الجواسيس التونسيين ليسمم الماء، لكنهم لم يتمكنوا أبدًا من الوصول إلى تفسير كيف أصيب البعض بالتسمم وظل البعض سليما، لكن كان من الواضح أن لويس سينضم إلى زمرة المحتضرين وأدرك هو ذلك.

استدعوا له كاتبا كما طلب، أملاه وصيته بكلمات هزيلة واهنة، وذيلها برغبته في نقله إلى فرنسا، طلب منهم أن يضعوا جسده بعد وفاته في قِدْرٍ ضخم مليء بالماء، وأن يوقدوا على القدر حتى يغلي، وأن يتركوه كذلك حتى ينفصل اللحم عن العظام، ثم يرسلوا عظامه برفقة متعلقاته إلى موطنه، كان آخر ما قاله قبل أن يلفظ روحه:

- أورشليم!

مات لويس بعد أن انفجرت أحشاؤه، أرسلت عظامه وأشياؤه كما أراد، وبين أغراضه التي وصلت إلى فرنسا استقرت قلادة مردوخ، هكذا عرفت القلادة طريقها إلى قصر فرساي!

-٦٢-

تَحْت ظِلال المِقْصَلَة

«هذه رسالتي الأخيرة، لقد تم الحكم علي بالإعدام، ولكنها لن تكون ميتة تشعرني بالخجل حتى لو مت كما يموت المجرمون، إنها ميتة مشرفة لأني سألقى زوجي من جديد، أنا مثله بريئة، لذلك أتمنى أن أظهر شجاعة مماثلة لشجاعته في اللحظات الأخيرة. أشعر بأسف عميق لأنني بذلك سأتخلى عن أطفالي التعساء».

آخر رسالة للملكة ماري أنطوانيت

***

باريس - فرنسا

أكتوبر ١٧٩٣م

موكب مهيب ذلك الذي سار بالملكة ماري انطوانيت في ذلك اليوم، لكنه لم يكن موكبا ملكيا تشريفيا هذه المرة كسائر مواكب الملوك. ليس هو الموكب الذي اعتادت دائما أن يسير بها في أرجاء العاصمة الفرنسية -حين كانت هي السيدة الأولى وصاحبة الجلالة في جميع أرجاء فرنسا- بل كان موكبا مهينا مخزيا.

كانت مقيدة على إحدى العربات المكشوفة التي تجرها الخيول، وسط حراسة مشددة من كل جانب. كان حراسها مجموعة كبيرة من الجنود المسلحين، أما مهابة الموقف فكان بسبب تلك الجموع الهائلة الغفيرة التي أحاطت الموكب.

الشعب الفرنسي الباريسي مصطفا في كل مكان حول موكب الملكة. في النوافذ والشرفات، في أرجاء الشوارع والطرقات وفوق الأرصفة، على أسطح المنازل، فضلا عن تلك الجموع الضخمة التي تسبق الموكب والأخرى التي تتبعه بشكل لصيق.

وعلى عكس المشهد المضطرب من حولها، كانت ماري فوق العربة شاردة الذهن، تعيش حالة من انفصال الوجدان، وكأنها ليست جزءا من المشهد المحيط.

دار بخلدها نفس المشهد الشهير الذي يمثله طريق الآلام، هي الآن تسير في طريق آلامها نحو نهايتها، بعد قليل ستصل إلى ميدان لويس الخامس عشر الذي سماه الثوار «ميدان الثورة»*، إلى حيث نصبت منصة الإعدام، بعد قليل ستواجه المقصلة، ستتوقف حياتها عند ذروة شبابها في عامها الثامن والثلاثين.

كانت تعيش أسوأ لحظات حياتها، تخالجها أصعب مشاعر مرت بها، قمة الذل هي ما كانت تعيشه في هذه اللحظة، تلك الملابس البالية القذرة التي أجبروها على ارتدائها، خصلات شعرها التي فقدتها عنوة وقهرا على أيدي الثوار، ثم جميع الأشياء القبيحة التي لم تتخيلها كانت تقذف عليها من كل جانب، بدءا من البيض الفاسد وحتى الأوساخ والقاذورات، فضلا عن الصراخ الذي يحمل أسوأ ما يمكن سماعه من بذاءات صادرة من جمهور

---

* فيما بعد تم تسميته بميدان الكونكورد وهو الاسم الحالي لهذا الميدان الذي يتفرع منه أشهر شوارع باريس وهو شارع الشانزليزيه.

أعماه الغضب عن كل تعقل.

هكذا يفعل الشعب بملكته التي طالما مجدها ورفعها على الأعناق، حالة طاغية من الجنون الجماعي، استبدت بهؤلاء حتى أصبحوا يمتلكون كل هذا القدر من الوحشية والعدائية والتعطش للدماء، هذه هي الأفكار التي راودتها وهي في طريقها للمقصلة.

أطلقت امرأة من الشعب صرخة اخترقت أسماع ماري قائلة:

- ماري.. أيتها الشريرة!

- هل أنا شريرة؟

سؤال ألح عليها طوال الطريق، طرحته على نفسها عشرات المرات خلال رحلتها الأخيرة، عجزت ماري عن فهم معنى الشر وهي على وشك مفارقة الحياة. فكرت أن فلسفة الشر عند الإنسان قضية محيرة، يراها بعضهم مسألة نسبية باختلاف العصور، فما يراه البعض شرا لا يراه غيرهم كذلك، بعض الأفعال الشريرة يعتبرها مرتكبوها فطرية، وسمة إنسانية، كمتلازمة ضرورية لاستمرار الحياة، رغم أنهم -وبمنتهى التناقض- يعتبرون أن بعض الشر لا بد منه، وبعضه لا يغتفر!

دارت برأسها الذكريات مستعيدة أبرز مشاهد حياتها، كثيرة هي الأحداث التي أدت إلى هذا الموقف، لكنها لم تقتنع أبدا أن الموت بهذه الطريقة، وتلقي كل تلك الإهانات يمكن أن يكونا جزاء عادلا.

حدثت نفسها أن هؤلاء ضحايا.. نعم، هم ضحايا لآخرين استثمروا غضب الجماهير، هذه الثورة وضعت أعناق الجميع رهن المقصلة، حتى الثوار أنفسهم سيصيرون وقودا للثورة.

- أيها الحمقى.. أنتم تضحون بحريتكم ولن تحققوا المساواة!

قالتها ماري في نفسها، لم تكن تقوى على الصياح بها، ولو استطاعت لما سمعها أحدهم، ولو سمعوها لما عقلوا ما تقول.

صاح رجل من الشعب:

- أنت من أعداء الرب!

ارتسمت بداخلها ابتسامة ساخرة. هذا الرجل لا يعي حقا ما يقول، هذا الرجل لا يدرك أن هذه الثورات قامت لتدمير العالم المسيحي. أدركت هي ذلك لكن متأخرا جدا. فأي تناقض ذلك الذي يجعلهم يهاجمون الكنيسة المتمثلة في شخص الملك المسيحي. الملك الذي اعتبروه وأسرته من أعداء الرب!

- هذه الثورة ليست عادلة.

وقر ذلك في قلب ماري. كانت تعلم أن الشعب ضحية. وأن الظلاميين يستغلون فقره وجوعه للحصول على عرش فرنسا. هؤلاء الذين يجلسون في الخفاء ويسمون أنفسهم «الحكماء». هم من يحركون الجميع.

كل من برز اسمه وظهر وجهه في النور هو مجرد دمية يحركها حكماء الظلام. الكونت «دي ميرابو» الذي صار عضوا هاما من الأعضاء الثوريين بكل لباقته وقدرته الخطابية. الدوق «دو أورليانز» ابن عم الملك. الذي جعلوه واجهة الثورة الفرنسية. وقائدها المتمرد على الملكية أمام الشعب ووعدوه بقيادة الحكم الديمقراطي. الماركيز «دو لافاييت» الذي لعب دورا هاما للثورة. حتى الثوريان «دانتون» و«روبسبير». كل هؤلاء مجرد دمى. وكانت ماري تعرف ذلك جيدا.

بالطبع كان للدوق «دو أورليانز» الدور الأكبر. فهو ابن عم الملك. أوهموه بأنه الوريث الشرعي. وأنه سيجلس على عرش فرنسا ليحكمها بالديمقراطية. استمالوه بخبث. ورطوه في الدعارة والمجون. أغرقوه في الديون. فتحول قصره «باليه رويال» إلى مركز للبغاء تحت ضغط من دائنيه الذين حجزوا على أملاكه وأداروا ثروته قسرا. وداخل أحد منازله استقرت آلات طباعة المنشورات المحرضة على الملك وأسرته. تحولت جميع أملاكه إلى مركز لإدارة الثورة الفرنسية رغم أنفه. ضغطوا عليه بأن يشتري محصول القمح بالكامل

وأن يخفيه عن أعين الشعب لتشتعل ثورة الجياع، صنعوا منه قائدا صوريا وواجهة لتمرير مخططاتهم، وكانت النتيجة الحتمية هي قيامه بالتصويت على إعدام الملك، ابن عمه الذي لم تشفع له قرابته في إنصافه والدفاع عنه.

فكرت، كم كان الدوق «دو أورليانز» ساذجا حين صدق وعدهم الكاذب، كان أكبر الدمى التي يحركها حكماء الظلام، كانوا دائما هناك يخططون لكل شيء، لكنها مثل الجميع، لم تدرك وجودهم إلا متأخرا، راسلتها شقيقتها كثيرا، تحذرها من وجود مخطط كبير تورط فيه أصحاب المصارف الكبرى في أوروبا، أما من ينفذه في الخفاء فلهم سمعة معروفة بتدبير تلك الأمور، كانوا دائما خلف كل كارثة تحدث..

اليهود!

كانت تعلم أنها ليست أولى مكائدهم، ولن تكون آخرها، لكن ماري صمت أذانها عن كل ذلك وعميت عن رؤية ما يحاك في الخفاء.

- كم أنت حمقاء يا ماري، كيف لم تنتبهي إلى كل هذا مع أنه واضح كالشمس ؟!

حدثت نفسها بهذا من جديد، ورغم يقينها بعدم جدوى الندم في هذا الموقف، لكنها لم تستطع أن توقف سيل الأفكار والذكريات التي تدفقت على وجدانها، كان الغرباء المجهولون هناك دائما، هؤلاء «الحكماء» المزعومون يحركون كل الخيوط من الكواليس الخلفية دون أن يظهروا للعيان، جمعيات سرية تدير الموقف بالكامل، أخبرتها بذلك شقيقتها في خطاباتها المنذرة، لكنها أجابتها برد مطول تنفي فيه كل هذا بمنتهى الجهل، وذيلت خطابها بجملتها الساذجة قائلة:

- «أعتقد أن قلقك مبالغ فيه بشأن الأخويات السرية، فهي أقل أهمية هنا في فرنسا منها في أي مكان آخر في أوروبا».

لاحقا عرفت بعد قيام الثورة، أن الدوق «دو أورليانز» قد صار رئيسا

للأخويات السرية، وضم لعضويتها عشرات الآلاف ليكونوا قاعدة لتلك الثورة، ولكن إدراكها لتلك الأمور كان متأخرا.

- ستنالين جزاءك العادل أيتها الشيطانة.

صرخ بها رجل من الجماهير، وانهال عليها البيض الفاسد عند أحد المنعطفات. احتمت منها بذراعيها لتمنعها من الوصول إلى رأسها. لن تسمح أن يتلوث رأسها إلا بدمائها. هكذا جال بخاطرها.

- هل هذا جزاءٌ عادل؟

ترددت أصداء السؤال في رأسها. اعترفت لنفسها بأنها كانت مخطئة. أصرت حتى النهاية على الحياة المترفة والعيش بأرستقراطية الملوك. حتى في ذروة الأزمة الطاحنة التي مرت بها فرنسا. أقامت الحفلات والولائم. ارتدت أفخر الثياب. تناولت أشهى الأطعمة. أغدقت على حاشيتها الأموال الوفيرة. منحت العطايا حتى للمتقاعدين منهم. لكنها لا تزال غير مقتنعة بأن كل هذا أدى إلى ثورة الفرنسيين بهذه القوة!

- ستدفعين ثمن خطاياكِ أيتها المستبدة!

صرخت بها إحدى النسوة وهي تقذفها بالقاذورات..

- أجل خطاياي!

قالتها ماري لنفسها. اعترفت لنفسها بارتكابها الكثير من الخطايا دفاعا عن مقام الملكية. لكن هل كل هذه الخطايا تعدل أن يُفعل بها هكذا؟ سؤال آخر لن تحصل على إجابته. صحيح أنها حرضت زوجها ضد وزيره المخضرم «تورجو». عزله بضغط منها ومن حاشيتها الملكية بعد أن ولاه وزارة المالية. كان «تورجو» في طريقه لإغلاق باب النفقات الملكية في وجهها ووجه خلصائها. وكاد أن يفعل. لولا تدخلها في الوقت المناسب. كذلك حرضته على كل من حاول من وزراء المالية تخفيض نفقات البلاط الملكي. لا أحد يجرؤ على المساس بنفقات العائلة المالكة ورواتب الحاشية والنبلاء وينجو بفعلته. أصرت هي

على ذلك رغم علمها وعلم زوجها بخطورته -خاصة بعد إعلان إفلاس الخزانة العامة- لكنه ظل يستبدل الوزير تلو الآخر. رفضا من حاشيته لكل ما يمس ميزانية البلاط الملكي.

رغم ذلك كانت ماري ترى أن تلك الأخطاء لا تعد شيئا بالمقارنة بأخطاء من سبقوهم في الحكم. لم يكن الوضع الاقتصادي المزري إذن سوى تحصيل حاصل، وحصاد لما زرعه أسلافهم على عرش فرنسا.

في تلك اللحظة اقتربت امرأة من الجموع وأمسكت بطرف ثوب ماري وصرخت قبل أن يبعدها الجنود:

- قتلتمونا بضرائبكم اللعينة.

اخترقت العبارة سمع ماري. جاء ذكر الضرائب بتوافق تام مع أفكارها. تذكرت كل ما فرضه لويس على شعبه. بالفعل انسحق هذا الشعب تحت ثقل الضرائب. أصرت هي بعنادها على عدم المساس بالنفقات الملكية. فتكررت نوبات فرض المزيد من الضرائب على كاهل الفرنسيين. أصر الملك على خوض حرب الاستقلال الأمريكية التي أهدرت كمًا هائلا من الأموال بحجة استرداد مكانة فرنسا التجارية!

- مرحى يا ماري. ها هو الخلاص يلوح في الأفق!

قالتها لنفسها وهي تلمح بعينها ساحة الإعدام تتوسطها منصة المقصلة. بضعة أمتار وقليل من الدقائق الفاصلة لتتخلص من كل تلك الإهانات والعذابات النفسية. صارت الآن أكثر تقبلا لفكرة الخلاص بالموت. تصالحت مع نفسها على ذلك. كل ما كان يشغل فكرها الآن هو لويس الصغير ذو السبع سنوات. ولي عهد فرنسا الذي حمل لقب أسلافه فصار «لويس السابع عشر». توجوه صوريا لكنه في الحقيقة كان معتقلا بسجن الباستيل. لا شك لديها بأنهم يسيئون إليه وربما عاملوه بعنف. هذا آخر ما كانت تأسف عليه في هذه الدنيا.

خيل إليها سماعها نداء وهميا تردد صداه من حولها. آلة الموت سيئة السمعة. الرابضة وسط الميدان تطلب عنقها بإلحاح. المقصلة الثملة من كثرة ما تجرعته من دماء تناديها بصوتٍ مُهيمن:

- «أن أسرعي.. هلمّ إليّ يا ذات الرأس الصغير».

- لكن مهلا.

قالت لنفسها..

- هؤلاء أيضا يستحقون الشفقة.

رددها ضميرها وهي تنظر في الوجوه الحانقة من حولها. كانت تراهم ضحايا. أيقنت أنهم مساكين رغم كل ما نالها من إهانات على أيديهم. أدركت أيضا أنهم سيطول بهم الانتظار لاستعادة حرياتهم المفقودة. لن ينعموا بالحرية التي ينشدونها قبل وقت طويل. مصير دولتهم بين أيدي حفنة من كهنة الإلحاد الدنسين. غرروا بالجماهير وشكلوا لهم كيانات بمسميات ثورية رنانة. فهذه جمعية أصدقاء القانون. التي جعلوها مظلة لممارسة العنف والإرهاب خلال ثورة الجياع. وهذا نادي اليعاقبة الذي ضم كل أعضاء قيادات الثورة. لكن الشعب المغرر به لن يعرف هوية هؤلاء العباقرة. هؤلاء الذين صنعوا تلك الثورة وخططوا لها بإحكام. هكذا أذعنت ماري لأفكارها. وأشفقت على الجماهير -التي أساءت إليها- تحت تأثير الشائعات. زوجوا بينهم الكذب ليلطخوا سمعتها ويتهموها بإهدار أموال الشعب. لاحقا نسبوا لها العبارة التي اشتهرت بها. رغم أنها لم تنطق بها أبدا:

- إذا لم يكن هناك خبز للفقراء.. دعهم يأكلون البسكويت!

فوق ذلك اتهموها بالكثير. اتهموها بتبديد ميزانية فرنسا حتى أعلن إفلاس الخزانة. اتهموها بالاتصال بأعداء فرنسا. اتهموها بالتسبب في إشعال الحرب الأهلية. وصفوها بـ«النمساوية» إمعانا في التقليل من شأنها. ونعتوها بأنها «العدوة المعلنة للشعب الفرنسي».

اقتربت العربة المكشوفة من منصة الإعدام. بدا لماري أعضاء نادي اليعاقبة يصطفون جميعا ليشهدوا إعدامها. لا شك لديها أن «الحكماء» مندسون الآن بين الجموع ليشهدوا نجاح خطتهم البارعة. هي الآن تعرف جيدا من الذي لفق لها تهمة صناعة عقد المجوهرات الأسطوري ذي ربع المليون ليرة فرنسية. هؤلاء وشركاؤهم هم من زوروا توقيعها. وهم من أطلقوا الشائعات ولوثوا سمعتها بترويجها بين الفرنسيين.

كانت موقنة بأنها حوكمت باتهامات مدبرة ببراعة، وأنها أدينت بجرائم ملفقة. خاصة تلك التهمة. لم تكن بحاجة إلى ذلك العقد المرصع بكل جواهره الثمينة. كان لديها شيء آخر يغنيها عن كل ما سواه.

قلادة مردوخ..

تلك القلادة النادرة التي توارثها ملوك فرساي. حتى وجدتها ماري. يومها عرضتها على أمهر خبراء المجوهرات في فرنسا والنمسا. عاينها أبرع فناني صناعة الحلي وأشهر صاغة العالم. وقفوا طويلا يتأملونها مبهورين بجمال صقلها وروعة صياغتها. لكن أحدا منهم لم يستطع أن يعرف هويتها أو تاريخها أو حتى طريقة صنعها. كما لم يستطيعوا تقدير قيمتها. أصيبوا جميعا بالذهول حين رأوها، لكن العراف «ألساندرو كاليوسترو» أخبرها في أحد الحفلات أنها قلادة ملعونة. تقتل من يضعها في عنقه. حذرها من ارتدائها. ويومها أخبرها أيضا أنها تسببت في مقتل الملك القديس لويس التاسع! ونصحها ببيعها خارج فرنسا.

لم ترغب ماري في تصديقه لأنها وقعت أسيرة القلادة. لكنها -رغم ذلك- ظلت لديها لسنوات لم تجرؤ خلالها على أن تمسها. كانت كل مرة تفتح خزانة مجوهراتها -فقط- لتلقي عليها نظرة. وفي كل مرة كانت توشك أن تلبي نداءها. لكنها كانت تتراجع في اللحظة الأخيرة. كان للقلادة نداء طاغٍ زلزلها من الأعماق وأغواها بارتدائها. حتى تحذيرات المنجم التي كانت في ظاهرها تصدها عن فعل ذلك فجرت رغبتها الجامحة في ارتدائها. وغرست بذور الفضول داخل نفسها.

هل كان هذا هدف العراف؟

في النهاية لبت نداء القلادة رغما عنها. كان إغراؤها أقوى من كل تحذير. ويوم المحاكمة قالت، بعد أن حكموا عليها بالموت بتهمة الخيانة وإفشاء أسرار فرنسا:

- ليتني أخذت بنصيحة العراف «كاليوسترو».

لكن ندمها أتى أيضا متأخرا. تماما كإدراكها لما كان يدور من حولها. هي تعرف أن القلادة الآن في حوزة أعضاء نادي اليعاقبة. وربما كانت في حوزة «حكماء الظلام». لكن كل هذا لم يعد يهم.

نظرت في وجوه أعضاء نادي اليعاقبة. ودت لو أنها أخبرتهم أنهم أيضا ضحايا. الكل خاسرٌ في هذه اللعبة. الشعب. الثوار. العائلة المالكة. وحتى أعضاء المحكمة الثورية نفسها. الكل خاسر بلا استثناء.

فقط حكماء الظلام -الذين لا تشك في كون معظمهم من اليهود- هم الفائزون. سيتم التضحية بثوار اليعاقبة بلا شك. ترسخ لديها هذا اليقين. ستأكل الثورة أبناءها. سيقتلون الكونت «ميرابو» الخطيب المفوه بعد أن يستفيق من خداعهم متأخرا. وسيضحون بالماركيز «أورليانز» بعد أن يكتشف الخدعة. حتى دانتون وروبسبير سينالان مصيرا مشابها بعد تأدية دورهما. لن يشفع لهما تقديم الآلاف طعاما سائغا للمقصلة النهمة. أما أعضاء المحكمة الثورية فسينالون النصيب الأكبر. سيحاكمون بتهمة إعدام الأبرياء. وسينالهم نفس مصير من حكموا عليهم ظلما. سيقدم حكماء الظلام كل من شارك في هذه الثورة ضحية بعد احتراق أوراقهم. هكذا كانت تؤمن ماري.

راقبتهم في صمت، وقالت بعينها دون كلمات:

- ستعرفون لاحقا أيها المغرر بكم، أنكم مجرد دمى يحركها «حكماء الظلام» من خلف الحجب. لتنفيذ مهمات محسوبة. لكنكم سرعان ما ستكتشفون ذلك بعد فوات الأوان. وسيأتي دوركم حتى تغشى رؤوسكم ظلال المقصلة.

توقفت العربة أمام سلم المنصة. انتهى طريق الآلام ومعه انتهت حياة ماري. أنزلوها مقيدة لتنفيذ الحكم. توقفت لحظات في صمت تتأمل المقصلة. ماكينة حصد الرؤوس التي لا تكف عن طلب المزيد من الضحايا. كانت دائما ما تشمئز منها، وتراها وسيلة غير إنسانية للقتل. لكن من قال إن القتل عمل إنساني في الأساس؟!

تحدث الكثيرون عنها كوسيلة رحيمة للقتل. ضحاياها لا يكادون يشعرون بشيء من آلام الموت. بل لا يدركون بأنهم فارقوا الحياة. فجأة تختفي المشاهد من أمامهم ويتلاشى الإدراك. لا ألم.. لا تعذيب.. لا معاناة جسدية.. الرعب الحقيقي يكمن في اللحظات الأخيرة. عندما تسمع الضحية صوت النصل الثقيل وهو يهوي بعنف وقسوة وبسرعة -كوميض البرق- نحو عنقها لينفصل رأسها عن جسدها. هذه هي اللحظات الأكثر إيلاما. لكنها لا تستمر سوى لومضات خاطفة. النصل الحاد -المشحوذ بعناية- يؤدي دوره دون خطأ. كان هذا أكثر التفاصيل رعبا وأكثرها رحمةً كذلك. نصلٌ فتاك لا يعرف إلى الرحمة سبيلا. لكنه في ذات الوقت لا يسبب الألم لضحاياه. بعد قليل سينال النصل من رأسها مثلما نال من رؤوس كل الضحايا السابقين. عن أي موت رحيم يتحدثون إذن –قالتها ماري لنفسها– من الذي أعطاهم الحق في التمثيل بجسد الضحية بهذه الطريقة؟ وبأي حق يفصلون الرأس عن الجسد؟! أهكذا يفعلون بصنعة الرب؟!

ظلت ماري تتأمل المقصلة بتمعن. كانت ظلال المقصلة ترسم أشكالا قاتمة كئيبة. رأتها ماري صورة لقبور تضم الجميع. الموت حاضر بالمشهد. يتقدم الجموع ويعتلي منصة المقصلة. رأته فاتحا ذراعيه ليجذبها ويجذب الآلاف إلى أحضانه.

لم يمهلها الجلادون لتستغرق في خيالاتها أكثر من ذلك. أصعدوها منصة الإعدام. وسريعا، مددوها على وجهها فوق اللوح الخشبي المنزلق. قيدوا

معصمها بحزامه المتينين خلف ظهرها وثبتوا جسدها في اللوح. دفعوه حاملا جسدها حتى صار عنقها تماما أسفل نصل المقصلة. أطبقوا المغلاقين الخشبيين حول عنقها ليبرز رأسها إلى الخارج. أغمضت ماري عينها وتمتمت في خفوت. لم يسمعها سوى الرجل الثوري المكلف بتنفيذ الحكم:

- وداعا أبنائي.. إني ذاهبة إلى والدكم.

فتحت عينها في إباء قبل أن يفلت الرجل حبل المقصلة. انقض النصل على العنق المستسلم. بعد لحظات استقر رأسها المنفصل داخل سلة الرؤوس المقطوعة. تناول أحدهم الرأس النازف من داخل السلة ورفعه نحو الجماهير. ارتفعت هتافات الجموع وصيحاتهم. كانت الدماء لا تزال تسيل من الرأس الميت. بينما كانت العينان تطل على الحشود بنظرة خالية من الحياة.

عَوْدَة بونابارت

«إنه لا ينبغي النظر إلى اليهود كعنصر متميز، بل كغرباء، وسيكون إذلالًا مُرًّا أن يحكمنا هؤلاء، وهم أذلّ شعبٍ على وجه الأرض».

نابليون بونابارت

***

فيينا - النمسا

مارس ١٨١٥ م

- والآن أيها السادة.. ماذا بعد أن تخلصنا من نابليون؟

كانت هذه عبارة النمساوي «كليمنس فون مترنيش» رئيس المؤتمر، مخاطبا أعضاء مؤتمر فيينا، كان المؤتمر يضم ممثلي ما يزيد على مائتي دولة وعائلة حاكمة ومنظمة، حتى المؤسسات الدينية شاركت، فضلا عن جمعيات المصالح الخاصة، اجتمعوا بشكل متواصل لإعادة رسم الخريطة السياسية لأوروبا، كانت فرنسا هي المشكلة العظمى، لذلك قرروا إعادة رسم حدودها وتحجيم مناطق نفوذها مع الدول المحيطة بها، خاصةً النمسا وروسيا وبريطانيا.

صمت الأعضاء قليلا بعد عبارة رئيس المؤتمر حتى تكلم مندوب إنجلترا قائلا:

- سنعيد تنظيم أوروبا. البلاد أصبحت محطمة. وبعضها في حالة غليان من الحالة الاقتصادية المتردية. والسياسات غير المستقرة. لذلك علينا حل المشاكل المحلية والإقليمية في أسرع وقت.

تحدث ممثل روسيا قائلا:

- يجب وضع خطة منظمة لذلك. فعشرون عاما من الحرب ليست بالفترة القصيرة.

تناوب ممثلو الدول المشاركة في النقاش. وقدم كل منهم اقتراحا. حتى اتفقوا على صيغة شبه نهائية للتعاون على إعادة إعمار دولهم. وحل مشاكل الحروب النابليونية. ولم شمل الامبراطورية المسيحية المقدسة التي تفككت.

في هذه الأثناء دخل إلى القاعة رجل في زي رسمي. انحنى نحو أذن مندوب فرنسا وهمس له بكلمات. تغيروجه الرجل سريعا وظهر عليه الوجوم. بعدها نهض والجميع ينظرون تجاهه. فقال بلهجة جادة:

- عاد نابليون إلى فرنسا بعد هروبه من جزيرة ألبا. والتحق به الشعب والجيش والقادة. ونصب نفسه امبراطورا من جديد.

أصيب الحاضرون بالذهول وطال صمتهم. لكن ضحكة انطلقت من أحدهم. شقت الصمت ليصاب الجميع بعدوى الضحك. ضجت القاعة بالضحكات الهستيرية. وتصاعدت التعليقات الساخرة. حتى تدخل رئيس المؤتمر قائلا:

- يبدو أننا عدنا إلى نقطة الصفر من جديد. ماذا سنفعل الآن أيها السادة؟ نحن مضطرون لتأجيل الكثير من الخطط مرة أخرى لنعيد مواجهة نابليون.

قال المندوب البريطاني:

- ستعمل بريطانيا جديا للقضاء على بونابرت. يجب أن نهزمه هذه المرة في عرينه وأن نصل إلى عقر داره. فمن من الحاضرين سيقبل التحالف معنا لإنهاء تلك المهمة بحسم؟

بادر مندوبا بروسيا والنمسا بالانضمام لبريطانيا. بدؤوا في وضع صيغة للتحالف والتجهيز للخطة. لكن كل المتواجدين بالقاعة اتفقوا على تجريم نابليون. ووقعوا على الوثيقة الختامية التي توصي بهزيمته العاجلة والنهائية.

-٦٤-

العَنْقَاء

«إنني ألقي بنفسي وسط المآزق، ثم أفكر بعد ذلك في إيجاد الحلول، وأعرف حين اللزوم أن أهجر جلد الأسد لألبس جلد الثعلب».

نابليون بونابارت

***

باريس - فرنسا
مارس ١٨١٥ م

تحسس نابليون القلادة التي تتدلى على صدره، وهو يسير بجواده -وسط الجماهير الباريسية الحاشدة- متجها نحو قصر فرساي. خرج الشعب الفرنسي لاستقبال إمبراطور أوروبا العائد من المنفى ليتحدى الجميع.

كطائر العنقاء -المنبعث من رماده المحترق- عاد نابليون. تحدى أوروبا بأسرها وعاد من منفاه، زعيم الفرنسيين ذو الأصول الإيطالية عاد سائرا في خيلاء وسط الحشود، كانت شعبيته أقوى من أن تسحقها الهزائم والمؤامرات. جاءت هزيمته لتوهم أعداءه جميعا بأن أمره قد انتهى، نصبوا بعده لويس الثامن عشر -رجل الحلفاء- على عرش فرنسا، لكن نابليون عاد إلى المشهد بقوة

كالميت الذي بُعث من مرقده، عاقدا العزم على عدم الانهزام من جديد. كان يعلم هذه المرة أنه لن يناطح زعماء أوروبا وجيوشها فحسب، بل سيخوض حربا لا هوادة فيها ضد اليهود و«الحكماء» الذين زجوا به إلى الهزيمة والمنفى، حكام الظلام الذين يسيطرون على كل دولة ظن نفسه امبراطورا عليها، استطاعوا بث الخيانات بين المحيطين به، حتى تنازل عن منصبه لينفوه إلى جزيرة ألبا. لكنه أصر على هزيمتهم وفرض كلمته على أوروبا. لم يتخل عن حُلمه القديم المستمر بجعل فرنسا زعيمة لأوروبا. لطالما شعرت جماهير فرنسا وحلفاؤها أنه الزعيم المنشود الذي سيضع أوطانهم على القمة. لذلك قاتلوا معه، وضحى الكثير منهم بأرواحهم لتحقيق هذا الحلم. وها هو يعود من جديد متحديا خصومه.

كان قد أدرك اللعبة متأخرا. لكنه قرر أن يتدارك الأمر، حتى لو صار متناقضا مع موقفه القديم. كان يدرك أن اليهود المرابين هم من جاؤوا به لتنفيذ أهدافهم، صعدوا به من القاع حتى صار فوق القمة. لم يكن إلا ملازما مغمورا في باريس فجعلوه زعيم الثورة الفرنسية، وإمبراطور أوروبا الأوحد. لم يصنعوه إلا لخدمة مصالحهم. أرادوا من البداية تدمير السلطة البابوية، وجر الدول الأوروبية إلى حروب طاحنة لإضعافها وإسقاطها تحت رحمة الديون، حتى يكون لهم السلطان على رقاب الجميع: فهم مانحو القروض، ومدبرو الأموال، وأصحاب المصارف. لذلك جاؤوا به حين رأوا فيه القائد الماهر، القادر على تحقيق أهدافهم.

بعدها طالبوه بغزو فلسطين لإقامة مملكة إسرائيل. العراف «كاليوسترو» الذي عايش ماري إنطوانيت كان يحوم حول نابليون، وبصفته رئيسا لمحفل «مصرايم» ومؤسسه ردد عليه فكرة مملكة الرب حتى تشبع بها. التقط نابليون الإشارة بذكائه، وعرف أن مفتاح صعوده وتألقه مرتبط بأهداف اليهود. يومها ألقى خطبته على صهيوني يافا وحيفا والقدس واليهود النازحين

من أوروبا. ألقاها نابليون كنداء ليهود العالم، وصفهم بورثة فلسطين الشرعيين. جدد لهم الوعد بأرض الميعاد كأنه ممثل الرب. ناداهم بكلمات حافلة بالهمة. حفزتهم كلماته وحمستهم وجيشت عواطفهم الدينية. دعاهم فيها للالتحاق بجيشه لدخول الأرض الموعودة. ووعدهم بإقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين.

لعب على أوتار مشاعرهم بذكاء، ليحصل منهم على قروض مالية. كان يريد إخراج فرنسا من ضائقتها، وكانوا هم أنفسهم -مَن يُسمَّوْن بالحكماء وعملائهم- من دفعوه إلى ذلك. هؤلاء الذين صاروا يحكمون فرنسا وغيرها من الدول من الظل. ويتربصون في الخفاء. كان من مستشاريه من ينتمي إليهم ويأتمر بأوامرهم. بل إنهم هم من ساعدوه في صياغة تلك الخطبة الرنانة. ولم يقم بتوقيعها إلا قبل أن يلقيها مباشرة.

أكسبوه شعبية كبرى رغم أنه مُني ببعض الهزائم. ناطح القوى الكبرى، قهر النمسا في إيطاليا. وقع اتفاقية هامة مع روسيا. حاصر بريطانيا حصارًا قاريًا. سيطر على أوروبا في خمسة عشر عاما. مكنوه من الإطاحة بما تبقى من العروش الأوروبية. والاستحواذ على مصارفها. حتى صنعوا منه إمبراطورا عظيما. حققوا من وراء حروبه أرباحا لا حصر لها. وصارت سيرته على كل الألسنة في أرجاء أوروبا وخارجها.

حينما توجه إلى فلسطين في حملة توراتية. ارتكب خلالها المجازر في غزة ويافا بدم بارد. أسقط الآلاف من الضحايا. تماما كما فعل اليعاقبة بالثورة الفرنسية. لم يوقفه عن حملته التوراتية إلا حصانة أسوار عكا. ومع طول الحصار اضطر إلى مغادرة أرض كنعان. لكنه وعد اليهود بالعودة مرة أخرى.

لكن سريعا تغير كل شيء. أدرك نابليون أن محاربة الكنيسة البابوية ستدمر فرنسا. البلد الذي قاتل تحت لوائه حتى أصبح الإمبراطور الذي تخشاه أوروبا. وجد في الكنيسة وسيلة صالحة يمكنها حماية سلطته. فقرر التحرر

من سيطرة الحكماء واليهود، والعودة إلى أحضان الكنيسة. لم يعد يقبل بأن يتحكموا بطموحاته. لذلك قرر الانقلاب عليهم. صحيح أنه حطم سلطة الكنيسة. لكنه بعد أن صار امبراطورا عاد وقرب البابا في محاولة رد الكرامة للكنيسة. جعله رئيسا للمجلس الامبراطوري حتى يُكسب ما يفعله قدسية. بل رغب في نقل مركز البابوية إلى باريس.

ظن أنه بذلك يستطيع الانتصار عليهم وتجنب أذاهم. لكنه كان مخطئا ككل من سبقه في المحاولة. حينها أدرك نابليون بأن المسيح كان محقا عندما وصفهم بأنهم أبناء الشيطان ومتمي شهواته.

كان بذلك يتحداهم -الحكماء واليهود الذين أتوا به إلى الحكم- قرر نابليون نسيان وعده لهم. لن يعطيهم فلسطين. سيساومهم على أرض الميعاد. لكنه لم يأخذ بنصيحة سلفه لويس التاسع حين قال إن: «أفضل حُجة مع اليهودي هيَ أن تغرز خنجرك في معدته».

نسي نابليون -في غمرة شعوره بالعظمة والتمكين- أن أياديهم ممتدة إلى كل شيء يحيط به. جلسات العمل. الندوات والموائد المستديرة حول الموضوعات الحساسة التي تهم المجتمع. وتعقد بصفة دورية ويدعى إليها كبار الشخصيات. أعضاؤهم المدسوسون كوزراء في الحكومات الفرنسية المتعاقبة. كبار موظفي الدولة في مواقعهم الحساسة. وهم في نفس الوقت أعضاء في نواديهم ومحافلهم ومجتمعاتهم السرية. لذلك قرروا القضاء عليه.

رأى فيه اليهود خائنا. نكص عن وعده لهم بوطنهم القومي. تلاعب نابليون بأحلامهم في أرض الميعاد التي انتظروها قرونا طويلة. حاولوا تصفيته مرارا لكنهم فشلوا. زرعوا بجواره عملاءهم. قرروا أن ينال هزيمته الأخيرة ليغتالوه. دبروا المؤامرات لاعتقاله والقضاء عليه. قرروا ألا يتركوه ليزعجهم وجوده حتى وإن كان أسيرا. سينتقمون منه ما دام قد تمرد على صانعيه. ابتلع نابليون الطعم وارتدى القلادة. هو مقتول لا محالة. كان العراف «كاليوسترو» يعرف

ذلك حين دله على وجودها. لم تعرف ماري أنطوانيت قبل موتها بأن القلادة ستقع في يد «كاليوسترو» نفسه. لكن العراف الداهية وضعها في طريق نابليون. تماما مثلما فعل مع ماري. لكنه أقنعه بأنها أثمن مقتنيات الملكة الراحلة. أخبره بأنهم استردوها من سارقيها. ثم أوهمه بأنه الأجدر بالحصول عليها.

زوجته جوزفين كانت أذكى منه. رفضت أن ترتديها حين حاول إهداءها لها. سمعت بشؤمها. وأن ماري إنطوانيت كانت ترتديها. يومها غضب نابليون من جوزفين لرفضها هديته.

تذكر نابليون زوجته وهو يتحسس القلادة سائرا في موكبه. خمس سنوات مرت منذ افترقا. لكنه عجز عن نسيانها..

- «كم كنت حمقاء يا جوزفين. حمقاءٌ هي من تفرط في حق رجل عظيم مثل نابليون».

هكذا حدّث نفسه وهو سائر في موكبه الإمبراطوري. صحيح أنه أعلن مسبقا أنه فارقها لعجزها عن الإنجاب. لكن الحقيقة -التي يعرفها هو وجوزفين- أن سلوكها لم يكن مستقيما في غياب رجل يخوض الحروب أكثر من تناوله العشاء مع زوجته الشابة. لذلك قرر أن يطلّقها بحجة عدم الإنجاب. تذكرها وهو سائر في موكبه الحاشد وتملكه الاشتياق إليها. لكن حلم الإمبراطورية فاق ما عداه من أماني. اتخذ قراره بألا يعطله شيء عن تحقيق أحلامه. ولن يلتفت إلى الوراء.

كانت أعين الحكماء وعملائهم تراقبه. وقفوا وسط الجماهير ينظرون إليه بتمعن. كانت قلادتهم تزين صدره. نهايته أصبحت وشيكة. كانوا على يقين بذلك. خططهم المحكمة ستوقع به بلا شك. والقلادة ستتسبب في مصرعه. حلم الإمبراطورية النابليونية سينتهي قريبا. لن يسمحوا له بتحقيقه مهما حدث. لقد أدى الهمجي دوره ولا بد أن يرحل. هكذا كان حكمهم النهائي عليه.

-٦٥-

حَمَائِم رُوتْشِيلْد

«اسمحوا لي أن أسيطر على مال الأمة، ولا يهمني بعد ذلك من يصنع القوانين».

أمشيل روتشيلد

***

باريس - فرنسا
يونيو ١٨١٥م

- ماذا ستجني من وراء ذلك يا ناثان؟

قالها جاكوب صديق ناثان روتشيلد وهو يتطلع إليه، بينما كان ناثان يقف فوق سطح أحد القصور الواقعة في باريس بالقرب من قصر فرساي، يستخلص رسالة من قدم إحدى الحمامات الزاجلة، قبل أن يلتفت إلى جاكوب مبتسما بدهاء قائلا:

- أراقب المعركة في ووترلو عن كثب يا صديقي، ألا ترى معي أنني أول من يعلم كل شيء عن كل شيء؟!

مط جاكوب شفته السفلى وهو يقول بعدم اقتناع:

- وبم يفيدك أن تعرف كل شيء عن المعركة؟

اتسعت ابتسامة ناثان وهو يقول بمكر:

- سترى بنفسك ما لا تتصور أن تراه يا صديقي، أخبار بونابارت تأتيني تباعا، شبكة العيون المحكمة تنقل لي كل نسمة تطير هناك، حتى أنني علمت لتوي أن جيوش نابليون قد اندحرت في هزيمة منكرة.

اتسعت عينا صديقه وهو يقول في دهشة:

- وكيف عرفت بهذه السرعة؟

أطلق ناثان ضحكة ظافرة وهو يقول:

- الحمامة أخبرتني يا جاكوب.

اكتست ملامحه وكلماته فجأة بالجدية وهو يقول:

- سترى بنفسك أنني سأصير أغنى أغنياء أوروبا، آل روتشيلد سيصبحون على قمة العالم عما قريب، سأنقل أخبارا معكوسة إلى إنجلترا، سيعلم الجميع هناك أن نابليون قد انتصر في ووترلو وانهزمت جيوش ولنجتون، هذه حمائم تأتيني بالأخبار الحقيقية، لكنها تنقل الأكاذيب إلى غيري.

تملكت الحيرة من جاكوب وهو يقول:

- ولكن.. كيف لتلك الحيل أن تدر عليك الأموال؟

لمعت عينا ناثان وهو يقول في لهجة أقرب للجنون:

- سيعم الذعر أوساط الجماهير في إنجلترا، وستنهار السوق المالية انهيارا كبيرا، وسيهبط سعر الجنيه الإسترليني إلى شلن واحد، ستنهار أسعار كل السلع بشكل لم يسبق له مثيل، وقتها سأنتقل إلى هناك فورا، مرتديا ثيابا بالية، سأوحي لهم بأنني خسرت كل شيء، ثم أقوم مع المعاونين بشراء كل ما يمكن شراؤه من عملات وسندات وممتلكات بأزهد الأسعار.

صمت قليلا وسط ذهول جاكوب قبل أن يقول:

- وعندما تستفيق الجماهير وتصلهم الأخبار الحقيقية بهزيمة نابليون وانتصار جيوش الانجليز، ستعود الأسعار إلى طبيعتها، لكني سأكون قد جنيت

أرباحا خيالية بهذه الحيلة البارعة.

ظل جاكوب يحدق في ناثان لفترة، فاغرا فاهُ دون أن يقوى على النطق، قبل أن يقول في ذهول:

- ياللجحيم، أي شيطان أوحى لك بتلك الفكرة يا رجل؟!

انطلقت ضحكة أخرى من حنجرة ناثان وهو يفحص الحمامات قبل أن يقول:

- هذا ليس كل شيء يا جاكوب، هذه الحيلة ستجعل آل روتشيلد يسيطرون على مصرف إنجلترا نفسه، كما فعلنا تماما بمصارف فرنسا وأوروبا، سترى بنفسك أننا سنفرض كلمتنا على الحكومة البريطانية بسبب القرض الذي أقرضناهم إياه، وفوائده الضخمة، لن يعنينا بعدها من يجلس على عرش بريطانيا، ستخضع سلطتها الملكية لسلطة المال التي نمتلكها، إذا ما نجحنا في السيطرة على مصادر الثروة في الإمبراطورية البريطانية، إنها ضربة متعددة الفوائد، ستقفز بنا إلى الصدارة.

صمت ناثان للحظات ثم استدار إلى صديقه قائلا بلهجة مخيفة:

- سنصير سادة العالم يا جاكوب، سنملك كل شيء وسنتحكم في كل شيء، ليس في فرنسا وانجلترا وحدهما، بل في العالم بأسره.

-٦٦-

عَمَلِية المتْحَف

«من البساطة توحيد الناس والسيطرة عليهم. فقط قل لهم أن أمنهم في خطر وأنهم معرضون للهجوم، ثم شكك في وطنية معارضيك، سيتوحد الناس رغما عنهم، هي طريقة ناجحة في أي بلد».

هيرمان جورنج

***

جزيرة المتاحف- برلين – ألمانيا النازية

١٩٤١م

أطبق الصمت داخل أروقة متحف «برجامون» بجزيرة المتاحف بمدينة برلين. تململ «مارك سباستهان» ضابط الجستابو داخل مكمنه الذي قرر الاختباء داخله حتى ينصرف الجميع. خطة وضعها بنفسه حين كلفه «هيرمان جورنج» أكبر قادة النازية بعد هتلر، وقائد الرايخ الثالث، ورئيس الجستابو شخصيا بمهمة استثنائية. اصطفاه جورنج من بين كل ضباط الجستابو، وقد رأى فيه قدرات استثنائية لا تتوافر في أقرانه. ويوم تكليفه بالمهمة درس مارك الموقف جيدا بعدما زار الجزيرة التي تضم خمسة متاحف. تفحص حينها

الهدف بعناية. درس أبعاد المكان. تجول بأريحية وبرود أعصاب. لم يكن ليغمره الهدوء لولا علمه بأنه لن يقوم بالمهمة في نفس يوم الزيارة. وفي نهاية تلك الزيارة الاستكشافية أدرك «مارك» ما سيفعله في زيارته القادمة.

يومها قرر أنه سيبدل ملابسه قبل الزيارة الثانية ليبدو كأي مواطن عادي. سيطلق شاربه أيضا وسيرتدي النظارات. لمسات بسيطة ستضفي على مظهره تغيرا يكفي لكي لا يتذكره الحراس والإداريون داخل المتحف. وها هي الخطة قد أوشكت على النجاح. وعندما شارفت فترة الزيارة على الانتهاء، استطاع مارك الاختباء داخل أحد الصناديق الحجرية المعروضة داخل المتحف. بأحد الأركان البعيدة عن الأنظار. امتنع عن الحركة. كمن داخل مخبئه مثلما تدرب كثيرا على الكمون بالخنادق خلال حياته العسكرية. انصرف موظفو المتحف بعد أن تأكدوا من مغادرة جميع الزوار. أُغلقت الأبواب من الخارج. سيطر الظلام والصمت على غالبية صالات وأروقة المتحف. أدرك «مارك» حينها أن الوقت المناسب قد حان للخروج من مكمنه والبدء في تنفيذ المهمة.

أدرك أيضا أن خطته كانت بسيطة لكنها كانت فعالة. كل ما كان يلزمه فعله هو أن يجيد الاختباء، وأن يتحلى بالصبر والجَلَد حتى ينصرف الجميع. ليخرج بعدها إلى هدفه ويحصل على القطعة المطلوبة. ثم يبقى له في النهاية أن يصبر حتى تمضي ساعات الليل. إلى أن يحين الموعد الرسمي لافتتاح المتحف أمام الزوار في اليوم التالي. ثم يتسرب وسط زوار المتحف دون أن يتسرب الشك إلى أحد الحراس.

كان يعلم جيدا أن هذه الخطة تعتمد بشكل كبير على الحالة التي كانت تسيطر على الجميع أثناء الحرب، وأنها محفوفة بالمخاطر. خاصة إذا خطر لأحدهم تفتيشه أثناء الخروج من المتحف.

ورغم إصرار الحكومة على مواصلة فتح المتاحف للزوار -حتى أثناء الحرب- فإنه أدرك بعد زيارته السابقة أن الجميع كانوا تحت سيطرة حالة من الشرود

والتراخي بسبب الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد دول الحلفاء، خاصة ذلك الإهمال الذي لاحظه في تفتيش الزوار وعدم متابعة ما يجري داخل المتاحف بل تراخيهم في مراجعة المعروضات أيضا بشكل يومي.

خرج ببرود من مخبئه، توجه مباشرة نحو قاعة العرض التي تضم القطعة التي جاء من أجلها، مر على معروضات شديدة الإبهار، بوابة عشتار التي أتوا بها من بلاد الرافدين، بوابة وجدار من معبد مردوخ، تماثيل بابلية وأشورية، مقتنيات نفيسة من بلاد الشرق الأدنى القديم. لكنه لم يبال بكل هذا كرجل عسكري، لا تعنيه تلك الأشياء كثيرا، ولا تستحوذ على اهتمامه، لقد جاء إلى هنا من أجل مهمته التي سينفذها مهما كلفه الأمر.

دخل إلى قاعة المجوهرات الأثرية، توجه نحو المعروضات حتى بلغ مكان القطعة التي يستهدفها، من خلف الزجاج ظل يتأملها مرة أخرى كما تأملها في زيارته السابقة، أي سحر تحمله تلك التحفة البديعة! حدث نفسه بأن جورنج كان ماكرا حين اصطفى تلك التحفة بالذات وأصر أن يحصل عليها مهما كلفه ذلك من ثمن، حتى لو كان بسرقتها من المتحف.

لم تكن القطعة المستهدفة سوى تلك القلادة التي يراها الآن داخل صندوق العرض الزجاجي، عرف «مارك» مسبقا أن الألمان قد أتوا بها من باريس، وجدوها وسط مقتنيات قصر فرساي حين احتل هتلر فرنسا، يومها استولى النازيون على كل ما له قيمة، حتى مقتنيات المتاحف والقصور صادروها، كانت القلادة من بينها، بعدها نقلوها من باريس إلى برلين بألمانيا النازلية، لتستقر في ذلك المتحف، عرف «مارك» من زعيمه لاحقا أنها -فيما مضى- كانت تخص نابليون إمبراطور فرنسا، فكر أن تاريخ صنعها لابد أن يكون أقدم من ذلك بالطبع، أدرك أن جورنج كان محقا في اهتمامه بها إلى هذا الحد.

بدت القلادة في عيني مارك مذهلة، ولولا أنه كان يعلم هوس زعيم الجستابو بها إلى تلك الدرجة، لقرر الاحتفاظ بها لنفسه، لكنه كان يعلم أنه لو فعل

ذلك فالعواقب ستكون وخيمة جدا. المهم الآن أن يخرج القلادة من داخل صندوقها الزجاجي ويضع البديل الذي أحضره معه مكانها وينتهي الأمر.

لن يشك أحدهم في أن القلادة قد سرقت. سيدخلون ذات يوم ليجدوا غيرها داخل الصندوق. سيلاحظون سلامة القفل. وكذلك الزجاج. سيشكون أن مفتاحا مماثلا للمفتاح الأصلي قد استخدم في فتح الصندوق. ستتطرق الشكوك إلى الجنرال «جورنج». فكثيرا ما كان يأتي إلى المتحف ويتجه رأسا إلى غرفة القلادة. ليقف أمامها طويلا. جميع من كانوا في المتحف لاحظوا في عينيه الرغبة الملحة للحصول عليها. لكنه لم يجسر على أخذها علانية. جميع رجال الحزب النازي استولوا على العديد من التحف الثمينة. نقلوها إلى بيوتهم. هتلر نفسه نقل رأس نفرتيتي ذات يوم من المتحف ووضعها بجوار فراشه!

لكن الفوهرر رفض أن يجيب طلب جورنج عندما أراد أن يحصل على القلادة. لذلك اضطر إلى الاستيلاء عليها. وكلف مارك –أمهر ضباطه– بتلك المهمة. كان يراهن على أن موظفي المتحف لن ينتبهوا إلى فقدانها. ولو اكتشفوا الأمر فلن يولوه أية عناية. البلاد في حالة حرب ولا أحد سيهتم باختفاء قلادة من أحد متاحف برلين. سيتركون البديل مكانها وسيتظاهرون بأن المعروضات على حالها وكأن شيئا لم يكن.

كان البديل عبارة عن قلادة أيضا لكنها من الطراز «الفارسي» القديم. هي أيضا قلادة ثمينة وأصيلة. لكنها لا تضاهي جمال ورونق تلك القطعة الفنية الرائعة.

عزم مارك على البدء في تنفيذ خطته واستبدال القلادة بتلك التي أتى بها. تفحص الصندوق الزجاجي الذي تستقر بداخله القلادة. كان صندوقا متوسط الحجم يستقر فوق قاعدة خشبية سميكة. بأربعة أرجل تفصلها عن الأرض مسافة متر. نظر حول الصندوق الزجاجي. وانحنى تحت القاعدة الخشبية ليتأكد من عدم وجود أي وصلات لأية أجهزة. ابتسم في خبث بعدما اطمأن أنه

لا توجد أجهزة إنذاركما أبلغه قائده. أخرج قفازين من جيبه ولبسهما، ثم مد يديه نحو الغطاء الزجاجي ليحاول رفعه، لكنه وجده مثبتا بإحكام إلى القاعدة الخشبية. عقد حاجبيه في ضيق عندما فوجئ بصعوبة رفع الغطاء. نظر جيدا عند الحافة السفلية للزجاج، ليجد بعض المسامير المعدنية التي تثبت الزجاج في حرف القاعدة الخشبية. اعتدل مفكرا، ثم ابتسم ثانية. كل شيء قد وضع في الحسبان، لا توجد مفاجآت يمكن أن تزعج رجال الجستابو. خلع نظارته المزيفة ونزع أحد ذراعيها ليبرز في طرفها مفك مجهز لفك وتركيب المسامير. انحنى على القاعدة وعالج المسامير في الجوانب الأربعة حتى نزعها جميعا.

ابتسم من جديد وهو يجمع المسامير في كف يده قبل أن يضعها جانبا بعناية. سيحتاج إليها من جديد ليعيد تثبيت الغطاء الزجاجي. مد يديه من جديد ليرفع الغطاء ليصاب بالدهشة. الغطاء لا يتحرك. حاول جاهدا لكن بات من الواضح أن هناك شيئًا آخر يثبته في القاعدة. دار حول الغطاء من جديد وظل يتفحص كل جزء فيه حتى اهتدى إلى السبب. في أحد الأركان الخلفية، قفل صغير يثبت الغطاء بالقاعدة بقوة، عن طريق إطار طولي يمنع الغطاء من الحركة. هز رأسه ببطء مستنكرا، ثم أخرج من أحد الجيوب أنبوبا صغيرا فتح فوهته. قرب الفوهة من فتحة مفتاح القفل، ضغط عليها قليلا ليخرج منها قطرات ضئيلة من سائل لزج. انتظر قليلا وهو يمسك بالقفل. بعد دقائق شد أجزاء القفل برفق لتنفصل ذراعه عن قاعدته وكأنما فتح بمفتاحه.

من جديد.. ارتسمت ابتسامة الظفر على وجهه. نزع القفل بحرص، وضعه بجانب المسامير. ثم بعزم كبير رفع الغطاء الذي استجاب هذه المرة. وضع الغطاء الزجاجي بجوار الجدار. ثم وقف يتأملها بتمعن أكبر. هذه القلادة مسحورة ولا شك -هكذا حدث نفسه- ارتعشت خلجاته بالرغم منه حين راودته الفكرة. لا يعلم لماذا اعتراه خوف مجهول. خوف لم يعهده في نفسه. وهو الذي لم يهتز لمرأى أهوال تضطرب لها قلوب الشجعان. تجمد لفترة ودارت

برأسه أفكار قاتمة، اشتم رائحة الموت تفوح من القلادة. كأنما انبعثت منها طاقة شريرة، وسرت في المكان من حوله. فكر بأن جورنج ربما كان يخشاها في قرارة نفسه. أولعله كان يفكر في تفكيك ما بها من ماسات وأحجار كريمة باهظة الثمن. استغرق في خواطره لدقائق. لكنه في النهاية حزم أمره ومد يده يتناولها. أخرج القلادة البديلة. رفع القلادة المنتظرة من فوق قاعدتها الحريرية وأخفاها في جيبه بعناية. رفع الغطاء الزجاجي ووضعه في مكانه فوق القاعدة الخشبية ثم استغرق في تثبيت المسامير في مواضعها كما كانت. انتهى منها سريعا واطمأن لإتمامه العمل بإحكام. أعاد ذراع النظارة إلى مكانها ثم وضعها فوق عينيه. ثبت القفل في الإطار الخلفي قبل أن يخرج أنبوبا صغيرا آخر يشبه الأول. وضع فوهته في فتحة القفل العلوية ليسكب عدة قطرات. الآن ستلتصق ذراع القفل بقاعدته وكأنه قد أوصد في وضعه التلقائي بفضل هذه القطرات اللاصقة. سيتوهم من يراه أنه قفل سليم مغلق بإحكام. لكنهم عندما يحاولون فتحه سيرفض الاستجابة. سيضطرون حينها إلى كسره. لن يكتشفوا وقتها أنه قد تم إتلافه وتركه في هذا الوضع الوهمي، بل سيتصورون أن الصدأ قد تمكن من أجزائه. لم يبق لـ «مارك» إلا تنفيذ الجزء الأخير من الخطة. سيعود إلى مكمنه ويختبئ حتى يحين الموعد الرسمي لفتح أبواب المتحف للزيارة. لا بأس ببعض النوم. ولا بأس بعدة ساعات أخرى داخل صندوق القرابين الحجري الذي اختبأ بداخله بنجاح. فلن يكتشف وجوده أحد.

وفي نفسه نادى مارك قائده النازي:

- مهلا يا مارشال.. ها أنا قادم إليك أحمل قلادتك الأثيرة!

-٦٧-

مَحْكَمَة نورمبرج

«لا أستطيع تصور هتلر جالسًا في غرفة سجنه في انتظار محاكمته كمجرم حرب».

هيرمان جورنج

***

محكمة مجرمي الحرب - قصر العدل – نورمبرج – ألمانيا
٢٦ نوفمبر ١٩٤٥م

- يكفي هذا يا مستر جورنج.

نطق بالعبارة «روبرت جاكسون» المدعي العام داخل قاعة المحاكمة، التي يمثُل فيها قادة النازية، فأجابه «هيرمان جورنج» بعصبية:

- خاطبني بـ«هر جورنج» يا هذا، هذه هي المرة العشرون التي أصحح لك فيها.

ابتسم الحاضرون داخل القاعة وتهامس البعض معلقين بسخرية، قرع المدعي بمطرقته يستحثهم على الهدوء ثم قال:

- حسن يا «هر جورنج».. سنكتفي بهذا القدر من دفاعك عن نفسك.

أجابه جورنج بنفس العصبية:

- أنا لم أنهِ دفاعي بعد.

علق المدعي على العبارة قائلا بهدوء:

- يبدو أن لديك المقدرة على الوقوف مدافعا عن نفسك من الآن وحتى يوم الدينونة.

انفجرت ضحكات الحاضرين، فاستشاط جورنج غضبا وهو يقول:

- من أبسط حقوقي أن تستمعوا إلى دفاعي عن نفسي، أنا متمسك بحقي ولن أتنازل.

أجابه المدعي العام وهو ينظر إلى قائمة المتهمين قائلا:

- لقد دافعت بما يكفي وحصلت على فرصتك كاملةً، ولا يزال هناك ثلاثة وعشرون متهما آخر يمثُل عشرون منهم أمام هيئة المحكمة، وأخشى أنه لن يكون لدينا الوقت الكافي لإنهاء جميع المحاكمات.

ارتفعت صرخات جورنج العصبية في هياج، معترضًا على رفض مواصلته للدفاع، بينما تابع المدعي العام كلامه متجاهلا اعتراض جورنج وهو يقول:

- سنشاهد آخر أدلة المدعين.

قالها وأشار إلى أحد الضباط بالقاعة، فقام الأخير من مجلسه وذهب إلى أحد الأبواب الجانبية، ثم عاد بعد قليل ممسكا مصباحين من الطراز الذي يوضع على المكاتب.

نظر المدعي إلى موكل الادعاء متسائلا واشرأبت أعناق الحضور لمحاولة فهم الأمر، بينما قطب جورنج جبينه، وأحنى بعض القادة النازيين رؤوسهم أرضا فقال جاكسون:

- يرجى تعريف دليل الإدانة أيها الموكل.

نهض موكل الادعاء من موقعه بين فريق الادعاء، وهو يشير إلى المصباحين اللذين يحملهما الضابط، ممسكا بيده تقريرا قدمه للمدعي العام قائلا:

- هذان المصباحان وجدا في مكتب المتهم «هيرمان جورنج»، وبعد فحصهما تبين للطبيب الشرعي أن غطاءيهما قد صنعا من جلود البشر وفقا لهذا التقرير،

ولم يكونا الوحيدين أيضا، فقد وجدنا الكثير منها في مكاتب قادة المعسكرات لاحقا، لقد كانوا يستخدمون جلود ضحاياهم من المدنيين والأسرى في صنع هذه الأشياء البشعة!

عقد المدعي العام حاجبيه وقلب شفته السفلى في ازدراء، في حين واصل موكل الادعاء حديثه وهو يشير إلى بعض الملفات الكبيرة قائلا:

- ليس هذا فحسب يا سيدي، بل إن هذه الملفات توثق بالصور والمستندات إصدار المتهم أوامره لقادة معسكرات الإيواء ولأطباء المعتقلات –الذين تحولوا إلى ملائكة عذاب– بالعديد من الجرائم الأخرى كالتجارب الوحشية على البشر، وحقن العيون بمواد كيماوية بغية تغيير لونها، بتر الأطراف، تعقيم النساء بالأشعة وعن طريق الحقن بالمواد الكيماوية، وصعقهن بالكهرباء، استزراع الأعصاب والعظام، وإجراء التجارب لنقل العظام من شخص إلى آخر، حقنهم في القلب مباشرة بالسم والنفط والماء، بتر الأعضاء دون مخدر لقياس قدراتهم على تحمل الألم، فضلا عن بعض المحارق التي أقيمت تحت مسؤوليته لغير الآريين، والكثير من الجرائم الأخرى التي تم توثيقها، باختصار.. هذا الرجل نازي أكثر من هتلر نفسه.

صاح جورنج بحدة معترضا:

- هذه الاتهامات بلا دليل، والمراسلات أغلبها مزور، وتلك الأفلام التسجيلية من صناعة شركة أمريكية.

أجابه جاكسون بنفس الهدوء الحازم:

- يؤسفني يا هر جورنج بأن أخبرك أنك حتى لو دافعت ألف مرة، فلن تستطيع أن تعطي تفسيرات لكل ما ارتكب من جرائم، وبصفتي رئيسا وممثلا عن هيئة المحكمة فلا أستطيع منحك وقتا أطول من ذلك، ستة أيام متواصلة من المحاكمة هو وقت كافٍ جدا لأن تتضح الحقيقة.

قالها وهو يقوم من مجلسه مع باقي المدعين ثم أضاف قائلا:

- سترفع الجلسة للبت في الحكم قبل إعلان المنطوق والحيثيات.

تحرك هو ومرافقوه إلى الباب الخلفي، غابوا لنصف الساعة. قبل أن يعودوا إلى المنصة من جديد، اتخذوا مواقعهم خلفها وجلسوا فوق مقاعدهم. قبل أن يتصاعد صوت طرقات المدعي العام، يتبعه صوته قائلا:

- ستتلو هيئة المحكمة منطوق الحكم بعد المداولات. أرجو من الجميع عدم المقاطعة والإنصات التام.

صاح جورنج بنفس الحدة وجسده يرتعش من الغضب:

- يجب أن أتكلم، ما زال لدي الكثير من الدفوع. نحن دولة ذات سيادة وقراراتنا من صحيح أعمال السيادة، كما لا يحق لدول الحلفاء أن تحاكمنا. هذه المحاكمة غير شرعية، هذا ضد الحيادية وضد العدالة.

أجابه جاكسون بصرامة:

- أرجو أن تلتزم الصمت يا مستر جورنج، لقد انتهت المحاكمة عند هذا الحد. أرجو أن تهدأ حتى أتمكن من تلاوة منطوق الحكم.

ثم التقط نفسا طويلا وهو يقرأ من أوراقه:

«بعد الاطلاع على لائحة الاتهام للمتهم الأول «هيرمان فريدريك جورنج»، مؤسس «البوليس السري» الجستابو، ورئيس الرايخستاج، ورئيس سلاح الجو الألماني، وبعد أن تم قراءتها على المتهم بواسطة محامي الادعاء، وبعد الاستماع إلى الدفاع الذي أدلى به بنفسه، ثم دفاع محاميه الدكتور «شتايمر»، ثم بعد الاستماع لشهود الإثبات وشهود النفي، وقراءة المراسلات التي جرت بين قادة النازية والتي ضُبطت في مقرات الحزب النازي، وبعد مشاهدة الأفلام التسجيلية لمشاهد من الحرب ومعسكرات الإبادة الجماعية، والمحارق التي أنشأها الحزب النازي، فقد وجهت التهم التالية إلى المتهم:

«أولا: المشاركة في تأسيس دولة مستبدة في ألمانيا واستخدام النازية في العدوان الخارجي.

ثانيا: ارتكاب جرائم ضد السلام وضد الإنسانية وانتهاك المعاهدات والاتفاقات الدولية، ونهب كنوز الفن والثروات الخاصة والعامة في البلدان المختلفة، والتوسع في القتل والإبادة والاستعباد والاضطهاد والتعذيب لأسباب سياسية وعنصرية.

ثالثا: ارتكاب جرائم حرب وممارسة القتل بشكل موسع ومفرط، ومعاملة مواطني الدول المحتلة معاملة أدت لمرضهم وتدهور صحتهم ووفاتهم.

رابعا: الترحيل القسري لأسرى الحرب وإجبارهم على العمل بالسخرة وقتل المعتقلين.

وبعد التحقق من ثبوت تلك الاتهامات سالفة الذكر بالاطلاع على الأدلة فقد قررت هيئة المحكمة التالي:

حكمت المحكمة العسكرية الدولية على المتهم «هيرمان هنريك جورنج» بالإعدام شنقا».

بمجرد نطق المدعي العام للحكم ضجت قاعة المحاكمة بأصوات مختلطة أنهكتها الحرب، في حين ظل المدعي العام يضرب بمطرقته لفرض الهدوء، هب جورنج واقفا وقد واصل صراخه:

- هذه المحكمة لا تمثل عدالة الرب! هذه محكمة أجنبية فاقدة للشرعية.

تجاهل الجميع صرخاته وهم مستغرقون في تعليقهم على حكم الإعدام، في حين واصل هو صرخاته قائلا:

- أنا المارشال الإمبراطوري، أنا الفوهرر الأعظم، أنا قائد الرايخ الثالث، لا يحق لكم محاكمتي.

لكن الرجلين ذوي الزي العسكري المحيطين به من الجانبين اقتاداه إلى خارج قاعة المحاكمة وهو في حالة هياج شديد.

-٦٨-

نِدَاء الهَاوِيَة

«يمكن لأي شخص التعامل مع النصر، فقط الأقوياء يمكنهم أن يتحملوا الهزيمة».

أدولف هتلر

***

- انضم إلينا يا هيرمان.

ترددت العبارة في فراغ مظلم أحاط بجورنج من كل جانب، شعر بالظلام يتسرب إلى كيانه، فقال في حيرة:

- من أنت؟

انساب الصوت من جديد قائلا بهدوء:

- ألا تعرفني؟ ألا تعرف زعيمك؟ ألا تعرف الفوهرر يا جورنج؟

استغرق جورنج في حيرته أكثر وهو يقول بلهجة جادة:

- لماذا إذن لا أراك؟ لماذا تقف في الظلام يا سيدي الفوهرر؟

انقشع الظلام من بقعة بعينها وبدت معالم الجسد الواقف فوقها تتضح تدريجيا حتى ظهرت هيئة الرجل تحت الضوء الخافت الذي سقط من اللامكان، فاتسعت عينا جورنج وهو يقول:

- أنت لا تزال على قيد الحياة يا «أدولف»! كيف فعلتها؟

أجابه هتلر بنفس الهدوء قائلا:

- لست على قيد الحياة، لكنني انتقلت إلى حيز آخر. كما أنني لم آت إلى هنا وحدي.

صمت جورنج، فواصل هتلر حديثه وهو يشير إلى بقعتين حوله من الجانبين برز فيهما شخصان تبدد الظلام من حولهما:

- معي هنا هملر وجوبلز. سيكتمل الجمع بوجودك يا عزيزي هيرمان.

أجابه جورنج مستنكرا:

- ولكنكم تخلصتم من حياتكم. أتريدني أن أنتحر مثلما فعل ثلاثتكم وأن أفقد حياتي؟

قال هتلر بنفس البرود:

- لا يمكن وصف ذلك على أنه فقدان للحياة. لن تفهم أبدا إلا إذا انضممت إلينا. من الأفضل لك أن تأتي إلينا وبأسرع وقت. سيقتلك الأمريكيون في كل الأحوال وسيسجل التاريخ أنهم نالوا منك يا هيرمان.

ظهرت أمارات الرفض على وجه هيرمان وهو يقول:

- ولماذا أموت؟ ربما توجد فرصة للنجاة!

أجابه هتلر وقد ظهرت على ملامحه الصرامة:

- يجب أن تكفِّر عما فعلت. حينما أرسلت إليَّ برسالة حمقاء تطلب فيها مني التنحي عن قيادة الحزب النازي وزعامة ألمانيا. عار عليك يا هيرمان. أنسيت صداقتنا ونسيت كل الأعمال العظيمة التي قمنا بها سويا؟ أأطعت غرورك وصدقت أنه بإمكانك أن تصبح زعيما كهتلر؟ أنسيت أن هتلر هو الزعيم الأوحد والقائد الملهم الذي طالما تغنيت بأمجاده؟ لماذا انتهى بك الأمر لأن تتهمني بالخطأ وإساءة التصرف؟ هيا.. افعلها يا رجل. انتقل معنا إلى هنا. اخرج من تلك الحياة البائسة فما عاد لبقائك معنى بعد هزيمة ألمانيا.

ثم مد يده إلى جورنج الذي بدأ يترنح وآيات العذاب النفسي ترتسم على

وجهه، فأضاف هتلر قائلا:

- هيا يا هيرمان، تعال إلينا، تخلص من عذاباتك وفوت على أعدائك فرصة النيل منك.

حدق هيرمان في وجه هتلر واتسعت عيناه وهو يقول:

- لكنك.. لكنك لست الفوهرر..

ارتسمت ابتسامة شريرة على وجه محدثه للمرة الأولى منذ ظهوره وهو يقول:

- من تظنني إذن؟

أجابه هيرمان، وهو يقاوم شعورا خانقا أطبق على صدره وضيق أنفاسه:

- أنا أعرف الفوهرر كما أعرف نفسي، ومظهرك لن يخدعني يا هذا.

اتسعت الابتسامة الشريرة على وجه الرجل ومد يده من جديد نحو جورنج وهو يردد متجاهلا كلامه:

- لا مفر من الانضمام إلينا يا هيرمان، هيا يا رجل، تعال وانضم إلينا، خلص نفسك!

وضع هيرمان كفيه على أذنيه وهو لا يزال في ترنحه بينما واصل صوت الرجل مرددا:

- خلص نفسك يا هيرمان.. خلص نفسك.. خلص نفسك..

تلوى جورنج وجثا على ركبتيه، ظل محيطا رأسه بكفيه محاولا منع الصوت الرنان من الوصول إلى مسامعه دون جدوى، صرخ بصوت يملأه الألم:

- لا!!!!!.

استيقظ جورنج فجأة من نومه ليجد نفسه داخل محبسه جالسا على فراشه المتواضع، وأدرك من الوهلة الأولى بعد أن تلفت حوله أنه كان فريسة لكابوس عصيب. امتلأت نفسه بالهواجس والوساوس واسترجع ما رآه في منامه، امتدت يده لتتحسس شيئا صغيرا تحت ثنايا الفراش، كبسولة صغيرة أخفاها بعناية في بذلته العسكرية منذ أن اعتقلوه، لم يكن من الصعب

بعدها أن يأخذها إلى داخل محبسه. أخفاها داخل إحدى عبوات الكريم، ثم استخرجها ليخبئها في الفراش. جميع قادة النازية كان لديهم مثلها.

أدرك منذ يوم القبض عليه أن الحلفاء وعلى رأسهم الأمريكيون سيقتلونه هو ورفاقه، بعد تلك المحاكمات التي جاءت باتهامات محكمة وعقوبات جاهزة، تسللت إلى نفسه رغبة متزايدة في الخلاص من كل هذا. سبقه هتلر ورفيقاه إلى العالم الآخر. يبدو له الآن أنه خيار رحيم مقارنةً بإعدامه شنقا. طلب منهم مرارا بعد سماعه الحكم أن يعدموه كرجل عسكري رميا بالرصاص بدلا من إعدامه شنقا، لكن رفض القاضي وباقي المدعين كان قاطعا.

تذكر للحظات متعلقاته الثمينة وتحفه النادرة التي سلبها إياه الأمريكيون، هذه القلادة الفريدة من نوعها التي استولى عليها من متحف برلين. ما مصيرها بعد أن صادروا كل شيء، ثم قرر في نفسه في اللحظة التالية أنه بموته لن ينفعه أي من تلك المقتنيات في العالم الآخر ولن تصل ممتلكاته حتما لورثته، فلتذهب إذن تلك القلادة إلى الجحيم.. هكذا قرر.

الآن تداعبه فكرة الخلاص من حياته طوع إرادته، فكرة أصبحت متقبلة بالنسبة إليه عن ذي قبل. الأمر يسير وغير مؤلم. سيقضم كبسولة السيانيد التي يخفيها ولن يشعر بعدها بشيء البتة.

لكن، ألح عليه سؤال مصيري، هل سيمهله خصومه أن يفعل؟

-٦٩-

سِيَانِيد

«إذا ابتسم المهزوم أفقد المنتصر لذة الفوز».

أدولف هتلر

***

نورمبرج

١٥ أكتوبر ١٩٤٦م - عشية تنفيذ حكم الإعدام

اندفع أحد جنود الطاقم الأمريكي المكلف بحراسة القادة النازيين بسجن نورمبرج إلى مكتب قائده قائلا بانفعال:

- سيدي الكولونيل، السجين رقم «١» لا يستجيب للنداء ولا تصدر عنه أية حركة.

انتبه رئيسه وهبّ واقفا على الفور قائلا:

- هل اقتحمتم غرفته؟

أجابه الجندي بسرعة:

- كلا يا سيدي، خشينا أن تكون خدعة من السجين.

اندفع قائده خارج غرفة مكتبه وهو يقول للجندي بحدة:

- استدعي فرقة مسلحة لاقتحامها إذن، واستدع معهم الطبيب «چون

لاتيمر»، يجب أن نستكشف السبب فورا.

اندفع الجندي ليستدعي الفرقة. وفي دقائق كان الجميع يقفون أمام محبس جورنج ويتأهبون لاقتحامه، وفور صدور الأمر من القائد فتحوا باب الغرفة، مصوبين أسلحتهم إلى جورنج المسجى على فراشه في وضع متصلب دون حراك، وعلى وجهه تجمدت ابتسامة عجيبة. اقترب الجنود منه مصوبين أسلحتهم إلى صدره ورأسه، هزه أحدهم بفوهة سلاحه بعنف. لكن الرجل كان فاقدا للوعي ممددا دون حراك، أشار القائد إلى الطبيب العسكري «جون لاتيمر» فاقترب الأخير منه وهو يرتدي قفازيه الطبيين، انحنى على جسد جورنج ليتفحصه، فتح جفنيه وجس صدره، قبل أن يفتح فمه الذي تشنج فكاه على وضعهما المغلق. بعد محاولات انفتح فمه، مد أصابعه بين الفكين واستخرج كبسولة صغيرة، كانت أقل حجما من عقلة الإصبع، أمسكها الطبيب بأصابعه التي يغطيها قفازه الطبي، نظر إليها متفحصا قبل أن يلتفت إلى القائد قائلا:

- لقد انتحر الرجل!

عقد القائد حاجبيه وهو يقول بحدة:

- كيف انتحر؟ هذه الغرفة مفتشة بعناية، كما أنه يخضع للتفتيش يوميا للتأكد من عدم وجود وسيلة للانتحار؟

رفع لاتيمر الكبسولة أمام أعينهم وهو يقول:

- كبسولة ضئيلة الحجم كما ترى، لا يمكن توقعها، غالبا كانت تحوي السيانيد.

ثم وضعها في راحته الأخرى قبل أن يقول:

- لقد انتحر هيرمان جورنج مثلما فعل هتلر وهملر وجوبلز، يبدو أنها الطريقة المفضلة لدى قادة النازية، الموت المبتسم، جرعة ضئيلة من سيانيد البوتاسيوم أودت بحياة مهندس الإبادات الجماعية.

بدت أمارات الضيق على وجه قائد السجن، والتفت إلى فرقة الجنود قائلا

بصرامة:

- فلتستدعوا باقي الفرق فورا، ليقوموا جميعا بحملة تفتيش لكل المعتقلين بحثا عن كبسولات مماثلة. لا أريد لذلك أن يتكرر. فتشوا الفراش والملابس والطعام وحتى عبوات الكريم، وكل شيء، هيا.

انصرف الجنود فورا لتنفيذ الأمر، في حين تأمل القائد جثة «جورنج». تساءل في نفسه إذا ما كان جورنج قد رسم ابتسامته الساخرة قبل الانتحار مباشرة، أم أنها ارتسمت على وجهه بفعل السيانيد. فكر للحظات ثم قال بضيق مخاطبا نفسه:

- جدير بك أن تبتسم، فقد أفلتَّ بعنقك من حبل المشنقة أيها السفاح.

-٧٠-

غَنَائم نَازيَّة

ولاية نيوجيرسي – الولايات المتحدة الأمريكية
١٩٦٢ م

وقف الطبيب العسكري العقيد «جون كينجسلي لاتيمر»، داخل إحدى حجرات منزله الكبير بـ «أنجلوود»، بولاية نيوجيرسي الأمريكية في مساء ذلك اليوم، كان يتفحص مجموعة مقتنياته الثمينة، تملكه الفخر وهو يستعرض تلك التحف التي جمعها خلال خدمته كطبيب عسكري أمريكي، كان يشعر بالسعادة لامتلاكه مقتنيات تلك الحجرة تحديدا، كان قد غنمها منذ أن تم تعيينه طبيبا رسميا لرعاية المتهمين في محاكمات نورمبرج.

كان لاتيمر ضمن القوات الأمريكية التي شاركت في الحرب العالمية الثانية، ومنذ تولى الإشراف على صحة المتهمين النازيين، فقد حصل على الكثير من متعلقاتهم الشخصية، خاصة أنه كان الطبيب الشرعي الذي يتفحص بنفسه كل الأدلة الجنائية، ومتعلقات الجناة والضحايا على حد سواء، من هنا استحوذ على تلك الغنائم بطريقته التي أجادها منذ شبابه،حين أتيحت له فرصة إشباع هوسه بجمع التحف النادرة.

كان طبيبا ماهرا، ومحاضرا بارعا في مجاله، درس في جامعة كولومبيا لسنوات، حتى صار رئيسا لقسم طب المسالك البولية، كتب عشرات الأوراق البحثية في تخصصه، طور الكثير من العلاجات، اختاروه ليكون طبيبا رسميا للزعماء النازيين المعتقلين بعد الحرب، لكن ولعه الأكبر كان جمع التحف

والمقتنيات. كان يعشق الآثار التاريخية خاصة العسكرية منها. اجتمعت لديه الكثير من النوادر. بنادق وسيوف ودروع من العصور الوسطى. درع لأحد فرسان مالطا. سيوف تنتمي لفرسان الهيكل. أسلحة مختلفة من الثورات المختلفة والحروب الأهلية. كومة من مدافع الحرب العالمية الثانية. عدد جيد من المدافع الرشاشة الألمانية. وغيرها من المقتنيات المميزة.

تأمل لاتيمر مقتنياته النفيسة. وظل يسترجع ذكريات حصوله على كل قطعة منها. ها هي السترة العسكرية لهتلر. آخر زي عسكري كان يرتديه قبل انتحاره. سراويل «الفوهرر» الثمينة. جواربه وربطات عنقه وملابسه المختلفة. شراشف طاولته ومناديل المائدة. حتى صور الأشعة السينية التي تحتوي على رسم موجات لرأس الزعيم النازي. بل لوحات رسمها هتلر بنفسه. لو شاء الآن أن ينشئ متحفا خاصا للزعيم المهزوم. لصار أشهر متاحف العالم.

الآن ينتقل لمقتنيات باقي قادة النازية. الكثير مما تركه هملر وجوبلز وباقي رفاق هتلر. ظلت عيناه تتنقل بين المقتنيات. مر عليها سريعا وتذكر مع كل قطعة منها وقائع حصوله عليها. توقف عند متعلقات هيرمان جورنج. هذا الرجل بالذات الذي شهد لاتيمر واقعة انتحاره. ها هي بعض من ملابسه الداخلية الحريرية. قبعة من الفراء وساعته الثمينة. مجموعة من التحف القيمة. كان جورنج مولعا باقتنائها من كل البلاد. ها هي مستقرة عنده الآن. حتى الحافظة البرونزية التي كانت تحوي كبسولة سم السيانيد. انتحر بها القيادي النازي قبل ساعات من تنفيذ حكم الإعدام. لكن الكبسولة استقرت بين المعروضات. حرص لاتيمر على أن يحصل عليها. كانت جميع تلك المتعلقات تنتمي لمجموعة جورنج. لذلك وضعها في ركن خاص.

مر لاتيمر عليها قطعةً تلو الأخرى. حتى توقف عند القلادة..

كانت أكثر ما لفت أنظار لاتيمر. لم تكن القلادة تشبه أي شيء آخر في مجموعة جورنج. ولا مجموعة أي قائد نازي آخر. بل لم ير أي قطعة أثرية

مثلها في حياته، ورغم أنها لم تكن القطعة النادرة الوحيدة في مجموعته، فإنها كانت متفردة في رونقها وجمالها وغموضها أيضا.

تأملها كثيرا بأقراصها الثلاثة وسلسلتها الفريدة، سرت في جسده رعدة، قطب جبينه وهو يتأمل نقوشها الغريبة فوق قرص المنتصف، أوقد انتباهه ذلك المشهد المتجسد فوق القرص الأخير، لمعت عيناه وقد بدأ يدرك مغزى هذا كله رغم عجزه عن قراءة طلاسمها، هذه القلادة تخصهم.. النخبة القديمة التي ورثت علم الكهنوت، أدرك أن تلك القلادة تنتمي إليهم بشكل ما، وإلا لما ولوها كل هذا الاهتمام.

كيف علموا بأمرها؟ وكيف علموا بحصوله عليها؟ لا يدرى! لكنه الآن يفهم لماذا تواصلوا معه، يطلبون منه أن يعرضها بأكبر مزادات الولايات المتحدة، ووعدوه بحصوله على سعر مغرٍ في المزاد.

هذه القلادة إذن تخفي سرا من أسرار الماضي، فكر أنها ربما تمنح القوة، أو ربما تحمل إحدى اللعنات القديمة! هذه الطلاسم حول أقراصها أنبأته بذلك، هذه العين التي برزت من منتصف قرصها العلوي أخبرته بالكثير! إنها لهم بكل تأكيد، وتحديدا هي لأسلافهم القدماء، هكذا أدرك لاتيمر.

كيف يا ترى حصل جورنج على تلك القلادة تحديدا؟ -تساءل لاتيمر في نفسه- لا بد أنه حصل عليها كما حصل على باقي مقتنياته الثمينة، الرجل كان داهية، وله اليد الطولى داخل ألمانيا وخارجها، لكنه فوق كل ذلك كان عاشقا للتحف والنوادر.

«منغمسا في النعيم كان جورنج».

ألحت عليه الفكرة، كانت حقيقة يعلمها كل من يعرف تاريخ الجستابو والحركة النازية منذ مولدها وحتى سقوطها بهزيمة ألمانيا، إنها الحالة المثالية لزواج السلطة بالمال، بارونة سويدية فاحشة الثراء التقت به في إحدى السهرات الرائعة، لتحصل على قلبه في مقابل حصوله على ثروتها، تلك هي

النتيجة الحتمية.

فكر لاتيمر كيف أنه قد حق لـ «جورنج» ما لم يحق لغيره، وكيف عاش أزهى سنوات عمره على قمة السلطة النازية في ألمانيا، تمرغ في الثراء الفاحش، حتى أصبح أكثر قادة النازية مالًا وثراءً، تناول أشهى المأكولات، تمتع بأجمل السهرات الصاخبة، ارتدى أفخر الملابس، وكانت تلك الأشياء وحدها هي التي ترضي غروره ونرجسيته.

لكن كل تلك الثروة الهائلة لم تمنعه من ارتكاب جرائمه الفادحة، كما أنها لم تمنعه من الوقوع في أيدي الحلفاء والمثول للمحاكمة.

أدرك لاتيمر أنه يملك ثروات نادرة، علم كذلك أنه سيحقق ملايين الدولارات من وراء تلك المقتنيات الاستثنائية، سيبيع كل القطع بلا شك -هكذا قرر- لكنه قرر أنه لن يبيعها دفعة واحدة، سيبيعها على مراحل وعلى مدار سنوات عمره ليظل ثريا، وكلما مضى الوقت على تلك التحف سترتفع قيمتها، هكذا انتوى أن يفعل، لكنه علم أن تلك القلادة ستحقق له الكثير، ستكون باكورة التحف التي تباع لتدر عليه الثروة التي يستحقها، كان يحتاج إلى سيولة كبيرة لتحويل منزله إلى متحف عسكري كما يحلم، بدت له الفرصة سانحة ليحصل على مئات الآلاف من الدولارات دون أن يبذل أي جهد يذكر.

ألقى على القلادة نظرة أخيرة ثم غادر متحفه الصغير لإجراء الاتصال بإدارة مزاد فريمانز، طلب منهم خلال اتصاله إرسال مندوبين وخبراء في المجوهرات لتثمين القلادة مبدئيا قبل عرضها في المزاد، استقر رأيه على بيع قلادة جورنج -أو بالأحرى قلادة بابل- في أشهر وأعرق مزادات الولايات المتحدة.

-٧١-

المَزَاد

«سيداتي وسادتي..

إن كلمة «سري للغاية» هي كلمة بغيضة في مجتمع حر ومفتوح..

ونحن شعب ـ بطبيعة تاريخنا ـ نعارض المجتمعات السرية.. والأنظمة السرية.. والإجراءات السرية..

نحن نتعرض حول العالم لمؤامرة محكمة وقاسية، تعتمد بالدرجة الأولى على إجراءات سرية لتوسيع دائرة نفوذها..

بالتسلل بدلا من الغزو.. وبالتخريب بدلا من الانتخابات.. وبالتخويف بدلا من حرية الاختيار

إنه نظام قام بتجنيد موارد بشرية ومادية واسعة، لبناء آلية عالية الكفاءة ومحكمة، تجمع بين عمليات عسكرية ودبلوماسية واستخباراتية واقتصادية وعلمية وعمليات سياسية، ثم تحضيرها بسرية غير معلنة أو منشورة، أخطاؤها تدفن ولا يصرح بها، ويتم إسكات الفارين منها عوضا عن مدحهم، لا أسئلة عن الإنفاق، وغير مسموح بكشف أسرارها..

لذا فإنني أطلب مساعدتكم في المهمة العظمى لإعلام وإنذار الشعب الأمريكي..

بمساعدتكم نحن واثقون بأن الإنسان سيكون على ما ولد عليه حرا مستقلا».

من آخر خطاب جماهيري للرئيس الأمريكي «جون كينيدي» عام ١٩٣٦م قبيل اغتياله .

***

فلادلفيا- ولاية بنسلفانيا الأمريكية

أغسطس ١٩٦٣م

دخل الرئيس الأمريكي «جون كينيدي» إلى قاعة مزاد «فريمانز» -أقدم مزادات الولايات المتحدة- برفقة زوجته «جاكلين»، وبادر العديد من رواد المكان والشخصيات الهامة إلى مصافحة الرئيس وزوجته والترحيب بهما، قابلاهم بابتسامات ودودة، قبل أن يتوجها إلى مقعدين مخصصين لهما في الصف الأول أمام منصة المزاد مباشرة.

اكتظت القاعة بالحضور، زخرت المنصة بالعديد من المعروضات الثمينة، مقتنيات تباينت تواريخ صنعها والحضارات التي تعود إليها، منها ما يرجع عمره لبضعة عقود، ومنها ما يعود لآلاف السنين.

تزاحمت الأفكار في رأس «كينيدي»، تذكر ما قيل له عن التحفة التي استقرت أمامه، كانت القلادة تتصدر المعروضات أمام المنصة، معلقة بداخل علبة عرض زجاجية، تتلألأ تحت أضواء القاعة الساطعة.

«إنها أعظم تحفة يمكن أن تحصل عليها في حياتك يا «جون»، ربما استقرت تلك القلادة يوما ما حول عنق أعظم ملوك الشرق القديم، ربما كانت ملكًا للملك سليمان أو لنبوخذنصر أو حتى لصلاح الدين، من يدري؟».

ترددت عبارة صديقه جوزيف واختلطت بخواطره، كان جوزيف يشاركه نفس الاهتمام في جمع التحف والنوادر والقطع الفنية النادرة، تعرف عليه خلال أحد المزادات السابقة في العام المنقضي، عرف بعدها أنه رجل فاحش الثراء، سخَّر وقته وجهده وماله في جمع التحف الثمينة والآثار النادرة من جميع أنحاء العالم، وظل عضوا دائما في مزاد «فريمانز» منذ وقت طويل كما أخبره هو بنفسه.

عجيب هو أمر الإنسان، فمهما علا شأنه وارتفع مقامه فلا تزال نزعات الماضي تسيطر عليه، تقوده لإبداء غريزته المدفونة تحت قناع التحضر، يظل الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يسعى خلف المال مهما أظهر من قناعة، ويعشق التراث مهما بدا عصريًا، ويجمع كل ما يقدر عليه من نوادر المقتنيات التي أنتجتها قريحة من أتى قبله من البشر.

لم يكن «كينيدي الرئيس» يختلف عن سائر بني البشر في ذلك، بل كان شديد الولع بكل ما يتعلق بتراث الماضي، إنه «جون» الأرستقراطي المدلل سليل «آل كينيدي» الأثرياء، الذين ملأوا خزائن بنوك أمريكا بالنقود والذهب، إن لم يكن كينيدي قد ولد بملعقة ذهبية في فمه فمن فعلها إذن؟!

لأسباب كهذه تعرف «جون» على چوزيف، المليارديرا اليهودي الكهل الذي يتشابه معه في الثراء، شاركه ولعه بكل ما يتعلق بتراث الماضي، ظلا يتبادلان الزيارات والاهتمامات وتبادل المقتنيات طوال العام الفائت، حتى أتى اليوم الذي أخبره فيه جوزيف بأمر القلادة، نجح چوزيف في الاستحواذ على كل حواسه، قضى على أية إرادة لدى «كينيدي» لمقاومة رغبته في الحصول على تلك التحفة الفريدة.

ومع تذكره لجوزيف طافت تساؤلات عديدة بذهن كينيدي وهو لا يزال يتأمل القلادة من بعيد، أسرته وخلبت لبه وصار مقيدًا برغبته الجامحة في الحصول عليها بأي ثمن.

ترى! لماذا لم يأت جوزيف إلى المزاد مثلما يفعل دائما؟ وإذا كانت هذه التحفة تتسم بتلك الندرة اللافتة، فلماذا لم ينافسه على اقتنائها؟ هل تنازل عنها عن طيب خاطر من أجل صداقتهما؟

تساءل كثيرا لكنه لم يتوقف عند تلك الفكرة أكثر من ذلك، عاد إلى بحر أفكاره الثائر وقد تثبتت أنظاره على القلادة، تمكنت التحفة منه بشكل كامل، ومرت الدقائق قبل أن يرتفع صوت منظم المزاد عبر مكبر الصوت قائلا:

- السيدات والسادة، يسعدني أن أفتتح مزاد اليوم بحضور حشد رائع من السادة المحترمين، وعلى رأسهم الرئيس شخصيا، هذه واقعة استثنائية جدا وحصرية أن يحضرنا رئيس الولايات المتحدة بنفسه في مزاد «فريمانز» العريق.. وكما هو يوم استثنائي من حيث مستوى الحضور الكرام، فهو استثنائي أيضا في المعروضات، اليوم أيها السادة لدينا قلادة عتيقة تعود إلى أيام بابل.. بابل ذات الحضارة البائدة التي ذكرت في الكتاب المقدس! أتدركون كم هي ثمينة تلك التحفة؟

أما ثاني تلك المعروضات فهو مقعد الرئيس «لينكولن»! نعم، إن ما سمعتموه حقيقي أيها السيدات والسادة، مقعد لينكولن الشهير موجود لدينا هنا اليوم! فضلا عن معروضات أخرى كتلك المجموعة الفضية النادرة التي أتت من الشرق البعيد، وهي صناعة يدوية خالصة، وهذه الأواني الفاخرة التي اشتهرت بها اليابان.

- «چون»!

انتزع النداء كينيدي من أفكاره، وهو يلتفت إلى «چاكلين» في دهشة، كأنه ينتبه لوجودها للمرة الأولى، فتابعت قائلة:

- تبدو هذه القلادة باهظة الثمن يا «چون»، ولا أظنك ستستطيع الحصول عليها بالمبلغ الصغير الذي خصصته من أجلها!

ظهر الوجوم على وجه كينيدي وسرح بناظريه مرة أخرى متلفتا إلى حيث استقرت القلادة وصوت منظم المزاد يتردد في قوة على مسامع الحاضرين فأجابها شاردا:

- المال لا يهم يا «چاكي»، لدي الكثير منه كما تعلمين، ربما أستطيع أن أحصل عليها لو رفعت ميزانيتي قليلا.

قلبت چاكلين شفتها السفلى في عدم اقتناع قائلة:

- أعلم أنك تستطيع شراءها بأضعاف ثمنها، لكنك تحتاج إلى المال من أجل

حملتك الانتخابية القادمة يا «جون»! أنا أقدر حبك لتلك التحف لكن الرئاسة أولى.. أليس كذلك؟

هز كينيدي رأسه ببطء موافقا، لكن تركيزه الكامل كان موجها نحو منظم المزاد، ظلت عيناه مثبتتين على القلادة في شغف بالغ، بينما واصل المنظم استعراض مقتنيات المزاد، حتى أشار نحو القلادة التي تألقت داخل صندوقها الزجاجي وكأنها تدرك أن الأنظار موجهة صوبها:

- والآن نبدأ بأهم المعروضات.. قلادة بابل العتيقة، فن راق من عصور شديدة القدم، صانعها مجهول، كتاباتها مجهولة، انظروا إلى الماسة الكبيرة التي تزين صدر القلادة، يالها من ماسة عملاقة تتفوق في الحجم والوزن وصفاء اللون على نظيراتها في أي قطعة أخرى، انظروا أيضا إلى الأحجار الأخرى التي تزينها، إنها لا تقل روعة عن الماسة الرئيسية، انظروا إلى صياغة تفاصيلها بالغة الإتقان وتناسق ألوانها المثالي، وهذه الأحجار من الزمرد النادر والعقيق القرمزي، إنها باختصار تحفة من خارج العالم، سيعيش معها مقتنها أفضل أوقات المغامرة والإثارة، ها هنا أيها السادة تستقر لدينا قطعة فنية صنعت ببراعة قبل آلاف السنين!

اتسعت أعين المشاهدين في انبهار، لكن كينيدي كان أكثرهم انبهارًا بها، ظل مأخوذًا نحوها، شاخصا ببصره إليها، كأنه وقع أسيرا في حبائل سحرها، في حين واصل المنظم العرض قائلا:

- نبدأ المزاد أيها السيدات والسادة، سيكون السعر المبدئي عشرة آلاف دولار، من يفتتح المزايدة على تلك التحفة؟

ارتفع صوت أحد الحضور وهو يقول في حماس:

- أحد عشر ألفا.

ردد المنظم خلفه في حماس أكبر:

- أحد عشر ألفا، من يدفع أكثر؟

توالت المزايدات تلو الأخرى، وارتفعت وتيرة المنافسة بين الحضور. اشترك كينيدي بنفسه في المزايدة أكثر من مرة حتى اقترب السعر من حاجز نصف المليون دولار. ازداد إصرار كينيدي، بينما ازدادت عصبية جاكلين. لكنها لم تملك إلا الاعتراض الصامت، حتى بلغ اليأس مبلغا كبيرا من كينيدي. لم يكن يتصور قبل المزاد أن يصل السعر إلى هذا الرقم الضخم. تجاوز الثمن ميزانيته التي حددها مسبقا ببضعة مئات من الآلاف. لا بد أن تحفة يتجاوز سعرها خمسمائة ألف دولار هي مَغْرَمٌ كبير حتى بالنسبة لرجل يملك ملايين الدولارت. ورغم كون كينيدي من أكثر رؤساء أمريكا ثراءً، لكنه كان متنازعًا بين رغبته في اقتناء القلادة، وبين دوافعه في الحفاظ على المال، من أجل معركته الانتخابية الشرسة التي يوشك على خوضها بعد شهور قليلة. استمر الحضور في المزايدة على القلادة، حتى تخطت حاجز الثمانمائة ألف دولار. كاد المزاد أن يرسو على أحد الحضور، حين اخترق القاعة صوت حاسم قائلا:

- مليون دولار.

دارت رؤوس الحاضرين، واشرأبت الأعناق لرؤية ذلك الوافد الذي حطم كل الأرقام، وزايد فوق الجميع في جرأة يحسد عليها. في حين هب كينيدي واقفا، استدار بجسده، ليرمق صديقه جوزيف الذي كان يخطو داخل القاعة على مهل، توجه جوزيف نحو المنصة مباشرة. ألجمت المفاجأة شفتي كينيدي، انعقد لسانه وعجز عن النطق، حتى جاء صوت المنظم مرددا بأسلوبه المسرحي:

- مليون دولار.. ياله من رقم رائع.. مليون دولار سجلها مستر جوزيف، هل من يدفع أكثر أيها السادة؟

تردد الجميع في المزايدة بعد وصول السعر إلى ذلك الرقم الكبير -على رأسهم كينيدي نفسه- وصل جوزيف إلى حيث يقف صديقه في تلك اللحظة. صافحه بسرعة مبتسما، تجاوزه إلى المنصة في جرأة واثقة وسط صمت الحضور. لم يجرؤ أحدهم على المزايدة بدولار واحد بعد مداخلة جوزيف.

لحظات مرت على كينيدي كالدهر، حتى صعد جوزيف إلى المنصة. وقف بجوار المنظم الذي لم يصب بأية دهشة. اعتاد الرجل من جوزيف مثل تلك المواقف الجريئة. ظل يردد نداءاته على الحضور لحثهم على المزايدة. مضت فترة طويلة حتى أعلن عن إرساء المزاد لصالح جوزيف. تناول الرجل الميكروفون من المنظم قائلا بنفس الجرأة:

- اسمح لي أن أخاطب الحضور يا مستر «أندرو».

ارتفع صوته عبر مكبرات الصوت قائلا بنفس جرأته مع ابتسامة عريضة:

- أود أن أشكر إدارة المزاد على إتاحة هذه الفرصة الرائعة، وعلى جلبهم لهذه التحفة النادرة إلى مزاد اليوم. كما أود أن أستغل نفس تلك الفرصة لتكريم صاحب الشخصية المحبوبة. هذا الرجل الصالح الذي أتى بنفسه إلى فيلادلفيا ليحضر المزاد، غير مكترث باعتراضات طاقم الأمن بالبيت الأبيض، والذين لا أشك في وجودهم بيننا الآن. لكنه رغم ذلك، وحرصا منه على تقدير التراث الإنساني، قد حضر بنفسه هذه المرة بدلا من وكيله الخاص. أريد أن أحيي معكم رئيسنا الموقر «چون كينيدي».

انطلقت الصيحات الحماسية والتصفيق الحاد بعد كلمات جوزيف الرنانة. ارتفع صوت جوزيف مجددا داخل القاعة قائلا بنفس الأسلوب:

- من أجل ذلك أيها السادة، أود أن أعلن في هذا الموقف عن تقديم هذه التحفة الثمينة كهدية متواضعة لرئيسنا العزيز.

ضجت القاعة مرة أخرى بالصيحات والتصفيق، وجوزيف يشير بذراعه الممدودة نحو كينيدي يدعوه للحضور إلى المنصة. فما كان من كينيدي المذهول إلا أن لبى دعوته مترددا وسط التصفيق المستمر.

أخرج المنظم القلادة من صندوقها الزجاجي ليسلمها ليد جوزيف. أحاط بها عنق كينيدي المرتبك من أثر المفاجأة، وانهالت أضواء الكاميرات على المنصة لتلتقط الصور التذكارية للرئيس مرتديا قلادته الأثرية.

اتسعت ابتسامة جوزيف. امتلأ بالثقة وقد أتم مهمته بنجاح. ها قد وصلت القلادة إلى «بابل الثانية» -سيدة العالم الجديد- واستقرت على صدر رئيسها.. أما «كينيدي» فلم يكن لديه أدنى فكرة عما ستسفر عنه الأيام التالية.

-٧٢-

مُؤَامرَة

«إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء، والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه».

حكماء الظلام

***

مقر وكالة الاستخبارات الأمريكية – لانجلي – ولاية فرجينيا
سبتمبر ١٩٦٣م

طرق اليهودي جيمس أنجلتون -عضو الاستخبارات الأمريكية ورئيس قسم مكافحة التجسس- باب مكتب الجنرال «چون ألكسندر ماكّون» رئيس الوكالة، ثم فتح الباب ودخل إلى الحجرة دون أن ينتظر ردا، قبل أن يخطو بضع خطوات داخل مكتب رئيسه، حتى صار في مواجهة مكتبه، نظر إليه الأخير مشيرا له بالجلوس فأعرض قائلا بابتسامة غير مريحة:

- لن أطيل عليك.

أجابه «ماكون»:

- كما يحلو لك، فلنعرض ما جئت من أجله يا جيمس.

صمت جيمس للحظات قبل أن يقول بلهجة حرص على أن تحمل طابع الخطورة:

- كينيدي.

أجابه ماكون متسائلا:

- الرئيس؟!

أومأ جيمس برأسه إيجابا فسأله «چون ماكون» بحذر:

- وما شأنه؟

تأمله جيمس قليلا ثم قال بنفس اللهجة:

- لقد خرج الرجل عن الخط المرسوم.. بل كل الخطوط المرسومة.

تبدل وجه «چون ماكون» فجأة وخرج عن هدوئه وهو يجيب محتدًا:

- وما هي الخطوط المرسومة يا جيمس؟ ومن الذي رسمها؟ هل أصابكم جميعا الجنون فصرتم ترددون الكلام نفسه؟

تأمل جيمس رئيسه قليلا قبل أن يقول في لزوجة:

- أنت تعرف ما أعرفه يا جنرال لكن لا مانع من ذكر المزيد.

تأمله «چون» حانقا في صمت بينما واصل جيمس حديثه المستفز:

- الرجل أصاب العديدين بالغضب البالغ، وبقاؤه أصبح خطرا على بقائنا جميعا بل على الولايات بأكملها.

أراد «چون» أن يقاطعه معترضا إلا أن جيمس عاجله قائلا:

- أنت تعرف القواعد يا جنرال، ينبغي أن يتحلى رئيس أمريكا بالذكاء، ولا يتطرف في خياراته ليبدو بطلا في عيون أنصاره، بينما يبدو في نظر شركاء اللعبة الأساسيين كالأخرق الذي يريد إفساد كل شيء ببطولته الزائفة.

استمر «چون ماكون» في صمته الحانق، بينما واصل جيمس حديثه وهو يخطو خطوات بطيئة داخل الحجرة قائلا بلهجته الكريهة:

- لقد أغضب -هو وأخوه روبرت- زعماء المافيا، بعدما ساندوه في حملته

الانتخابية حتى وصل إلى منصبه الرئاسي، بل أطلق روبرت على أثرهم، ليلقي القبض على أهم زعمائهم، ويستعد الآن لسحب جنودنا من فيتنام، في الوقت الذي عقدت فيه كل صفقات السلاح مع الشركات المصنعة، لتوريد الأسلحة اللازمة لحرب مفتوحة، فضلا عن معارضته أكثر من مرة لمحاولات الوكالة بتصفية كاسترو، وانتهاجه لتلك السياسة الحمقاء معه في الفترة الأخيرة، مما أغضب المعارضين الكوبيين، ثم مؤخرا معارضته للبرنامج النووي لإسرائيل وإصراره على إجراء التفتيش، فضلا عن مباحثاته غير المعلنة مع الفلسطينيين من خلف ظهر إسرائيل، والذي أغضب بن جوريون بدوره وأعضاء اللوبي اليهودي.

صمت قليلا قبل أن يستدير في مواجهة رئيسه وهو ينظر في عينيه قائلا:

- ثم والأدهى من كل هذا هو ما قاله في خطابه الأخير!

أجابه ماكون في ضيق:

- ماذا تقصد تحديدا؟

ابتسم جيمس ابتسامة شريرة قائلا:

- لقد تحداهم.. وعلنًا!

أجابه ماكون في ضيق أكبر بلهجة متسائلة:

- تحدى من؟

اتسعت ابتسامة جيمس وهو يقول:

- المجتمعات السرية.. لا أحد يفعل ذلك يا جنرال، هؤلاء لا ينبغي اللعب معهم بهذه الطريقة الخرقاء، وأنت خير من يعرف نفوذ هؤلاء في الولايات وخارجها، وما يستطيعون فعله بما يملكونه من مؤسسات ضخمة، ورؤوس أموال تتحكم في كل شيء.

صمت قبل أن يواصل حديثه وهو يميل نحو «جون ماكون» مستندا براحتيه فوق سطح مكتبه:

- لقد تحداهم علنا وهم قبلوا التحدي. أصر على ظهوره بدور البطل الأخرق الذي يحارب طواحين الهواء. وهم وافقوا على أن يمنحوه البطولة المطلقة التي يرغبها. لكن البطولة ثمنها غالٍ جدا يا جنرال. وباختصار فإن كينيدي ليس هو الرجل المناسب لهذه المرحلة. لذلك هم مصرون على إزاحته بأي ثمن.

تردد رئيس الاستخبارات الأمريكية قبل أن يجيبه. وقد بدأ يدرك خطورة الأمر:

- وهل أظهروا نواياهم لإزاحته؟

قال جيمس:

- ليسوا وحدهم. بل معهم المافيا. والكوبيون المعارضون لكاسترو. وقادة إسرائيل. واللوبي اليهودي بالولايات المتحدة. ثم شركات الأسلحة.. كل هؤلاء يريدون إنهاء تلك التمثيلية السخيفة فورا. وقد تواطأت رغبتهم في إزاحته عن طريقهم حتى لا يعرقل مصالحهم.

أجابه الجنرال ماكون محتدًا وقد استعاد عناده:

- لا يمكنهم فعل ذلك.. فليلجؤوا إلى إسقاطه في الانتخابات القادمة. نحن دولة ديمقراطية يا رجل.

انفجر جيمس ضاحكا. وتخلى عن تحفظه أمام رئيسه لأول مرة وهو يقول في سخرية:

- دولة ديمقراطية! دعابة جيدة يا جنرال. هذه شعارات يرددها سيناتور جمهوري عجوز أمام خصومه الديمقراطيين في مجلس الشيوخ. للضغط عليهم لتخفيض الميزانية قليلا.

ثم صمت قبل أن يقول محذرا:

- هؤلاء لا ينتظرون يا جنرال. لو انتظر كل خصومه للعام القادم فلن تمهله الجمعيات السرية أن يبقى أكثر من ذلك على قيد الحياة. هم فقط يريدون أن تخرج العملية نظيفة.

انعقد حاجبا ماكون غضبًا وقد فهم ما يرمي إليه جيمس وهو يقول:

- أتريد للوكالة أن تتورط في تصفية الرئيس؟

انطلقت ضحكات جيمس للمرة الثانية قائلا:

- وهل هي المرة الأولى؟

زادت حدة الضيق في لهجة ماكون قائلا:

- وما دخلنا نحن بذلك؟ ألا يكفيهم ألا نتدخل في الأمر هذه المرة؟

اكتست نظرات جيمس بالقسوة وهو يقول:

- أن يتم الأمر بعلمنا وتحت رقابتنا، وبالإحكام اللازم خير من أن يتم بدوننا ثم نتورط في التحقيق ونضطر لإخفاء الأدلة بأيدينا يا جنرال. سنتورط في كل الأحوال وسيفعلون ما أرادوا. ولن نستطيع حينها توجيه التهمة للجمعيات السرية، أو حتى إلى أية جهة من تلك الجهات. وسيبدو الأمر أمام العالم كله كدعابة سمجة غير قابلة للتصديق.

غرق الجنرال ماكون في التفكير العميق لفترة، واستغرق في الصمت -دون أن يقطعه جيمس- وبدا كالفأر الحبيس الذي حوصر داخل مصيدة ضيقة، قبل أن يقول مستسلمًا:

- ومن سيدير هذه العملية؟

قال جيمس بمنتهى الحسم:

- أنا.

تأمله ماكون صامتا قبل أن يستدرك جيمس:

- كلانا فقط سيكون على علم بالأمر، وسأطلعك على كل التطورات، لكن ينبغي أن تنتدبني على رأس فريق التحقيق، الذي سينعقد بعد إتمام العملية.

أومأ «ماكون» برأسه ببطء وهو يقول في اقتضاب:

- لك هذا.

ثم استدرك في سرعة متسائلا:

- ولكن.. لماذا أنت؟ تتحدث وكأنك ممثل عنهم. هل أنت على اتصال بكل هؤلاء دون علمنا يا جيمس؟

رفع جيمس حاجبيه في دهشة مصطنعة قاصدا بها السخرية من رئيسه. كان «ماكون» يعلم دور جيمس جيدا. ووساطته كيهودي وعضو فاعل في وكالة الاستخبارات الأمريكية. وما قام به من أدوار جوهرية. أبرزها إسهاماته في إنشاء جهاز الموساد الإسرائيلي قبل سنوات طويلة. لذلك أجاب جيمس رئيسه معاتبا:

- وهل نسيت دوري الرسمي وبعلم الوكالة مع كل هؤلاء يا جنرال؟ سأندهش حقا إن لجؤوا إلى غيري بعد كل الأدوار التي لعبتها معهم جميعا -خاصة مع إسرائيل- عندما ترأست مكتب الوكالة هناك. وأدرت ملف التحالف بين البلدين. ومساعدتي لهم في إنشاء جهاز الموساد. بالإضافة لما قمت به مع النخبة وجمعياتها السرية في أمريكا.

سرح ماكون في فراغ الحجرة وهو يومئ برأسه قائلا:

- معك حق.

ارتسمت ابتسامة كريهة أخرى على وجه جيمس والتمعت عيناه وهو يقول:

- شكرا يا جنرال.

ثم استدار لينصرف دون كلمة واحدة إضافية. ودون أن ينتظر جوابا من «ماكون» الذي سقط في بئر عميقة من التفكير في تلك الحقيقة المفزعة التي وجدها ماثلة أمامه بجلاء.. ستتورط وكالة الاستخبارات الأمريكية في عملية اغتيال رئيس الولايات. وسيديرها اليهودي جيمس أنجلتون.

المَحْفَــل

«سنقودهم من خيبة إلى خيبة، لن تقف قوة في طريقنا، لأننا أصبحنا قوة فوق المتناول، فبإمكاننا دائما تدمير هيبة الحكام، والسيطرة على خلفائهم بتنفيذ الاغتيالات بواسطة عملائنا».

حكماء الظلام

***

الولايات المتحدة الأمريكية
ديسمبر١٩٦٣م

- ضربة موفقة أيها النخبة!

قالها أحد الحاضرين لزملائه المجتمعين في مجلسهم، داخل ذلك البهو الفسيح بأرضيته المميزة، ذات اللونين الأبيض والأسود كرقعة الشطرنج، بدوا كفرقة أوركسترا في زيهم الشعائري الموحد، بحلتهم السوداء ومئزرهم الأبيض الذي يحيط الوسط، ووشاحهم الملتف حول العنق متدليا على الصدر، وقفازاتهم البيضاء في كفي كل عضو منهم، غير أنهم لم يحملوا أية آلات موسيقية.

ضمت قاعة المحفل جمعًا من أعضاء الأخوية من جميع الولايات، تم انتقاء

الأعضاء في الدرجة العليا، وجهت لهم الدعاوى ليشهدوا جلسة استثنائية، جلسوا جميعا على مقاعدهم المتراصة بانتظام حول منطقة وسط البهو الشطرنجية، بدت على هيئة جناحين على طرفي القاعة، كل جناح في مواجهة الآخر، بينما ارتفعت أصواتهم تحمل تعليقات مختلفة بعد سماعهم عبارة رئيسهم.

كان الرئيس يسمى عندهم الأستاذ الأكبر وهو أعلاهم درجة، كانت توضع له منصة إلقاء مخصصة في صدر البهو، وعلى جانبي المنصة مقعدان مميزان يجلس فوقهما حاجبا الجلسة، وأمامها في منتصف الأرضية الشطرنجية ثلاثة أعمدة غير متصلة بالسقف، كأنها تحمل الفراغ من فوقها، اثنان منهما متجاوران، والثالث يقف منفردا متأخرا عنهما، وخلف الأعمدة ارتفع شعار جمعيتهم وبجواره شعار الأخوية يتوسطان الجدار.

جلس رئيسهم خلف المنصة يحمل مطرقة في يده -كالتي يحملها القاضي على منصة القضاء- طرق بها فوق قرص خشبي مع ارتفاع همهمات الحاضرين، همدت الأصوات في فراغ القاعة، قبل أن يتحدث الرئيس بصوته الرنان:

- أيّها الإله القادر على كل شيء، القاهر فوق عباده، أنعم علينا بعنايتك، وتجلّ على هذه الحضرة.

قال الأعضاء في صوت واحد:

- آمين.

قال الرئيس:

- من الجيد أن تنجح عملياتنا -وهو ما يجب أن يحدث دائما- لكن الأهم من ذلك أن نراجع الخطة بالكامل ليتعلم الجميع الدروس المستفادة من تلك العملية.

أشار إلى أحد الحاجبين قائلا:

- اتل علينا ملخصا سريعا لأسباب القيام بتلك العملية وأهدافها وتفاصيلها.

نهض الحاجب الذي يجلس على يمين المنصة وأخرج أوراقه وقرأ:

- عبر قرن كامل منذ عهد لينكولن، وفي عهد ثمانية عشر رئيسا جلسوا في البيت الأبيض خلال تلك الفترة، لم يجرؤ أحدهم على تخطي القواعد والأصول السرية غير المعلنة، التي وضعها جورج واشنطن ونخبته لرئاسة هذه الدولة، إلا في عهدي «أبراهام لينكولن» و«چون كينيدي» الكاثوليكيين، خاصة الأخير الذي كان يغرد خارج السرب منفردا مثلما حاول أن يفعل نظيره السابق، لم يدرك «چون كينيدي» —ومن قبله لينكولن- المعنى الحقيقي من وراء وجود مجتمعاتنا السرية، ولم يقدر بعقل راجح موازين القوى الحقيقية، ولم يدرك قواعد اللعبة، بل تحدى ميثاقنا كله في تحدٍ سافر لا يغتفر، ومن ثم كان لا بد من إزاحته عن الطريق، حتى تستمر مسيرة هذه الدولة التي قامت على وجود المؤسسات سواء الرسمية منها أو السرية، وينص ميثاقنا غير المعلن على عدم التسامح بشكل قاطع عند تخطي تلك القواعد والأصول.

صمت الحاجب ونظر لرئيسه، فقال الأخير:

- مقبول، أكمل.

واصل الحاجب كلامه قائلا:

- لذلك فنحن نتدخل عند الضرورة لنؤكد لكل حاكم على أنه يحكم بشروطنا، ومهما ظن أي حاكم منهم أنه قد أمسك بمقاليد الأمور فلسوف يتبين له أنه قد أمسك بسراب، وهذا ما حدث لنابليون حين خرج عن الخط المرسوم.

قال الرئيس:

- أجل، أكمل.

استمر الحاجب قائلا:

- تواطأت إرادة تلك المؤسسات على إزاحة «كينيدي» في عملية نظيفة وبتخطيط محكم وتنفيذ متقن، فقامت كل مؤسسة بدورها المنوط بها على

أكمل وجه. فتمت العملية بنجاح وانقطعت كل الخيوط التي يمكن أن تكشف التفاصيل الحقيقية لما حدث. فالخطة كانت تتضمن تنحية كل العناصر التي كان من الممكن أن تتسبب في الفشل. فنحن لا نترك شيئا للمصادفات. فدفعنا بعناصرنا لتنفيذ أدوارهم المحسوبة بدقة. وبداية.. فقد أوعزنا إلى الطبيب «جون لاتيمر» لعرض القلادة على مزاد فريمانز. ثم بعد إتمام العملية دفعنا بالطبيب الذي فحص الضحية لنزع القلادة من صدره لتستقر بين أيدينا. أما في تنفيذ العملية نفسها. فقد تم تمرير تعليمات عن طريق رجالنا في البيت الأبيض للإيحاء بفكرة السيارات المكشوفة إلى «كينيدي» حتى يستقل إحداها. وقد أشرقت الشمس وتغير الطقس كما قدرنا وفقا لما أدلى به أحد أعضائنا من خبراء الأرصاد. وقام طبيب كينيدي -الذي يعمل لحسابنا دون علمه- بالتشديد عليه بارتداء حزام الظهر حماية له من آلامه المزمنة بدعوى أنه سيشد ظهره وسيحميه من استفحال الألم. وكان ذلك الحزام هو الضامن لعدم إفلات كينيدي من القتل. ومنعه من الانحناء أو الانبطاح في قاع السيارة إذا ما أفلتته الرصاصة الأولى. وهو ما حدث تماما.

صمت الحاجب مرة أخرى عند إنهاء هذا الجزء من التقرير. ونظر لرئيسه من جديد. فقال الأخير بنفس الحزم:

- مقبول. أكمل.

واصل الحاجب مرة أخرى قراءة التقرير على مسامع أعضاء المحفل قائلا:

- أما إدارة العملية نفسها. والحيلة المتقنة التي تمت بها فلن يصل أحد إلى هويتها مطلقا. فالقتلة الحقيقيون سيظلون مجهولين للأبد. والمتهم الرسمي بالقتل «لي هارفي أوزوالد» قد تم الخلاص منه أيضا بعد يومين فقط من واقعة الاغتيال. حين قام «يعقوب روبنشتاين» والمسمى بـ «جاك روبي» بتصفيته علنا في سجن دالاس وأمام شاشات التلفاز. وحتى «جاك روبي» نفسه فسوف يتم تصفيته بشكل غامض بعيدا عن شبهة القتل. وستقر لجنة التحقيق بأنه

لم يكن له معرفة مسبقة بـ«أوزوالد»، وبذلك تنقطع كل الخيوط التي تؤدي للمشتبه بهم، وسيشتبه الناس في العديدين، وسيتم تسريب تقارير مفتعلة عن ضلوع السائق ونائب الرئيس «ليندون چونسون» وحارسه الخاص في اغتياله، بل ستصل الاتهامات إلى «چاكلين كينيدي» نفسها في التورط بقتله، سيشكون في الجميع بلا استثناء، كما سيتم إسكات الشهود الحقيقيين لتغيير أقوالهم بخصوص ما شهدوه، رغم أنهم رأوا مجرد ظواهر عاينوها وسمعوها، كدوي الطلقات العديدة التي انطلقت متتالية، وسيرتاب البعض في وجود أكثر من قناص، لكنهم أبدا لن يعرفوا حقيقة ما جرى، وستسفر التحقيقات عن أن المتهم الرسمي قد قام بالاغتيال على نحو منفرد، وأما باقي الشهود فلم يروا شيئا حقيقيا، ولن يدلوا بأي شهادات ذات قيمة، وقد جمعت الشرطة الفيدرالية عشرات الصور والتسجيلات من الكاميرات الخاصة للجمهور، لكن كل هذه التسجيلات والصور لن تضيف شيئا للتحقيقات، وبالتالي فإن اللجنة العليا والمسماة بلجنة «وارين» التي انعقدت بقرار من الرئيس الجديد ليندون «چونسون» لن تجد شيئا لتفعله، سوى إعادة ما قامت به الشرطة الفيدرالية، وبالتالي فلن تصل إلى أية نتيجة مقنعة، خاصة أن رجلنا في وكالة الاستخبارات «چيمس أنجلتون» سيتم انتدابه كعضو في تلك اللجنة، وسيقوم بإخفاء أي شواهد قد تظهر خلال تحقيقات اللجنة بل سيقوم بتخريب أدلة التحقيق والتأكيد على اتهام أوزوالد، وسيحدث تضارب كبير بين نتائج اللجنة وبين تقارير الشرطة الفيدرالية، ونتائج أي لجنة تحقيق قد تنعقد في المستقبل، وحتى تحليلات المؤسسات العسكرية.

صمت مجددا فقال الرئيس مرددا نفس الجملة:

- مقبول، أكمل التقرير.

قال الحاجب:

- أما بالنسبة للمستنا البارعة، والتي تعد بمثابة علامة بارزة وخاتم يميز

عملياتنا المحكمة. فقد تم تنفيذ العملية بتفاصيل اخترناها بدقة وعناية، حتى يحذر من عداوتنا كل من يفكر أن يتحدانا مثلما فعل هذا الرجل الساذج وغيره. وهذا الخروج عن الأصول الذي تورط فيه كينيدي لم يكن له نظير يقارن به سوى ما فعله «لينكولن». لذلك كان لابد أن تحمل العملية نفس سمات العملية السابقة منذ قرن كامل، وسوف يتحدث العديد من الناس بغباءٍ كامل عن التشابه -وربما التطابق- بين حياة ومقتل الرجلين وكأن التاريخ يعيد نفسه. وتشابه حياة الرجلين مفروغ منه، لاتجاههما نفس النهج الساذج حتى في دفاعهما عن الحقوق المدنية للزنوج. وقد تكفلت المصادفة في تشابه بعض التفاصيل الأخرى. أما في تفاصيل تصفيته فقد كان حرصنا على أن تتم العملية بنفس الوسيلة، وهي إطلاق النار عليه من الخلف بطلقة في الرأس، وقد تمت العملية في يوم الجمعة مثل عملية لينكولن. وقد حرصنا على إطلاق نبوءات العرافين عن مقتل كينيدي -مثلما فعل أسلافنا في أيام لينكولن- ليكتسب الأمر صفة القدرية. وقد حرصنا أيضا على أن يتم تصفية كليهما في حضور زوجته. كما راعينا تواطؤ بعض الأرقام كتطابق سنة ميلاد المتهمَين في اغتيالهما، والفارق بينهما قرن كامل. وكلا المتهمين قد تم تصفيتهما لتنقطع صلتهما بالقضية.

انتهى الحاجب من تقريره عند هذا الحد فأشار إليه رئيسه بالعودة إلى مقعده. ثم نظر إلى أعضاء المحفل الجالسين وهو يقول بنفس اللهجة الخالية من المشاعر:

- هكذا أيها السادة تدار مثل تلك العمليات. وهذا هو المصير الذي ينتظر كل حاكمٍ يظن نفسه فوق إرادتنا. كما أن الإزاحة عن ميدان الحكم والقيادة هو مصير كل حاكم يحاول أن يتظاهر بالمثالية، ويصدق أن الحكم السديد يمكن أن يستقيم له بالأخلاق الرفيعة والمثالية غير الواقعية. فالسياسة والحكم في هذا العالم لا يتفقان مع الأخلاق والمثالية في شيء. والحاكم المقيد بالأخلاق لن

يكون أبدا سياسيا بارعا أو حاكما ناجحا، وأبدا لن يكون له استقرار في الحكم، فلابد لطالب الحكم من اللجوء إلى حسن التدبير والمراوغة لا إلى الأخلاق والمُثُل. والتجارب الإنسانية جمعاء -عبر كل ما مضى من عصور- تبرهن على أن محاولات الحكم المثالي الساذج يمكنها أن تزلزل أي دولة بشكل أكبر بكثير مما يبلغه ألد الخصوم. عليكم أن تعرفوا جيدا، وعلى كل حاكم قادم يصل إلى سدة الحكم في تلك الدولة -أو أي دولة أخرى خضعت لقواعدنا- أن يعي هذا الدرس جيدا، وأن يدرك بأنه مجرد ممثل لإرادة فوقية لتنفيذ تلك القواعد وتفعيلها، ولا ينبغي له أبدا أن يصدق نفسه في أن يكون صانعًا للقرار، فالقرار ملك لأصحاب تلك الإرادة العلوية، وكل من يحاول الانفراد بهذا القرار فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء السذج، وسنكمل مسيرتنا في إعادة تشكيل العالم كما يريدها أمير العالم وسيد الجميع.

انتهى تعقيب رئيس المحفل، فأشار إلى الحاجب الثاني قائلا:

- أيها الحاجب العليم ومستشار النخبة الكهنوتي، حان وقت الاستزادة من الحكمة العلوية، أحضر لنا هدية سيد الحياة.

نهض الحاجب الثاني من مقعده -الذي كان خبيرا في طقوس المحفل- ليحضر صندوقًا صغيرًا من خلف منصة الرئيس، توجه نحو الرقعة المربعة البيضاء التي تتوسط العامودين أمام المنصة، كان يتوسطها بدورها نصب صغير كمذبح الكنائس، محاط بنجمة كبيرة رسمت على أرضية الرقعة، وضع الحاجب الصندوق فوق النصب، أُطفئت الأنوار في القاعة، فأوقد الرجل شمعتين كانتا فوق العامودين، وأطلق بخورا عطريا قويا مصنوعا من خشب الأرز والصمغ، انتصب أمام النصب فانتصب جميع الحضور بدورهم وقوفا، يغمرهم ظلام القاعة التي خلت من الضوء إلا من وميض الشموع، بدأ الحاجب في تلاواته بصوته الرنان قائلا:

- أيها الإله القادر المتجلي على هذه الحضرة، هيئ لنا من أمرنا هذه المقابلة

مع واحدٍ من زمرتك العلوية.

ثم فتح الكتاب العتيق الموضوع فوق النصب، قلّب صفحاته القديمة التي تبدو كالمخطوطات، حتى تركها على صفحة مليئة بالتلاوات، يتوسطها خاتم كبير يحمل رمزا قديما تحيطه الكتابات والطلاسم، استرسل يتلو قائلا:

- أيتها الروح العظيمة، رب بابل وشنعار وسيد الحياة، لك المجد في كل العصور، ولك تنحني الجباه احتراما، يا صاحب الخمسين اسما، ومحطم الأحاد القديمة وقاهر جحافلها، تسيدت في وقت قبل الوقت بحكمتك الأزلية، أغلقت البوابات في وجه أرباب الفوضى، حتى علا ذكرك بين الأحاد القديمة، أنعم علينا بحضورك اليوم، وسنكون لك من الشاكرين.

استمر الحاجب في قراءة بعض الطلاسم بلغة قديمة، ظل يرددها مرات عديدة متتالية، استغرق في تلاوتها فترة من الوقت، فرغ من التلاوة وصمت قليلا يتأمل الظلام بخشوع، لم يمض وقت طويل حتى ظهر ضوء خافت، انقشع له الظلام في المساحة التي بين العامودين الأماميين، ازداد وميضه تدريجيا حتى بدت حلقة من نيران فيروزية باهتة، ازداد وهجها واتسعت دائرتها شيئا فشيئا، حتى ملأت الفراغ ما بين الأعمدة الثلاثة، وفي اللحظات التالية ظهرت فجوة عميقة داخل الحلقة الباهتة، قبل أن يتجلى جسد رقيق بهيئة بدت لهم بشرية، وقف صاحبها على بعد ذراعين داخل الفجوة الوليدة بين العامودين، جسد طيفي يشع بنور أبيض باهت يميل إلى الزرقة، أطل عليهم بهيئته، لم يستطع أحدهم للحظات أن يميز إن كان الطيف لذكر أم لأنثى، كان مكسوا بثياب انسيابية تغطي الجسد، كأنها نسجت من نور رقراق، وانسدل من رأسه شعر أبيض فضي طويل تهدل على الكتفين، بينما كان الوجه لشاب حسن الوجه، يحمل ملامح رقيقة، يحسبها الناظر إليها لشابة حسناء من فرط رقتها.

أخيرا، انبعث صوت عميق من منتصف القاعة، ومعه عجز جميعهم عن

النطق حين قال:

- مرحبا أيتها النخبة.

-٧٤-

التَّجَلِّي

«يتجلى الساقطون لأتباعهم كملائكة نور، يلقنونهم الأسرار ويرشدونهم إلى الحكمة المحرمة».

الهاجادا اليهودية

***

انساب الصوت من منتصف القاعة، كان صوتا هادئا، عذب النبرات لكنه عميق. أدرك الجميع -دون تفكير- أنه صوت الطيف الذي أطل عليهم من داخل الفراغ.

- مرحبا بك يا سيد الحياة، لك الشكر على إنعامك علينا بحضورك اليوم.

قالها رئيسهم ثم نظر إلى الحضور قائلا:

- رحبوا معي بسيد الحياة، الروح العظيمة، متكامل المجد، مردوخ المبجل، ذي الخمسين اسما.

أحنى جميع الحضور رؤوسهم تحية للطيف، فقال الرئيس:

- لعلك قد علمت بما جرى يا سيد الحياة، وقد انتهت المهمة كما أردناها، وانقطعت كل الخيوط التي يمكن أن تكشف الحقيقة.

قال الكائن:

- حسنا فعلتم، لكن المهمة لم تنته بعد.

صمت الجميع، فأجابه رئيس النخبة:

- وماذا تبقى أيها السيد؟

أشار الطيف إلى نُصُب المذبح، نحو الصندوق المستقر فوقه منذ وضعه الحاجب، قائلا بصوته الرخيم العميق:

- الآن وبعد مرور آلاف الأعوام في عالمكم عادت القلادة إلى النخبة، ضاعت في مجاهل أرضكم، وقعت في أيدي الكثير من الحكام والمحكومين، قتلت العديد عن عمد، وقضت على غيرهم دون قصد، لكنها في النهاية عادت إليكم، وكان لعودتها الفضل في نجاح مهمتكم ووقوع هذا الحدث الذي هز عالمكم بأسره.

قال رئيس النخبة في حذر:

- ولكن كيف كان لعودتها الفضل في نجاح المهمة أيها السيد؟

ظهر ما يبدو أنه ابتسامة فوق شفتيْ الطيف، وهو يقول بصوت خالٍ من الانفعال:

- ما لا تعرفونه أن هذه القلادة كانت هدية مني لنخبة سبقتكم بقرون طويلة، وإيعازي لكم بوضعها في طريق هذا الحاكم الفاني ليس من فراغ، وحسنًا فعلتم حين أوحى له صديقه بأن يجعلها ملازمة لعنقه وأقنعه بأنها ستجلب له حسن الطالع.

صمت الكيان، فأطبق السكون، ولم ينطق رئيس النخبة ولا أحد الموجودين فتابع قائلا:

- هذه القلادة لها قوة خاصة وسر قاطع، من يرتديها موتا يموت، إنها قوتي ورمز سلطاني، وهي بين أيديكم الآن، وقد اختبرتم قوتها مع أول ضحية على أرض تلك البلاد، أصبحت القلادة تابعة لكم منذ الآن على أرض «بابل الجديدة»، تماما مثلما كانت قديما في بابل الأولى على أرض شنعار.

أجابه الرئيس في تساؤل:

- ولكن.. ماذا علينا فعله بها يا سيد الحياة؟

أجابه الطيف:

- ستستخدمون قلادتي للتخلص من خصومكم، وستفرضون بها سلطاني وسلطان السادة الفوقيين على هذا العالم.

أومأ رئيس المحفل برأسه متفهما، وقال مستوضحا:

- ومتى سنشرع في ذلك يا سيد الحياة؟ وبمن سنبدأ؟

قال الطيف:

- سيتوالى التواصل بيننا، وستعرفون كل شيء في حينه.

وافقه الرجل، وقال في تبجيل:

- بلا شك يا سيد الحياة، والآن دعنا نستعرض تحفتك الثمينة.

لم يصدر عن الطيف أي رد فعل، في حين أشار الرجل إلى الحاجب لإخراج القلادة. أبرز الرجل الصندوق من مكانه في الظلام، وضعه تحت ضوء الشموع، فتح الصندوق بهدوء وأخرج القلادة بحرص، رفعها عاليا أمام الأنظار المترقبة. اتسعت الأحداق في شغف لرؤية القلادة، فجأة ارتفع صوت الطيف في صرخة هادرة انخلعت لها قلوب الأعضاء:

- ليست تلك قلادتي!

انتفض رئيسهم واقفا وهو يحدق في القلادة باستنكار، وتبعه جميع الأعضاء وقوفا، سادت الفوضى. اندفع الرجل على إثرها نحو الحاجب لينتزع القلادة من يده ليتفحصها، ومن داخل الفجوة تصاعدت خيالات كثيفة بلون النار، تبدلت هيئة الكائن الطيفي إلى هيئة مفزعة وظهرت عليه ملامح الغضب، استحالت القاعة إلى اللون الأحمر القاني، ارتبك رئيس المحفل واضطرب الحاجبان وتجمد الأعضاء من الذعر، جثا رئيسهم على ركبتيه وهو ينظر نحو الطيف في وجل، تبعه كل الأعضاء جثيًا، خرجت الكلمات مرتعشة من حلق الرجل وهو يقول:

- لا بد أن خطأً ما قد وقع يا سيد الحياة، نتوسل إليك أن تسمح لنا بإصلاحه.

طال ترقبه هو ورفاقه، عصف الخوف بكيان الجميع، كاد القلق يقتلهم عندما لم يتلقوا ردا من الجانب الآخر، مرت لحظات قبل أن تتلاشى الفجوة دون مقدمات، هب رئيسهم واقفا موجها كلامه لحاجبيه صارخا بحدة:

- لا بد أن نستعيدها بأي ثمن، لن يفلت من قام بهذه الفعلة.

عادت الأضواء إلى القاعة، ارتفعت الهمهمات بين أعضاء المحفل، تبادل الحاجبان النظرات، أشارا إلى بعض الأعضاء في القاعة ليتوجهوا إليهما، تبادلا معهم بعض الكلمات الهامسة، حتى قال الحاجب الأول مخاطبا رئيسه:

- سنبذل المستحيل لاستعادة القلادة أيها الأستاذ الأكبر، سينال الفاعل جزاءه المستحق.

***